

الرَّحْمَةُ «كَافٌ»

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْكَوَافِي

يَتَلَمَّدُ
عَبَاسُ مُحَمَّدُ الْعَفَّادُ

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



السيد عبد الرحمن الكواكبي

سِيرَةٌ مُهَمَّةٌ

بدأت بحثي في سيرة الكواكب فرأيت أن أعود إلى تاريخ «حلب» لأعرف الكواكب من المدينة التي نمتها وأنشأته ، وأعرف من تواريختها وأحوالها أين تقع مزية التي كان لها الفضل في نشأته وتفكيره والاتجاه به إلى وجهة حياته .

ويعلم قراء العربية أن مدينة حلب إحدى المدن «المخدومة» من الناحية التاريخية بين مدن الشرق العربي القريب، ومعنى «المخدومة» معناها في اصطلاح العرف الحديث ؛ ومعناها في هذا الاصطلاح أنها مدينة لقيت من يخدمون تاريختها من أبنائها والتازلين بها من العرب وغير العرب ، فكتبوا عن حوادثها وعهوتها ومعالجتها وأعلامها وطبيعة إقليمها وخارات أرضها ما لم يتفق نظيره لغير القليل من مدن العالم القديم . فلم يفتهن من تسجيلاً لها شيء توافر لمدينة غيرها ، وما فاتها في هذا الباب فهو الذي فات المؤرخين الأقدمين أن يتذروا إليه على عادتهم في تسجيلاً لهم ومحفوظاتهم عن كل مدينة وكل زمن ، لاحيلة فيه للمؤرخ الحديث غير إتمام الرواية والخبر بالتفسير والتقدير .

إلا أنني رجعت إلى تاريختها في هذه المرة لأعرف «الكواكب» غاية المعرفة التي تستطاع من العلم بموطنه وماضيه . فلم أفرغ من مرجع واحد حتى تمثلت لي المزية التي بحثت عنها وب Dahl أني كافية وحدها ولو لم تشفعها مزية أخرى ۱

حلب مدينة حل وترحال غير منقطعة عن العالم ، ولم تنفصل قط عن حوادثه وأطواره ، كأنها المرقب الذي تتعكس فيه الأرصاد فلا تخفي عليه خافية ، ولا يعزل بيتهما عن دانية ولا نائية .

ولم أرني أخوض بعيداً من الضفة في هذا البحر الراخر بالأنبار والأنساب لأعلم من أمر أسرتي وبلدي أن أسوان لم تفصل في عصر الكواكب خاصة عن حلب ، على مابين البلدين من بعد المسافة بحساب الفراسخ والأميال .

إن أجدادى – لوالدى – سلالة كردية تفرعت أصولها زمناً بين ديار يكر وأورفة ومرعش ، ورأيت آخر من لقنته منهم يلبس العامة الخضراء كما يلبس الطريوش العثماني والقلنسوة الكردية . ولم يزل بيته أخوالى في البلدة يعرف ببيت الشريف ويسجل في مكاتب البرق بهذا العنوان .

وكنت أسأل كبراء السن منهم مازحاً : من أين لكم هذا الشرف وأتم سلالة أكراد ؟ فكانوا يذكرون لي قصة طويلة عن اتصالهم بالصاهرين بن جاورهم من آل البيت في مدن الإيالة ، ويدكرون جيداً كل صلة لهذه المدن بعواصم الإيالات مع ارتباك العلاقة يومئذ بين الديار الكردية وعواصم الإيالات العثمانية ، تارة إلى حلب وتارة إلى العراق .

وأقرأ في الكتب الأوربية على الخصوص أحاديث شتى عن «الرعوس الخضر» في حلب أولئك الذين يلبسون العامة الخضراء من ينتسبون إلى آل البيت من جانب الآباء أو جانب الأمهات ، ومن هؤلاء أكراد أمهاطهم عربيات .

وتنسب إلى هذه الطائفة من لابسى العامة الخضراء أسرة أسوانية أخرى مضى على وفود كثيرها من موطنها أكثر من مائة سنة وأذكره في آخريات أيامه يعامتها الخضراء وموكيه من أنبياع الطرق الصوفية التي تتشعب فروعها في البلاد العربية والتركية ، وهو مع اشتغاله بالتصوف تاجر ناجح ورأس أسرة ناجحة ينتهي إليها اليوم الطبيب والمحامي والموظف والتاجر ومالك العقار .

وقد وفدت العسكريون والمدنيون من أصحاب هذه العائمة إلى الصعيد بعد ثورات دامية في ولاية حلب على ولاتهم الترك الذين أجlahم جيش إبراهيم باشا عن الولاية بعد قليل ، فلما أعيدت هذه الولاية إلى الدولة التركية تعلمت مقاماتهم فيها فعادوا مع الجيوش المصرية وأقيم بعضهم في الصعيد وبعضهم في السودان .

ولعل « عبد الرحمن الكواكبي » الذي ولد بعد هذه الحوادث بسنوات قلائل كان يتحدث في صياغة بمحديث واحد عن نقابة الأشراف التي ادعاهما غير أهلها في القسطنطينية ، وعن حكام الترك الذين انتزعوا مناصب أبناء الوطن في الديار الكردية ؛ وهو الحديث الذي رددته هؤلاء المهاجرون المحرضون على شارتهم وشارقة أهليهم في بلادهم ، وظلوا يرددونه على وتيرته حتى سمعناه منهم مرات ١

ولو أن إنساناً يختار لنفسه رسالته وموئله لما اختار عبد الرحمن مولداً أصلح للرسالة التي تهض بها من مدينة حلب : مدينة تتصل بالحوادث وتتصل الحوادث بها ، هذا الاتصال .

* * *

إنني علمت من تجربتي في قراءة الترجم وكتابتها أن النوایع من أصحاب الرسائلات فتنان :

فترة تظهر في أوانها لأن أسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوّان .

وفترة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها ، وهي التي تظهر لتحقق تلك الحاجة التي تبحث عن صاحبها ، وله منها معين يذلل صعابها ويهدي إلى طريقها .

والكواكبي نموذج عزيز المثال لأولئك النوایع أصحاب الرسائلات الذين انفقت لهم أسباب زمانهم ومكانتهم وأسباب نشأتهم ودعوتهم ، نكاد سيرته أن تغرس بالكتابية فيها لأنها « تطبيق » محكم لترجم هذه الفترة من نوایع الدعاة .

تهيأت له البيئة وتهيأ له الزمن ، وتهيأت له الرسالة ، فلا حاجة بكاتب السيرة إلى غير الإشارة القريبة والدلالة العابرة ، وهناك فانظر . . . هاهو ذا صاحب الدعوة قائمًا حيث ترى من حيث نظرت إليه .

ولو لم تكن للسيرة من موجباتها غير هذا الإغراء لكان ذلك حسبها من وجوب عند كاتبها وقارئها ، ولكنها سيرة يوجبها الفن لفن ويوجبها التاريخ للتاريخ ويوجبها علينا أنها حق لصاحبتها وقدوة صالحة لمن يقتدي به في دعوته الباقية . . .

. وإن لها لبقية متتجددة بين أبناء اللسان العربي في كل جيل .

عباس محمود العقاد

الكتاب الأول

مَدِينَةٌ

(١) مدينة عربية عريقة :

ولد عبد الرحمن الكواكبى ونشأ في مدينة عربية عريقة ، هي حلب الشهباء .

وقد عرفت المدينة باسمها هذا – مع بعض التصحيف – منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وورد اسمها في أخبار رمسيس الأكبر ، وورد بين أخبار حورابي في القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وورد في أخبار شلمنصر (٨٥٨ - ٨٢٤) ... وورد خلال هذه القرون في كثير من الحفريات والآثار التي تتصل بتواريخ الحيثيين والعلاقة من الشمال إلى الجنوب .

ولا يعرف على التحقيق مبدأ بنائها وإطلاق هذا الاسم عليها ، ولكنها – كيما كانت التوارييخ المروية – أقدم ولا شك من كل عهد وردت أخباره في تلك الروايات ، لأن قيام مدينة في موقعها ضرورة أحق بالتصديق من أسانيد المؤرخين وأساطير الرواية . لأنها في مكان توافر فيه كل شرط من شروط المدينة العاملة من خصوب التربة وسعة المكان واتصال الطريق بين موقع العمران وقوافل التجارة ومسالك الفاتحين أو معاقل المتحصنين المدافعين . ولا غنى عن مدينة في مكانها للاستفادة بموارد الزرع والبيع والشراء ، وتنظيم الإدارة الحكومية في جوارها ، وتبادل المعاملات فيها حولها ، وتأمين المواصلات بينها على تعدد الحكومات أو وحدتها .

فالمدينة التي ينبغي أن تقوم في هذا المكان حقيقة تاريخية غنية عن سجلات التاريخ . وقد يخطئ بعض المؤرخين في بيان السنة أو الفترة التي بنيت فيها ، لأنه يخلط بين بنائها الأخير بالنسبة إليه وبينها الأول قبل ذلك بقرون ، إذ كانت

موقعًا معرضًا فيها مرضى للزلزال معرضًا للغارات والمنازعات ، يبني ويهدم آونة بعد أخرى ولكنها يسرع إلى العمار ولا يطول عليه الإهال . وقد فطن بعض المؤرخين إلى ذلك فيما نقله ابن شداد حيث يقول : « ... وهذا يدل على أن سلوقوس بنى حلب مرة ثانية وكانت خربت بعد بناء بلوكرش ، فجدد بناءها سلوقوس . فان بين المدتين ما يزيد على ألف ومائة سنة » (١)

وما يدعوه إلى اللبس في تصحيح أقوال المؤرخين عنها أنها سميت بأسماء أخرى أو ذكرت باسم « قنسرين » على سبيل التغليب والمحاورة للتعيم بدل التخصيص . ومن أسمائها عند اليونان إسم « برية » الذي أطلقوه عليها كعادتهم في إطلاق أسماء بلادهم على المدن التي يدخلونها .

ولكن اسم « حلب » أقدم من هذه الأسماء جميعاً وأقرب إلى طبيعة المكان وإلى اللون الذي سميت من أجله به « الشباء » وهو لون أرضها ولون الحرار الذي تطلي به مبانها .

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان :

« حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة التحيرات طيبة الهواء صبغة الأديم والماء ، وهي قصبة جند قنسرين في أيامنا هذه . والحلب في اللغة مصدر قوله : حلبت أجلب حليا قال الزجاجي : سميت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب فيها غنميه في الجماعات ويتصدق به . فيقول القراء : حلب حلب ، فصحى به » .

قال ياقوت : « وهذا فيه نظر ، لأن إبراهيم عليه السلام وأهل الشام في أيامه لم يكونوا عرباً ، إنما العربية في ولد ابنه اسماعيل عليه السلام وقططان . على أن لإبراهيم في قلعة حلب مقامين يزاران إلى الآن . فان كان لهذه اللفظة أصل في العبرانية أو السريانية لجاز ذلك . لأن كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا يفارقه إلا بعجمة يسيرة كقولهم : (كهنم) في جهنم »

(١) البر المتنفس في تاريخ ملوك حلب .

إلى أن قال : « وذكر آخرون في سبب عمارة حلب أن العمالق لما استولوا على البلاد الشامية وتقاسمواها بينهم استوطن ملوكهم مدينة عمان ومدينة أريحا الفور ودعاهم الناس الجبارين ، وكانت قنسرن مدينة عامرة ولم يكن يومئذ اسمها قنسرن وإنما كان اسمها صوباً ... » .

وقد أصحاب ياقوت في ملاحظته الأولى ؛ فإن لغة إبراهيم عليه السلام لم تكن عربية ، ولم تكن العربية كما تكلمها أهلها بعد ذلك معروفة في عصره ، ولكنه أصحاب كذلك في ملاحظته الثانية إذ خطر له التشابه بين ألفاظ اللغات واللهجات التي شاع استعمالها في بطحاء حلب قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون . فإن الآرامية – عربية ذلك العصر – قريبة بجميع لهجاتها إلى العربية الحديثة ، وتفيد الكلمة « حلب » فيها معنى البياض ، ومنه لون اللبن الحليب ، بل يرجح الكثيرون أن اسم « صوبا » الذي ذكر ياقوت أنه كان يطلق على قنسرن إنما يعني « الصهبة » التي تقرب من الشهبة في لفظها ومعناها ، وكانت حلب توصف بالشيبة وتشتهر بالصفة أحياناً فيكتفى بها من يذكرونها دون تسميتها . وورد اسم مدينة صوبا غير مرة في أسفار العهد القديم فرجح أناس من مفسريه أنها حلب ورجح الآخرون أنها قنسرن ، ولا يبعد إطلاق الاسم أحياناً على المكانين .

على أن الأمر الثابت من وقائع التاريخ أن الآراميين سكنتوا هذه البقاع قبل عهد إبراهيم عليه السلام ، وأن المدينة وما جاورها كانت عربية بالمعنى الذي نبحث فيه عن أصل العربية القديم ولا نقف فيه عند تاريخها الأخير ، وقد ثبت أن أسلاف الآراميين غلبوا على هذه البقاع في عهد الملك سراجون قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرناً ، ولم تكن هنالك لغة أخرى يغدو فيها الحليب معنى البياض غير الأصول العربية الأولى .

* * *

(٢) ومدينة عامرة :

والمدينة بموقعها وقدم عهدها مدينة حل وترحال ، يقيم فيها من يقيم ويتردد عليها من يتصرفون في شئون معاشهم من أبنائها وغير أبنائها ، تعددت فيها أسباب المعاش من زراعة وصناعة وتجارة فلم تنحصر في مورد واحد من هذه

الموارد، وكتب رسل Russell — وهو من أقاموا فيها حقبة من القرن الثامن عشر— مجلداً ضخماً عن تاريخها الطبيعي فأخصى فيها ما يندر أن يجتمع في مدينة واحدة من محاصيل الغلات والفاكهه والخضروانيات والأبازير والرياحين، ومن أنواع الدواب والماشية والطير والسمك ، ومن خامات الصناعة للملابس والأبنية ومرافق المعيشة ، فصح فيها ما يوجزه الكاتب العربي حين يحمل الوصف عن أمثالها فيقول إنها مدينة خيرات .

وتكلم عنها ملطرون صاحب الجغرافية العالمية التي ترجمها رفاعة الطهطاوى قبيل عصر الكواكب فقال بأسلوبه الذى نقله بحرفه : « ولنبحث الآن عن أشهر الأماكن مبتدئين بالقسم الذى يحوار الفرات وهو إربالة حلب فنقول : إن المدينة المسماة بهذا الاسم هي كما فى كتاب البوزنطيا « برّة » القديمة، وهى أعظم جميع المدن العثمانية فى آسيا ، سواء بتآدب أهلها أو بعظامها وكثرة أموالها وغناها ، وظن بعضهم أن أهلها لا يزيدون عن مائة وخمسين ألف نفس ، ومبانها من الحجر النحت كما أن طرقها السلطانية مبلطة به أيضاً ، ومنظرها عجيب لما فيها من أشجار السرو والمظلة الأوراق الملبابة بالكلية لمنارتها البيضاء ، فما أحسن اختلاط كل من الجنسين بصاحبه ! وبها فابریقات القطن والحرير على حالة زاهية ، وإليها تأقى القواقل العظيمة من بغداد والبصرة فتحمل إليها بضائع بلاد العجم والمند ، وبالجملة مدينة حلب الشهباء ما يسميه المتأخر (تدمر) ورياضها مزروعة بالعنب والزيتون كثيرة الحنطة . . . » .

وملطرون يفهم بالتقدير الذى سماه ظناً أن سكانها لا يزيدون على مائة وخمسين ألف نسمة ، ولكن الرحاليين والخبراء من الأوربيين أقاموا بها بين القرن السابع عشر والثامن عشر يبلغون بتعدادها نحو أربعين ألف نسمة ، ويقول دارفيو D'Arvieux الذى كان قد صل لفرنسا في المدينة بين سنة ١٦٧٢ وسنة ١٦٨٦ إن الطاعون أهلك من أهلها نحو مائة ألف ولم يشعر طراق الأسواق فيها بنقص سكانها . وكان بعض المؤرخين ها يغولون في تقدير سكانها على إحصاء الموقى في الكنائس المسيحية ، أو على مقادير الأطعمة اليومية التي تستند فيها ، لاضطرارهم إلى الظن مع قلة الإحصاءات الرسمية ، فراوحوا في حسابهم بين ثلاثة ألف وأربعين ألف في عام التقديرات إلى نهاية القرن

الثامن عشر ، ثم تبين من الإحصاءات الأخيرة أنهم لم يخطئوا التقدير .

* * *

(٣) ومدينة اجتماعية :

وهي مدينة يقوم عمرانها على « مجتمع ناضج » على خلاف المدن العاشرة التي يقوم عمرانها على كثرة السكان بغير اختلاف يذكر في كيانها الاجتماعي أو تركيب الطوائف التي تتألف منها المجتمعات السياسية .

فالسكان فيها كثيرون ، ولكنهم أصحاب مراافق وأعمال لا تستأثر بها صناعة واحدة ، ولا تنفرد الصناعة الواحدة بينهم بنمط واحد على وتبة واحدة ، سواء اشتغلوا بالتجارة التي يعمل فيها التاجر المحلي وتاجر القوافل وتاجر التصدير والتوريد ، أو اشتغلوا بالزراعة التي يعمل فيها زارع الحقل وزارع البستان وزارع الخضر والأعشاب ، أو اشتغلوا بالحرف اليدوية التي يعمل فيها النساجون والنجارون والخدادون والمحترفون بفنون البناء وتعمير البيوت .

وفيما عدا هذا التركيب الاقتصادي يتتنوع المجتمع في المدينة باتفاق المذاهب والأجناس من أقدم الأزمنة قبل الإسلام وبعد الإسلام ، وقلما يعرف مذهب من مذاهب الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو مذاهب الديانات الآسيوية لاتقام له بيعة في حلب أو مزار مشهود مقدس عند أتباعه ، وهي تتسع لأصحاب هذه المذاهب من العرب والترك والكرد والأرمن والأوربيين ، يتفاهمون أحياناً بلغة واحدة مشتركة أو يتفاهمون بجميع هذه اللغات كلما تيسر لأحد them فهم لغة أخرى غير لغته التي ولد عليها .

ولم تزل المدينة منذ القدم عرضة للمنازعات الدولية بين الفرس والإغريق ، أو بين العرب والروم ، أو بين المسلمين والصلبيين ، أو بين أصحاب العقائد في الديانة الواحدة واللسان الواحد . وهي حالة لا تتكرر طويلاً إلا تركت لها آثارين لا يحيض منها ولا مفر من التوفيق بينهما ، فمن آثارها أن تزيد شعور الإنسان بعقيدته وحرصه على شعائره ومعالم دينه . ومن آثارها في الوقت نفسه أن تروضه على حسن المعاملة بيته وبين أهل جواره من المخالفين له في شعوره

أو تفكيره ، وهي رياضة عالية تعتلل فتبعد على أحسنها في الساحة الدينية ورحابة الصدر ودماثة الخلق وكىاسة العشرة والمحاملة ، وقد يجتمع بها الغلو إلى مثال من الخلط بين العقائد والشعائر لا يعهد في بيته لم تتعرض لتلك التجارب التاريخية ، فقد روى دارفيو المتقدم ذكره أنه وجد في عين طاب « عينتاب » طائفة تسمى الد (كيزوكيز) ، أي النصف والنصف ، يصلون في المساجد ويحفظون القرآن ويعملون المصاحف الصغار في عنان أطفالهم ويوجبون تعليم هؤلاء الأطفال وتقريب القراءين في المعابد المسيحية والذهاب إلى كرسى الاعتراف وإقامة الصلوات في عيد الميلاد وعيد القيمة .

* * *

ومن نتائج الاختلاف في المجتمع أن تتأصل في العادات خصال التعاون الاجتماعي ، فتصبح المدينة العاشرة معمرة قادرة على التعمير ويكتسب أبناؤها قدرة على تجديد عمر انها بعد الكوارث التي تنتابها كما تنتاب أمثلها من المدن على أيدي الفاتحين أو بفعل الزلازل والأوبئة التي كانت تنتشر في الشرق والغرب فلا تسلم منها مدينة كثيرة الوراد والطراق يخرجون منها ويتربون إليها بغير رقابة صحية على القواعد العلمية . وقد تمسكت حلب من تجديد عمر انها واستثناف علاقتها ومعاملاتها مرات في مدى التاريخ المعروف منذ ثلاثة آلاف سنة ، واستطاعت ذلك أربع مرات منذ الفرون الوسطى إلى اليوم . ويشير ياقوت الحموي إلى خصلة التعمير والتأهيل في أهلها فيقول : « وأهلها عناده باصلاح أنفسهم وتشمير الأموال . فقل ما ترى من نشئها من لم يتقبل أخلاق آباءه في مثل ذلك . فلذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان » ..

* * *

(٤) ومدينة سياسية :

ومدينة الاجتماعية على هذه الصفة مدينة سياسية باختيارها وبما تنساق إليه من ضرورات تدبيرها وإصلاحها ، فلا يسع إنساناً يقيم فيها أن يغفل

عن السياسة التي تديرها ولا عن أحرارها التي تستقيم عليها شتونها المشتبكة أو يعتريها الخلل من جانبها ، وربما حالت السيطرة المستبدة دون إطلاق الألسنة والأقلام في أحاديث هذه السياسة ، ولكن المجالس التي تدور فيها الأحاديث بين أهلها لا تثبت أن تخلق لها منادح من القول المباح في باب النقد الاجتماعي ولو قصرته على نقد الأحوال العامة وآداب العرف الشائعة ولم تزد فيه على الحين إلى الأيام التي كانت تخليو من عيوب هذه الأيام ، أو على الثناء والذكرى لمن كانوا يسوون الأمور سياسة لا يدركها الملام .

قال رسول في تاريخه الطبيعي لمدينة حلب ، وهو يسمى المسلمين بالترك على عادة الأوروبيين في زمانه : « إنهم على احتيازهم في مسائل السياسة لا يقال عنهم إنهم سكوت صامتون . فأنهم يفيضون الحديث عن مسائل الديانة والآداب ومساوي البدخ والترف ، وشيوخ الرشوة في الدواوين ، وربما تحفظوا في الكلام على أخطاء الحكومة الحاضرة . ولكنهم ينحوون على الأخطاء الماضية بغير هوادة ، وسواء كان مجرى الحديث على هذه المسائل أو على أشباهها من المسائل الخلافية تراهم يختدون في مساجلاتهم ولا يطول الحوار بينهم دون أن يتطرق إليه الغضب حتى يفصل فيه صاحب الدار برأيه ، إن كان من ذوى الصدار ، فيميل الأكثرون إلى الرأى الذى أبداه .. »

ولذا قبل هذا عن أواخر القرن الثامن عشر فالحالة السياسية في غير هذه الحقبة المظلمة لا تحتاج إلى بيان .

* * *

(٥) ومدينة متصلة :

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن المدينة التي لها هذه العماره وهذه العلاقات الاجتماعية على ملتقى الطرق المعبرة في القارات الثلاث لن تقطع عن العالم في عهد من عهودها ، ولن ينقطع العالم عنها .

إلا أن العلامات المحسوسة أو وضع من الأحوال المفهومة في الدلالة على تمكّن هذه الصلة وشدة الحاجة إليها . فمن هذه العلامات أن نقل الأخبار بالمشاعل

والمصابيح كان معروفاً في حلب قبل ستة وثلاثين قرناً كما يرى من الواح «مارى» الأثرية التي كشفت بجوارها ، أما في العصور الأخيرة فلم تخلي حلب قط من الوسائل السريعة للانتقال أو نقل الأخبار ، وحيثما وجدت وسيلة أسرع من سواها في قطر من الأقطار النائية لم تثبت أن تصل إلى حلب بعد قليل وأن يفتن الحلبيون في استخدامها وتحسينها لزيادة السرعة فيها ، فاشتهرت بالبلال السريعة التي تعرفها في وادي النيل باسم الهجين ، واجتهد أصحاب القوافل بها في توليدها بين العربية والتركمانية لتوريثها أحسن الصفات من فصائلها الممتازة ، وانتظم فيها بريد الحمام الراجل وهو أسرع بريد عرفه الناس على المسافات البعيدة قبل استخدام البرق والبخار ، ولكنهم في الخطوط التي تمتد من حلب وإليها ينطلقون لعواقب الطريق فيغمون أقدام الحمام في الخل ليشعر بالمرتبوبة في الجو فلا يستدرجه الشعور بالعطش إلى الماء فينقطع عن السفر أو يسقط بين أيدي المترصددين له في الطريق .

* * *

(٦) ومدينة حساسة

وهذه العوامل المتداخلة جيئاً قد بقيت إلى العصر الذي نشأ فيه الكواكب وعاش فيه بين منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بل كانت كلها على حالة من النشاط والتحفز توصف «بالحساسية» المفرطة التي تضاعف انتباه المنتبهن إليها على غير المعتاد في سائر العصور .

كانت مدينة حلب قبل مولده بسنوات جزءاً من العالم العربي الذي كان يجمع الشام وفلسطين وطرباً من العراق والجزيرة العربية في نطاق واحد ، وظلت كذلك ببعض سنوات حتى أعيدت إلى الدولة العثمانية في سنة ١٨٤٠ بعد تدخل الدول الأوروبية في حروب إبراهيم باشا والسلطان عبد الحميد .

وكانت فتنة الأرمن ومحنة لبنان وغارات الحدود بين العرب والترك في العراق شغلاً شاغلاً لأبناء حلب على الخصوص ، لأنها المدينة التي يصيبها كل عطل ويرتد إليها كل أضطراب .

وكانت مسائل الامتيازات الأجنبية تثار كل يوم في أوربة وفي الشرق العثماني مع ما يتبعها من مسائل التشريع والإدارة التي تفرق بين الطوائف والأجناس في كل بقعة من بقاع الدولة التركية .

وكانت هذه الدولة تقدم خطوة وتنكس على أعقابها خطوتين في طريق الحكم النيابي والإدارة العصرية واستبدال النظم الحديثة بالتقاليد البالية التي جددت عليها منذ قرون .

وكانت قناة السويس تفتح ، ومراكز الشركات تحول من حلب شيئاً فشيئاً إلى القارة الأوربية أو إلى شواطئ الهند وإيران وموانئ البحرين الأحمر والأبيض على طول الطريق .

كان كل عامل من عوامل الحياة الاجتماعية في حلب يتحرك ويتتبه ويبلغ به الانتباه حد الحساسية ، بل حد الإفراط في الحساسية حين نشأ الكواكب في هذه الحقبة المتوفزة ، وكل إليه القدر أن يكون لها لسان حال ، فاستجاب لها في بيته من حيث يستجيب أمثاله من الرجال .

العصير

كيف نشأ الكواكب في هذا العصر؟

كيف لم ينشأ الكواكب في هذا العصر؟

سؤالان لا يتردد المؤرخ بينهما ، بعد ما تقدم ، أيهما أحق بالتوجيه وأيهما أدعى إلى الاستغراب . فان حوادث العصر وحوادث السيرة الكواكبية تشيران كلتاهم إلى الأخرى متقابلتين كما يتقابل العدلان المتلازمان .

ولد الكواكب حول منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفى بعد ختامه بستين ، فحياته على وجه التقريب هي النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ملتقاه بطلائع القرن العشرين . وهذه حقبة من حقب التاريخ الحديث يلوح عليها كأنها نشعلت من عقال . فكل شيء فيها ينفر من الجمود والركود ويتحفز للحركة والرثوب إلى التغيير .

كان هذا النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، في القارة الأوربية ، امتداداً لعصر الكشف العلمية والزعة الفكرية إلى الترد على القديم ، وكان حقبة عامرة بأسباب القلق والاندفاع إلى المجهول حيثها وجده الطريق ، تميخت عن أخطر مذاهب الفكر والأخلاق وأدعاها إلى الثورة والانقلاب ، ولا نطيل في شرح المذاهب الخاصة بتلك الحقبة أو التي تعد من ولادتها ونتائجها ، فاننا نطوي الكف على خمسة منها فلا نستكثر بعدها أن يحدث في بقية القرن التاسع عشر كل ما حدث فيها من عظام الأمور وعوامل الحركة والانقلاب .

فـ بـقـيـةـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ شـاعـ مـذـهـبـ دـارـوـينـ عـنـ التـطـورـ وـتـنـازـعـ الـبقاءـ ،ـ وـمـذـهـبـ كـارـلـ مـارـكـسـ عـنـ رـأـسـ الـمالـ ،ـ وـمـذـهـبـ نـيـتشـهـ عـنـ «ـ السـوـرـمـانـ »ـ أـوـ إـلـإـنـسـانـ الـأـعـلـىـ ،ـ وـمـذـهـبـ الـمـدـرـسـةـ الـطـبـيـعـيـةـ عـنـ حـرـيـةـ الـفـنـ وـالـأـدـبـ ،ـ وـمـذـهـبـ الـدـيمـقـرـاطـيـةـ عـنـ الـحـكـوـمـةـ الـشـعـبـيـةـ ،ـ وـكـلـ مـذـهـبـ مـنـهـ لـاـ يـسـتـقـرـ حـيـثـ ظـهـرـ عـلـىـ حـالـ مـنـ أـحـوـالـ الـجـمـودـ وـالـرـضـىـ عـنـ الـتـسـلـيمـ وـالـاسـتـسـلامـ .ـ

وـوـصـلـتـ فـتوـحـ الـعـلـمـ إـلـىـ السـوقـ وـالـطـرـيقـ ،ـ بـلـ وـصـلـتـ إـلـىـ الـجـهـاـءـ الـأـمـيـنـ أـهـوـلـ وـأـصـحـخـ مـنـ صـوـرـتـهاـ الـتـىـ وـصـلـتـ بـهـاـ إـلـىـ الـعـلـمـاءـ الدـارـسـينـ .ـ

وـسـمـعـواـ الجـرـامـوـفـونـ «ـ الـحـاـكـيـ »ـ فـقـالـوـاـ إـنـ إـلـإـنـسـانـ يـنـطقـ الـجـهـادـ .ـ

وـسـمـعـواـ عـنـ الـبـرـقـ بـأـسـلـاكـهـ وـغـيرـ أـسـلـاكـهـ فـجـدـلـهـ خـبـرـ الـمـرـدـةـ الـمـسـخـرـينـ فـنـقـلـ الـأـسـرـارـ بـيـنـ السـيـاهـ وـالـأـرـضـ ،ـ وـبـيـنـ الـمـشـرـقـيـنـ وـالـمـغـرـبـيـنـ .ـ

وـسـمـعـواـ صـوـتـ الـهـاتـفـ بـعـدـ أـنـ شـهـدـواـ الـصـورـةـ الـتـىـ يـرـسـمـهـاـ لـهـ شـعـاعـ الشـمـسـ فـكـادـواـ يـلـحـقـوـنـهـ بـالـحـوـارـقـ وـالـمـعـجزـاتـ .ـ

وـكـبـرـتـ فـيـ أـيـامـهـمـ مـخـرـعـاتـ الـأـمـسـ ،ـ فـأـصـبـحـتـ الـمـطـبـعـةـ وـالـبـاخـرـةـ وـالـبـنـدـقـيـةـ أـشـبـاحـاـ تـطاـولـ الـمـرـدـةـ بـعـدـ أـنـ كـانـتـ فـيـ الـحـقـبـةـ الـغـابـرـةـ أـلـاـ عـيـبـ أـطـفـالـ أـوـ أـطـفـالـ تـتـعـثـرـ بـيـنـ الـمـهـوـدـ وـالـحـجـورـ .ـ

كـذـلـكـ كـانـ النـصـيفـ الثـالـثـ منـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ فـيـ مـيـدانـ الـفـكـرـ وـالـصـنـاعـةـ .ـ

أـمـاـ مـيـدانـ الـعـلـمـ وـالـحـيـاةـ الـعـامـةـ فـجـمـلـ ماـ يـقـالـ فـيـهـ أـنـهـ يـتـلـخـصـ فـ كـلـمـتـيـنـ تـرـدـدـانـ بـلـسـانـ الـمـقـالـ أوـ لـسـانـ الـحـالـ فـ كـلـ أـمـةـ غـالـبـةـ أـوـ مـغـلـوـبـةـ ،ـ وـمـتـقـدـمـةـ أـوـ مـتـأـخـرـةـ ،ـ وـحـرـةـ نـاهـضـةـ أـوـ مـتـأـهـبـةـ لـلـحـرـيـةـ وـالـنـهـضـةـ ؛ـ وـهـاـ :ـ الـحـرـيـةـ وـحـقـ الـأـمـةـ .ـ

فـقـيـ الـبـلـادـ الـإنـجـيلـيـزـيـةـ كـانـ سـلـطـانـ الـمـلـوـكـ يـتـقـيـدـ وـيـتـبعـهـ سـلـطـانـ الـسـادـةـ الـنـبـلـاءـ إـلـىـ الـقـيـدـ ،ـ وـلـمـ تـهـدـأـ فـيـهاـ صـيـحةـ الـمـطـالـبـةـ بـالـمـشارـكـةـ فـيـ الـحـكـوـمـةـ بـيـنـ أـصـحـابـ الـأـمـوـالـ وـجـمـاعـاتـ الـعـالـمـ ،ـ فـكـانـ الـعـقـدـ الثـالـثـ بـعـدـ مـنـتـصـفـ الـقـرـنـ فـاتـحةـ الـعـهـدـ الـذـيـ بـرـزـ فـيـ الـأـحـرـارـ وـتـمـهـدـتـ فـيـ السـبـيلـ لـطـوـائـفـ الـعـالـمـ .ـ

وـفـيـ الـبـلـادـ الـفـرـنـسـيـةـ قـضـتـ حـرـبـ السـبـعينـ عـلـىـ الـإـمـپـرـاطـورـيـةـ وـتـحـولـتـ بـالـحـكـمـ

إلى النظام الجمهوري على أساس المبادئ التي أعلنتها الثورة وتجاوبيتها بها أصداء
العالم ، وهي مبادئ الحرية والإخاء والمساواة .

وفي البلاد الألمانية ظفرت القومية المشتقة بالوحدة التي كانت تنشدتها
وأجتمعت الولايات التي كانت موطن المغرين من الشمال والجنوب ،
ومن الشرق والغرب ، فأصبحت قوة القارة التي يخشاها المغرون !
وفي البلاد الإيطالية تجمعت تلك المتفرقات من قضايا العصر كلها ، ومنها
قضية الاستقلال ، وقضية الوحدة ، وقضية السلطة الدينية ، وقضية الحكومة
الشعبية ، فكانت – وهي تضطرب بجميع هذه القضايا – كأنها الحلقة الوسطى
بين الغرب والشرق ، وبين القارة الغالبة والقارات التي تشكو الغلبة عليها ،
فثارت إيطاليا قبل منتصف القرن تسترد الحرية من الدول الثلاث التي تنازعتها
وهي الممـا وفرنسا وأسبانيا .

وعند منتصف القرن ثارت على أمرائها الذين تنازعوها وفرقوا أرضها
وأبناؤها وجمعـت شملـها في ظل رايتها الموحدة على رضاها . وفصلـت الوطنية
الإيطالية في قضـية السلطة الدينـية كما فصلـت في قضـية الملك والـدولـة ، ثم فصلـت
في قضـية الحكم فأقامـتها على قوـاعد الـنيـابة الشـعـبية ، ولم ينـقضـ القرن حتى دخلـت
في سـيـاقـ الاستـعمـار طـامـعةـ في أـسـلـابـ غـيرـهاـ بعدـ أنـ كانـتـ مـطـمعـاـ لـقـادـرـينـ عـلـيـهاـ
منـ الغـربـاءـ عـنـهاـ وـمـنـ أـبـنـائـهاـ .

وقد توحدـتـ إـيطـالـياـ بـعـدـ مـجهـودـاتـ كـثـيرـةـ تـفـرـقـتـ مـسـاعـيـهاـ وـاقـفـتـ قـبـلـهاـ
فـكـانـ الـوطـنـيـونـ الـجـاهـدـونـ يـعـمـلـونـ جـمـيعـاـ عـلـىـ تـوـجـيدـهـاـ وـالـتـهـوـضـ بـهـاـ
إـلـىـ مـصـافـ الـدـولـ الـعـظـيمـ وـيـأـنـفـونـ أـنـ تـكـوـنـ بـيـنـ جـارـاتـهاـ أـقـلـ مـنـهـنـ شـأـنـاـ وـأـصـغرـ
مـنـهـنـ قـدـرـاـ فـيـ مـجـالـ الـعـلـاقـاتـ الدـولـيـةـ ، وـهـيـ أـعـرـقـ مـنـهـنـ مـاضـيـاـ وـأـقـدـمـ ثـقـافـةـ وـمـوـطنـ
الـلـغـاتـ الـذـيـ نـبـتـ مـنـهـ لـغـاتـ الـلـاتـيـنـ وـاقـبـسـتـ مـنـهـ سـائـرـ الـلـغـاتـ فـأـمـ الـخـضـارـةـ ...
إـلـاـ أـنـهـمـ مـعـ هـذـاـ الـاـنـفـاقـ فـيـ النـاـيـةـ تـفـرـقـواـ فـيـ الـوـسـائـلـ وـالـمـعـايـرـ السـيـاسـيـةـ ،
فـأـرـادـهـاـ فـرـيقـ مـنـهـمـ «ـ جـهـوـرـيـةـ حـرـةـ »ـ تـنـالـ حـرـيـتهاـ وـتـنـشـرـ مـبـادـيـءـ الـحـرـيـةـ لـغـيرـهـاـ ،
وـعـلـىـ رـأـسـ هـؤـلـاءـ الـجـاهـدـونـ حـكـيمـ إـيطـالـياـ وـرـاثـهـاـ الـأـوـلـ يـوسـفـ مـاتـسيـنيـ ،
مـؤـسـسـ «ـ إـيطـالـياـ الـفـتـاةـ »ـ ثـمـ مـؤـسـسـ «ـ أـورـيـةـ الـفـتـاةـ »ـ إـيمـانـاـ مـنـهـ بـأـنـ الـحـرـيـةـ فـيـ الـقـارـةـ
الـأـورـيـةـ شـرـطـ لـاغـيـ عنـهـ لـدـوـامـ الـحـرـيـةـ فـيـ بـلـادـهـ .

وفريق آخرون يريدون بقاء الملكية على عرش واحد ، أو يسمحون ببقاءها إلى حين ريثما تهيأ الفرصة لإقامة الجمهورية ، وعلى رأس هؤلاء كافور الزعيم الوزير الذي كان يخالف الفريق الأول في سياسة الأحلاف الدولية ويتبادر بارسال الجيوش إلى القرم لمحاربة روسيا ومعاونة تركيا وإنجلترا وفرنسا أملا في تأييد الدولتين الأخيرتين له في مساعيه الدولية وبأساً من تأييد روسيا القيصرية لقضية من قضايا الاستقلال والثورة على النظم الدولية العتيدة .

ويتوسط بين الفريقين فريق غاريالدى الذى كان يستعين بالكتائب المتطوعة كما كان يستعين بالجماعات السرية من قبيل جماعة الفحامين « الكربونارى » ولا يرفض التعاون مع « إيطاليا الفتاة » كلما اتفقت الحملة على خصم واحد من خصومه وخصومها . ولكنها يتوجس من المحالفات الدولية ولا يؤمن بمجدواماها ويكاد يقطع بتحريرها خوفاً من مغامر « المقاومة » التي تجور على حقوق الدولة الناشئة كما تجور على أقاليمها ومواردها . ولا تعرف وسيلة من وسائل الأمم في جهادها لم يتول بها فريق من هؤلاء المجاهدين ولم يتصل خبرها بطلاب الحرية في البلاد الشرقية ، لانتشار الإيطاليين على شواطئ البحرين الآبيض والأحمر ، وإقامتهم على طريق التجارة القديمة بين الهند والبنديقية وجنوه ، واشتراكهم من قبل الساسة والزعماء معاً في حروب الدولة العثمانية .

ولابد من الانتباه الدقيق إلى دخائل السياسة المزدوجة التي أملأها على الدولة الإيطالية وضعها الجديـد بعد الاتفاق على توحـيدـها . فـهـىـ من جهةـ دولةـ أورـبيةـ طـامـحةـ إـلـىـ مـساـواـةـ الدـوـلـ التـىـ سـبـقـتـهاـ فـىـ حـلـبـةـ الفـتحـ وـالـسـيـادـةـ ، وـهـىـ منـ الجـهـةـ الـأـخـرىـ أـمـةـ تـشـبـهـ الـأـمـمـ الشـرـقـيـةـ فـىـ جـهـادـهـاـ لـدـوـلـ الـقـارـةـ وـتـنـفـقـ مـعـ بـعـضـهـاـ فـىـ مـقـاـوـمـةـ التـفـوذـ العـمـانـيـ وـتـشـجـعـ الثـورـةـ عـلـيـهـ . وـمـنـ آـثـارـ هـذـهـ السـيـاسـةـ أـنـ يـبـتـهـ المـالـكـ كـانـ عـلـىـ مـوـدةـ «ـ شـخـصـيـةـ »ـ وـدـولـيـةـ تـرـيـطـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ بـيـوتـ الـحـكـمـ وـالـرـئـاسـةـ فـىـ أـكـثـرـ الـأـقـطـارـ التـىـ خـضـبـتـ لـلـسـيـادـةـ العـمـانـيـةـ ، فـلـمـاـ عـزـلـ اـلـخـدـيـوـ إـسـمـاعـيلـ جـعـلـ مـقـرـهـ الـأـوـلـ فـىـ الـبـلـادـ إـيطـالـيـةـ ، وـلـمـاـ هـاجـرـ الـأـمـرـاءـ إـيطـالـيـونـ مـنـ بـلـادـهـمـ فـىـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الـأـوـلـيـةـ وـبـعـدـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الثـانـيـةـ كـانـ اـخـتـيـارـهـمـ لـصـرـ مـقـدـمـاـ عـلـىـ اـخـتـيـارـهـمـ لـلـرـحـلـةـ إـلـىـ قـطـرـ الـأـوـرـبـيـةـ ، وـكـانـ مـلـكـ إـيطـالـيـاـ

يتوسط أحياناً في الأزمات المستحكة بين أمم المغرب ودولتي فرنسا وأسبانيا؛ كأنه يرى أن هذه الأمم تطمئن إليه وتتقبل منه ما لم تتقبله من الحكومات الأوروبية، وقد تطوع الإيطاليون بعد احتلالهم «أرتريا» لبذل المعونة ونقل السلاح إلى سواحل جزيرة العرب لمقاومة المنافسين لنفوذها من الأوروبيين وغير الأوروبيين، وكانت لهم جالية قوية في المدن السورية تعرب عن تأييدها للأحرار والثوارين توددا لهم أو نشراً للدعوة التي نقلتها من بلادها في إبان نهضة التوحيد والحرية.

* * *

هذه نبذة عاجلة عن حركات الغرب في النصف الأخير من القرن التاسع عشر أوجزنا فيها القول عن أمم أربع من أتمها التي سرت أخبارها وأخبار قضيابها إلى الشرق العربي وببلاد الدولة العثمانية، وهي على تفاوتها في كل ظاهرة من ظواهر السياسة والثقافة تشتراك في خصيلة لا تغيب عن واحدة منها في خبر من أخبارها وهي المطالبة بالحقوق والحربيات.

فإذا كانت قارة الاستعمار قد حضرت خطتها حيال الشرق في سياسة واحدة تريدها وتتعهد لها لتفوره وتغلب عليه، فهناك سياسة أخرى لم تردها ولم تتعهد لها تلقاها الشرق منها فهب مقاومتها وتيقظ لطامعها ونزل معها في ميدانها الذي استفزته له باختيارها وبغير اختيارها.

* * *

وقد جاء رد الفعل المتظر بعد برهة من السبات والذهول من أثر الصدمة التي كانت تنتقل وتشتت كلما تنقلت بين أقطار الشرقيين البعيد والقريب من اليابان في أقصى الشرق الآسيوي إلى مراكش في أقصى الشرق الإفريقي، وقد أصبحت هذه «شرقاً» في حساب الاستعمار وإن كانت تناوح في الموقع الجغرافي جارتها أوربة الغربية.

ونحصر الكلام هنا على الشرق العربي كما كان في أواسط القرن التاسع عشر إلى ما بعد مولده بقليل؛ في تلك الفترة كانت مصر قد ظفرت بمكاسب كبيرة

من الحكومة الذاتية ، وكانت لبنان قد خرجت بعد الفتن والأزمات بتصنيفها المقرر من الامتيازات الداخلية ، وكادت جزيرة العرب تتعزل بالدعوة الوهابية وتوشك أن تختفي منها إلى قلب العراق ، وكانت العراق في صراعها مع حكم الملايلك تتقدم في خطى سرعة إلى الخلاص من ذلك الحكم المضطرب بين الكساد والوباء ، وعلمت الدولة العثمانية أنها تحتاج لاستباقاته وإعادة الأمان فيه إلى نظام من الحكومة الدستورية غير نظام الولايات المهملة أو الولايات المسخرة لسادتها على غير إرادتها ، فأرسلت إليها أكبر وزرائها في عصره «أحمد مدحت باشا» الملقب بأبي الدستور ، فأقام فيها نظام الحكم على أساس الحرية والمصلحة العامة على خير ما يستطيع في تلك الأوانة ، وافتتح فيها عهد الحياة العصرية التي وصلت بينها وبين أمم الحضارة .

وكانت ولاية حلب — مع سائر الولايات السورية — قد اتصلت بمصر زهاء سبع سنوات ، ثم ثارت على حكم إبراهيم بن محمد على سنة ١٨٤٠ فأعيده إلى الدولة العثمانية على وعد بالإصلاح وتنظيم الإدارة على أساس جديد ، وكان الشروع في الإصلاح وتنظيم الإدارة حقيقة واقعة منذ قيام السلطان محمود الثاني (بين سنتي ١٨٠٨ و ١٨٣٩) لاضطرار الدولة أولاً إلى إصلاح جيشها واضطراها بعد ذلك إلى تسوية المشكلات القائمة بين رعاياها المختلفين في الجنس والدين واللغة ، فان المهام المتولدة أقنعت أولياء الأمر في القسطنطينية بالحاجة الملحة إلى تنظيم جيش جديد تستخدمن فيه الأسلحة الحديثة وأساليب التعبئة المتبعة في الدول الأوروبية ، ثم تبين لهم أن تعديل أنظمة القضاء والتشريع وإدارة الدواوين ضرورة لا يحيص عنها لسياسة رعاياهم ومدافعه الدول الأوروبية التي كانت تتخلل بفساد الحكم في الدولة التركية للتدخل في شئونها بدعوى الإنسانية تارة ودعوى الامتيازات الأجنبية تارة أخرى ، فتحدث الناس بوعود الإصلاح وأعماله ومشروعاته وحقوق الرعية وواجبات الرعاية قبل مولد الكواكب كأنهم يتحدثون بلدين يلويه المدين بين السداد والمطال .

ولعلنا ندرك حقيقة الحال ونعلم أن وعد الإصلاح كانت ضرورة لازبة ولم تكن إنعاماً ولا إحساناً من أولياء الأمور إذا نظرنا إلى بقاع العالم العربي

فلم نجد فيه بقعة واحدة رضيت بما هي فيه ولم يهض أهلها للمطالبة بنوع من الإصلاح على نحو من الأنحاء ، فتحرك السودان وتحركت الصحراء وتحركت قبائل المغرب في ثورتها؛ بل في ثوراتها التي تكررت ولا تزال تتكلّر إلى اليوم . وصدق على العالم العربي بين أطرافه المترامية قول القائلين في الغرب إنه مارد خرج من القمّم ولن يعود إليه .

وكان في الحق مارداً هائلاً يتسلل في الأسر ليخرج من قبمه المظلم المحسور ، ولكنه لم يكن مارداً معصوب العينين كما صوره أولئك الراصدون للقمم أو كما أرادوا أن يتصوروه ، إذ كان للمارد زمامه في أيدي المدّاه من القادة الملهمين ومن رواد الثقافة الأولين ، وكان هذه المدّاهية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق الحالى منذ الأزل : طابع العقيدة والإيمان .

* * *

فـالقارـةـ الـأـورـيـةـ حـكـمـ التـارـيـخـ حـكـمـ يـعـدـ الزـاعـ القـائـمـ بـيـنـ السـاطـةـ الـدـينـيـةـ وـالـسـلـطـةـ السـيـاسـيـةـ ، فـوـهـمـ الـعـلـمـاءـ فـيـ مـطـلـعـ التـقـاـفـةـ الـحـدـيثـةـ أـنـ هـذـهـ التـقـاـفـةـ سـرـبـ يـنـ الـعـلـمـ وـالـدـينـ . فـلـمـ اـنـتـقلـتـ تـقـاـفـةـ الـغـرـبـ إـلـىـ الشـرـقـ تـلـقاـهـاـ الـمـسـيـحـيـ فـيـ الـمـدـارـسـ مـنـ رـجـالـ دـيـنـهـ ، وـتـلـقاـهـاـ الـمـسـلـمـ مـسـتـجـيـباـ لـنـدـاءـ «ـالـعـودـةـ إـلـىـ الدـينـ»ـ عـلـىـ كـلـ لـسانـ يـُـسـمـعـ مـنـهـ الـوعـظـ وـيـقـبـلـ مـنـهـ الـإـرـشـادـ ، فـقـدـ وـقـرـ فـيـ الـأـخـلـادـ أـنـ الـمـسـلـمـيـنـ هـجـرـواـ دـيـنـهـمـ فـحـاقـ بـهـمـ بـلـاءـ الذـلـ وـالـضـيـاعـ . وـاـنـفـقـ الـجـامـدـوـنـ مـنـهـمـ عـلـىـ الـقـدـيمـ وـالـمـتـطـلـعـوـنـ إـلـىـ الـجـدـيدـ عـلـىـ هـذـاـ النـدـاءـ ، فـلـاـ خـلـافـ بـهـمـ إـلـاـ عـلـىـ الـرـجـوعـ إـلـىـ الدـينـ كـيـفـ يـكـونـ .

وـرـبـماـ قـالـ الـجـامـدـوـنـ قـبـلـ الـمـجـدـيـنـ إـنـ الـأـورـيـيـنـ عـمـلـوـاـ بـأـدـبـ الـإـسـلـامـ فـأـعـدـوـاـ الـعـدـةـ وـنـظـرـوـاـ إـلـىـ حـكـمـ اللـهـ فـيـ خـلـقـهـ فـتـقـدـمـوـاـ وـتـأـخـرـ الـمـسـلـمـوـنـ .

وـتـبـاعـدـتـ الشـقـةـ بـيـنـ الـحـافـظـيـنـ أـنـصـارـ النـصـ وـالـحـرـفـ وـبـيـنـ الـمـجـدـيـنـ أـنـصـارـ الـمـعـنىـ وـالـقـيـاسـ فـاـخـتـلـفـوـاـ عـلـىـ الـكـثـيرـ ، وـلـكـنـهـمـ مـعـ اـخـتـلـافـهـمـ هـذـاـلـمـ يـتـفـقـوـاـ عـلـىـ شـيـءـ كـمـ اـتـفـقـوـاـ عـلـىـ حـرـبـ الـخـرـافـةـ وـعـقـائـدـ الـجـهـلـ وـالـشـعـوذـةـ الـدـخـيـلـةـ عـلـىـ الدـينـ ، فـحـارـبـهـاـ الـحـافـظـيـنـ الـحـرـفـيـوـنـ لـأـنـهـاـ بـدـعـ مـسـتـعـارـةـ مـنـ بـقـاـيـاـ الـوـثـقـيـةـ ، وـحـارـبـهـاـ

المجددون لأنها سخافات وأباطيل ينقصها العلم الحديث . وتراجعت هذه السخافات والأباطيل إلى غيابة الجهل لا تجترئ على التقدم إلى صفو القيادة المسموعة بين أنصار القديم ولا بين أنصار الجديد .

كانت هذه الظاهرة النادرة إحدى حسنات التوفيق في صدر الدعوة إلى الإصلاح ، وتلك ولا ريب إحدى العوامل القوية التي جعلت دعوة الإصلاح مهمة روحية ثقافية ، وجعلت رجلا كالسيد جمال الدين الأفغاني داعياً مسماواً حيثما حل في قطر من أقطار الشرق بين المسلمين العرب والفرس والمغنوذ ، وبين العرب المسلمين وغير المسلمين ، وناهيك بامام من الأفغان تصدر له صحيفة « مصر » ويحررها تلميذه « أديب إسحاق » وهو المسيحي الكاثوليكي من الأرمن العثمانيين .

تلك سمة العصر الذي قدمتنا الكلام عنه بهدين السؤالين :

كيف نشأ الكواكب في هذا العصر؟ كيف لم ينشأ الكواكب في هذا العصر؟
وقلنا إنهم سوالان لا يتردد المؤرخ بينهما أحى بالتجييه وأحى أدلى إلى الاستغراب .

إن الكواكب في أسرته ومنيته وزمنه — لوفاق الشرط الذي تتطلبه رسالته المتنتظر في هذا الشرق بين البلاد العربية — رجل مرشح للرئاسة الروحية ، مضطهد في سربه وذماره ، ينشأ في بلد عربي عريق يرتبط بعلاقات الشرق والغرب وتلتقي لديه تيارات الحوادث العالمية ، ويفتح عينيه على العالم وهو يصبح أو يمسى على قضية حق أو ثورة حرية . من وصفه فقد ساء ، وكاد يصمد إليه ولا يتمخطاه إلى سواه .

أشْرَةِ الْكَوَاكِبِ

ينتسب الكواكبى من أبويه إلى على بن أبي طالب رضى الله عنه . وقد روى صاحب « إعلام النبلاء بتأريخ حلب الشهباء » نسب الأسرة نقلًا عن كتاب « النهاية والواقع من غرر الحسان والمدائح » الذى ألفه السيد حسن بن أحمد بن أبي السعود الكواكبى فجاء فيه أن السيد أحمد هو :

« ابن أبي السعود بن أحمد بن محمد بن حسن بن أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد بن أبي يحيى المعروف بالكواكبى قدس سره ، ابن شيخ المشايخ والعارفين صدر الدين موسى الأردبىلى قدس سره ، ابن الشيخ الربانى المسلط الصمدانى صفى الدين إسحاق الأردبىلى ابن الشيخ الزاهد أمين الدين ابن الشيخ السالك جبريل بن الشيخ المقتدى صالح ابن الشيخ قطب الدين أبي بكر ابن الشيخ صلاح الدين رشيد ابن الشيخ المرشد الزاهد محمد الحافظ ابن الشيخ الصالح الناسك عوض الخواص ابن سلطان المشايخ فiroz shah bخارى ابن مهدى ابن بدر الدين حسن بن أبي القاسم محمد بن ثابت بن حسين بن أحمد ابن الأمير داود بن على ابن الإمام موسى الثانى ابن الإمام إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام على زين العابدين ابن الإمام الحسين السبط الشهيد ابن الإمام على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهم أجمعين ».

قال صاحب « إعلام النبلاء » بعد اسم صدر الدين موسى الأردبىلى : « الذى رأيته فى عمود نسبهم المحفوظ فى بيت المؤقت بعد محمد أبو يحيى بن صدر الدين إبراهيم الأردبىلى المتقل إلى حلب ابن سلطان خوجه علاء الدين على ابن صدر الدين موسى الصفوى — فيكون قد سقط هناك شخصان — ابن السلطان

صني الدين أمين الدين جبريل ، وهناك قد جعلهما شخصين . وبأقى النسب كما هنا ، والله أعلم » .

وروى في هذا المصدر نسبة لوالدته المتصل ببني زهرة فجاء فيه أن « والدة المرحوم أبي السعود الشريفة عفيفة بنت بهاء الدين بن إبراهيم بن بهاء الدين ابن إبراهيم بن محمد بن محمد بن شمس الدين الحسن بن على بن أبي الحسن بن الحسين شمس الدين بن زهرة أبي الحasan بن الحسن بن زهرة أبي الحasan ابن على أبي المواهب بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن الحسين بن إسحاق المؤمن بن الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الإمام السبط الشهيد الحسين » . . .

ويرى في عمود النسب لأبيه اسم صني الدين الأردبيلي ، ومن ذريته إسماعيل الصفوي الذي جلس على عرش فارس وأسس فيها الأسرة الصفوية ، ومنها « علي سياه بوش » الذي رحل إلى بلاد الروم وتزوج سيدة من حلب ثم قفل إلى بلاده ، وخلف بها أجداد الأسرة الكواكبية .

ومن أعرق علماء حلب من أسرة الكواكبـ الشـيخ « محمد بن حـسن بنـ أـحمدـ الكـواـكـبـيـ » الـذـي تـولـى منـصـبـ الإـفـاقـاءـ فـيـهاـ ، وـكـانـ مـولـدـهـ بـهاـ سـنـةـ ثـمـانـيـ عشرـةـ وـأـلـفـ هـجـرـيـ (١٦٠٩ـ مـ) وـتـوـقـىـ بـهـاـ سـنـةـ ستـ وـتـسـعـينـ وـأـلـفـ هـجـرـيـ (١٦٨٥ـ مـ) وـلـهـ مـؤـلـفـاتـ فـيـ عـلـمـ النـفـقـةـ وـالـأـصـولـ وـالـكـلـامـ وـالـمـنـطـقـ ، مـنـهـ : شـرـحـ الـفـوـائـدـ السـنـيـةـ ، وـنـظـمـ الـوـقـاـيـةـ ، وـنـظـمـ الـمـنـارـ ، وـإـرـشـادـ الـطـالـبـ ، وـشـرـحـ كـتـابـ الـمـوـاقـفـ ، وـحـاشـيـةـ عـلـىـ تـفـسـيرـ الـبـيـضـاـوـيـ ، وـرـسـالـةـ فـيـ الـمـنـطـقـ ، وـتـعـلـيقـاتـ عـلـىـ تـفـسـيرـ سـوـرـةـ الـأـنـعـامـ .

وأول من اشتهر من الأسرة باسم الكواكبـيـ – فيما يقال – محمدـ أـبـوـ يـحيـيـ بنـ صـلـدـرـ الدـيـنـ . قالـ صـاحـبـ كـتـابـ « نـهـرـ الـذـهـبـ » فـيـ كـلـامـهـ عـنـ جـامـعـ أـبـيـ يـحيـيـ الـكـواـكـبـيـ :

« يـظـهـرـ أـنـ جـامـعـ قـدـيمـ وـأـنـ اـشـتـهـرـ بـاسـمـ الـحـالـيـ نـسـبـةـ إـلـىـ مـحـمـدـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ يـحيـيـ الـكـواـكـبـيـ ؛ لـأـنـهـ وـسـعـهـ وـأـقـامـ فـيـهـ أـذـكـارـهـ ، فـلـمـ مـاتـ دـفـنـ فـيـهـ ، وـبـنـيـ عـلـيـهـ « سـيـبـاـيـ » بـنـ عـبـدـ اللهـ الـجـرـكـسـيـ » قـبـةـ مـنـ مـالـهـ . وـهـوـ جـامـعـ فـسـيـحـ لـهـ قـبـلـةـ مـتـوـسـطـةـ تـقـامـ فـيـهـ

الصلوات والجمعة ، وله منارة فوق بابه ، وفي غربته قبة أبي يحيى المذكور ،
مكتوب في الجدار الكائن فوق رأس الضريح :

بحضرة هذا القطب حاوی المناقب
وولي تولاه الإله باللطه
وما مات حتى صار قطبا مقربا
كما يهتدی الحادی بنور الكواكب

وليس عجیبا أن تیسر أمرنا
وولي تولاه الإله باللطه
وما مات حتى صار قطبا مقربا
هدینا إلى هذا المقام بطیبه

وفي صحن المسجد في جهته الغربية عدّة قبور لبني الكواكب ، وفي شرقية
حوض يجرى إليه الماء من قناة حلب ، ولهذا المسجد وقف قديم هو الآن ثلاثة
جوانيت في سويقة على ، وله مخصوصات من وقفي حسن أفندي ابن أحمد أفندي
الكواكب ووالده المذكور ، ويوجد على يسرا الداخل للجامع حجرة لتعليم
الأطفال وفي جانبها صهريج سبيل يجري إليه الماء من قناة حلب عمرته هبة الله
بنت حسن أفندي المذكور ، وهي أم حسن بك ابن مصطفى بك . وفي جانب
المسجد من شرقية مدرسة تعرف بمدرسة الكواكب يصعد إليها بدرجات وهي
عامة تبره مشتملة على قبلة وحجرتين .. (١)

ويقال إن السيد أبي يحيى عرف باسم الكواكب لأنّه كان يعمل في الخدادة
ويتقن صنع المسامير التي تسمى الكواكب لاستدارتها ولمعانها ، فتنسب إليها .
ثم سلك مسلك المتتصوفة فنبه فيها شأنه وتواجد عليه التلاميذ والمربيون ومنهم
أبناء ورؤساء ، كانوا يقدون إليه وهو في نسكه أو في ذكره ، فلا يمسرون
على التحدث إليه حتى يأذن لهم ، لميته وورعه ، وسميت طريقة آل الكواكب
بالطريقة الأردبيلية نسبة إلى أردبيل من آذربيجان ، وهي البلدة التي ينتهي
إليها صدر الدين وصنف الدين المتقدمان .

ومن أعلام الأسرة الذين ترجم لهم في كتاب « إعلام النبلاء » الشيخ « حسن
أفندي ابن أحمد أفندي الكواكب المتوفى سنة ١٢٢٩ هجرية » ترجمه العلامة

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب لمؤلفه الشهير بالنزي .

عبد الرزاق البيطار الدمشقي في تاريخه « حلية البشر » فقال في وصفه : « هو كعبa الأدباء ونخبة العلماء من اشتهر بالفضائل وشهد له السادة الأفاضل .. تولى منصب الإفتاء في مدينة حلب ، وكان حسن الأخلاق كريم الطباع ، وكان العلامة المرادي مفتى دمشق - لما كان في حلب - يتردد عليه كثيراً وامتدحه بعده قصائده .. ، وترجمه الشيخ عبد الله العطائى في رسالته - المهمة القدسية - المدرجة بيتمانها في ترجمته .. ومن آثاره كتاب سباء - النفاع واللواحم في غرر المحسن والمداائح - جمع فيه نظم والده وما مدح به من شعراء عصره وما مدح به أسلافه ، وعقد لكل واحد من هؤلاء الشعراء ترجمة .. »

ومن هؤلاء الأعلام الشيخ أحمد الكواكبي الذي ولد سنة خمس وأربعين ومائتين وألف وتوفي سنة ثلاثة وألف ، وجاء في ترجمته أنه « تلقى العلوم النقلية والعقلية على أشياخ عصره في الشبياء ... وأنحد طريقة الشاذلية عن الشيخ بكري اللبناني وكان شديد الصحبة للشيخ أبي بكر الهملاي يعني معظم أوقات فراغه معه في الزاوية الحلالية ، وأقرأ في المدرسة الكواكبية والمدرسة الشرقية وفي الجامع الأموي منه وجهت إليه وجهة التدريس فيه سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، واشتهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك ، واشتغل بأمانة الفتوى ، وعين عضواً في مجلس إدارة الولاية . وكان ربيعة أحمر اللون نحيف الجسم أسود العينين ، وخطه الشيب في أواخر عمره ، وكان رقيق الحاشية ظريف المعاشرة لا يمل منه جليسه حسن الخلق جداً . وربما أوقفه ذو سؤال زماناً غير يسير وهو يستمع له ولا ينصرف حتى يكون السائل هو المنصرف ، وكان وقوراً مهيباً قنوعاً متصلباً في دينه وقاماً عند الحق ، وكان يعرف اللغة التركية إذ كان يندر من يعرفها بحلب خصوصاً من العلماء ، وحدث مرة أن انخلت نيابة القضاء في حلب وتأخر قدوم النائب فأراد الوالي إذ ذاك ألا تراكم الأشغال في المحكمة الشرعية . فكلف رئيس الكتاب أن يتولى القضاء وكالة فقال له: لا يجوز توكيلاً الوالي ولا ينفذ قضايا من يوكله ، فقال له: أنا وكيلاً الخليفة فلي أن أوكل . فأبى عليه القبول ، فتكلدر منه وأخرججه من عنده ، ثم إنه أراد تنفيذ مقصده فكلف المترجم إلى الوكالة ، فأجابه إلى ذلك فسر جداً وكتب له في الحال منشوراً بتوكييله إياه في القضاء ، فذهب إلى المحكمة الشرعية ، وصار الناس يتطلعون إلى صنيعه : كيف يوفق بين أمر الوالي والحكم الشرعي . فكان يسمع للخصمين

ويضيّط مقامها ، ثم يشير إليها بالصلح ويريها أحسن وجه للاتفاق ولا يزال يعظهما بالموعدة الحسنة حتى يتصالحا ، فيكتب بينهما صكاً . وقد حصل المطلوب من القضاء . وإذا أُبِي عليه خصمان عن المصالحة قال لها : أتحكمانى بينكما ؟ فيحكمانه . فيكتب صكًا بتحكيمهما ثم يحكم بينهما ، ويؤخر تسلیم صك الحكم إلى حضور النائب . ثم لما حضر النائب أمضى كل ماتم من قبل المترجم وختم صكوكه . وقد اكتسب شهرة عظيمة بهذا الصنف ، فكان من بعد ذلك وقفاً على الإصلاح بين الناس ، وربما حضر مجلساً للإصلاح بين خصمين ، فوجد الذي دعا غير الحق . فكان لا يألو جهداً في تصحيفه وإرجاعه إلى طريق الحق ، وإنما كان موفقاً في ذلك لأنّه إنما كان يقصد وجه الله تعالى ، وكان متولياً على جامع جده أبي يحيى وخطيباً وإماماً فيه (١) .

والشيخ أحمد الكواكبى هذا هو والد المترجم ومعلمه ومربيه ومورثه بحثه صفاتة وسجاياه ، كما يرى من تفصيل سيرته في مواضعها .

وقد نشأ المترجم في هذا الجيل من أجيال الأسرة وهي على عهدها بمنازل الشرف والعلم : أبوه أهل للقضاء في الخصومات بفضله وسمته ، وأهل للتدریس في أكبر المعاهد بعلمه وصلاحه . وأنجوه الأصغر « مسعود أفندي » يشتراك في معاهد العلم عضواً بالجمع العلمي في دمشق ، ويشتراك في معاهد الحكم عضواً بمحكمة التمييز ، وفي مجالس السياسة عضواً بمجلس المبعوثين ، ويقول عنه رئيس المجتمع العلمي الأستاذ محمد كرد على في الجزء الثاني من مذكراته بعد كلامه عن أخيه عبد الرحمن صاحب الترجمة : « وكان هذا يقول لي : إن شقيقه مسعوداً أعلم منه ، وقد كتب لي الخط الأول في أن زاملته سنتين في المجتمع العلمي العربي ، وأيته فيها ورصفاني مثال العلماء العاملين الذين ذكرت كتب الرجال ترجمتهم العظيمة ، وكانوا من اعتز بهم العلم وارتقا الفكر الإسلامي ، حللت روح هذين الحبيبين الشقيقين والجبرين الكاملين فما سقطت فيما على عيب من عيوب الأدميين جل الصانع ، وسجلت أنها تقدماً جيلهما في كل معانٍ الفضل والنبل ، وما أسفنا إلى أن يعيشَا كأكثراً أبناء الفقهاء عيش التوكّل والخنوع يأكلون

(١) أعلام البلاد ب بتاريخ حلب الشهباء ، تأليف محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي .

ويشربون ويتناسلون ويجمعون من حطام الدنيا ما وصل إلى أيديهم . فالدم الظاهر ينم عن صاحبه كيما تقلبت به الأحوال ، ولا يحتاج إلى من يدل عليه ..

ولسنا نحتاج إلى أكثر مما تقدم فيها رواه الرواة والمعاصرون عن أسرة الكواكب للتعریف بأوائل نسبه ومنتابت أخلاقه وشمائله . ففي صفحات الكتب وأقوال المحدثين أخبار متباينة من قبيل ما أجملناه تعده أحيانا في مختلف العبارات أو تزيد عليه ما ليس زيد في مغزاها . ولتكنا نجترئ باليسير منها لأنه أجزاء متباينة يتم بعضها بعضا ، وينظم منها تاريخ متصل الحلقات منذ عرف اسم الأسرة في موطنها إلى مولده وأيام حياته ، وكلها – سواء منها الخبر المروى والخبر الذي تنبأنا عنه معلم المدينة وأثارها – ينتهي إلى نتيجة واحدة تكفي للتعریف بحاضرها وماضيه الذي كان له الأثر الواضح في حياته وعمله ، فمن هذه المعالم والأخبار نعلم أن « عبد الرحمن » قد وعى دنياه وهو يتلقى من ذكريات قومه قدوة النبل والمعرفة ، وتمتد به الذكرى الغاربة إلى عهود الأسلاف الذين نهضوا بزعامة الدين وزعامة الدولة ، وتحفزوا للعرش من صوامع العبادة ومساجد الدرس والمهدية . وقد يتأنى المؤرخ حين يبحث عن الأسانيد القاطعة فيما يتحرّأه عامة المؤرخين ورواية الأخبار عن القديم ، ولكنه لا حاجة به إلى الآناء فيما وعته ذاكرة الأحياء من أبناء الأسرة وأثبتوها بما كان لهم من سابقة وما ينبغي لهم من حياة حاضرة . فلا خلاف على هذه الذكريات بين أبناء الأسرة وأبناء المدينة التي تأصل فيها الآباء بعد الآباء والأجداد على مدى أجيالها المذكورة ، ولا خلاف بين الرواة المعاصرين في عراقة الأسرة الكواكبية في مدينة حلب وإقليمها من حولها ، وإنما يختلفون فيما يسمى باسمها لأول مرة من أجداد عبد الرحمن لأبيه أو لأمه ، ويقال إن أبي يحيى – أحد أجداده – كان يسمى « البيري » نسبة إلى « البير » على القرب من حلب ، ويقول صديقه ومؤرخه الأستاذ كامل الغزى في مجلة الحديث الخليجية : « إنه عرف بالكواكب لاتصال أحد أسلافه بالكواكب من جهة النساء المعروفات بعراقة النسب » .. ولا يذكر – على أية حال – ذو نسب كواكبى بالمدينة غير آل عبد الرحمن في حياته وحياة أبيه وجده .

وقد حدث في حياة عبد الرحمن حادث ذو بال في تاريخ الأسرة وتاريخه بل تاريخ دعوته وتفكيره ، فانتقلت نقابة الأشراف من بيت الكواكبى إلى بيت « الصياد » شيخ الطريقة الرفاعية وشيخ مشائخ الطرق بعد ذلك في أنحاء الدولة التركية . ولكنها لم تنقل للشك في نسب الأسرة الكواكبية أو لثبوت نسب الأسرة الأخرى أميرة محمد بن حسن وادي المشهور بأبي المدى الصيادى .. وإنما انتقلت لرضى الولاية عن زعيم هذه الأسرة ونفورهم من الأسرة الكواكبية ، وهذا هو المثل القريب الذي لمس فيه عبد الرحمن عيوب الحكم في الدولة وأدرك به مواطن الحاجة إلى الإصلاح ، قبل أن يدركه بالبحث والاطلاع.

وأحسب أنا نحتاج قبل اختتام هذا الفصل إلى كلمة موجزة عن الأسرة الصفوية التي يجمعها عمود النسب بالأسرة الكواكبية ، كما تجمعها الطريقة « الأردبيلية » منذ أيام مؤسسها صفي الدين المشهور . فان الاتصال بين النسبين قد يفسر لنا الغابر بالحاضر ، ويفسر لنا ميراث الشعور منذ القدم بين الأسرة والدولة العثمانية ، أو دولة السلطان سليم على التخصيص .

فمن الثابت أن الشاه إسماعيل الصفوی قد نشأ كما يقول مؤرخو الإفرنج من « أسرة دراویش » ينتسبون إلى بلدة أردبيل بأذربيجان ويرتفعون بعمود النسب إلى الإمام علي والستة الزهراء .

ومن الثابت أن الأسرة الصفوية من عهد مؤسسها كانت على دراية بتنظيم الجماعات السرية وعلى أهبة لتجمیع الجموع بالمحالفة والعصبية .

ومن الثابت أن النساك من زعماء الطريقة الأردبيلية كانوا يزورون دمشق وبيت المقدس ويترددون على المدن في الطريق بين شمال فارس وبلاد الروم .

ويقول المؤرخ اللبناني المسيحي - شاهين مكاريوس - في كتابه الذي وضعه عن تاريخ إيران باذن الشاه ناصر الدين : « إنها عائلة علماء أعلام وأئمة كرام وأصحاب تقوى يوقرهم الأنام » .

ثم يروى قصة قيام الدولة فيهم فيقول بعد الإشارة إلى الشيخ صفي الدين : « وكان لهذا الشيخ الفاضل أخوان يصدرون بأمره ، وهو لا يأمر بغير الطيب

والإحسان ، وخلفه ابنه صدر الدين وعقبه من الأولياء مشاهير مثل خواجه على وجنيد وحيدر ، من اشتهروا بالفضل والعلم والتقوى ، وكان صدر الدين في أيام تيمور ، وقد أخذ له مقرأ في مدينة أردبيل من أعمال أذربيجان مثل أبيه ، فزاره يوماً هذا البطل العظيم وسأله أن "مر بما تريد أقصده في الحال . قال: أريد منك أن تطلق سبيل الأسرى الذين أتيت بهم من بلاد الأترارك . ففعل تيمور باشارته ، وحفظ الأترارك هذا الجميل لصدر الدين وعائلته وكانوا بعدهم السبب في توليها الملك كما سيجيء ، وليس في التاريخ ذكر أمر يدل على الإقرار بالجميل بعد مرور الأجيال مثل هذا الأمر . وأشار ما يذكر عن خواجه على أنه حج إلى القدس الشريف ومات فيه وخلفه حفيده جنيد ، فاجتمع لديه خلق كثير حتى خاف الأترارك شره ، وحارب أحد رؤسائهم فاضطربه إلى الفرار إلى ديار بكرا حيث قابله حاكماً الأمير حسن بالإكرام وزوجة أخيه ، وقصد جنيد بعد ذلك بلاد شيران فحاربه حاكماً وقتلها ، فخلفه السلطان حيدر ، وكان أمير أوزون - حسن حليفه فتقوى بنصرته على الأعداء . وصار بالتدرج حاكماً على كل بلاد إيران في مدة السلطان أبي سعيد الذي مر ذكره . ومات فدفن في أردبيل ، فخلفه ابنه السلطان على ولكن القلاقل كثرت في أيامه وظلت عائلة صفو الدين في خطر دائم ، يوماً تصعد إلى الأوج ويوماً تنحط إلى الحضيض ، حتى قام السلطان إسماعيل ابن السلطان على ، وملك البلاد . وهو في اعتبار المؤرخين أول ملوك الدولة الصفوية ، ولا يعرف عن شاه إسماعيل في أيام صغره غير القليل ، إلا أنه استلم قيادة الأعوان في الرابعة عشرة من عمره فحارب عدو عائلته حاكم شيران وقتلها ، ثم هجم عليه الأترارك والتركان من ناحية الأناضول ففرق شملهم وانتصر على كل أعدائه ، فتُوْدِي به سلطاناً على مملكة إيران وما يتبعها وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وكان إسماعيل صوفياً مثل أفراد عائلته وليس له أعداء وأعوانه كثار . فرأى بعد الإيمان أن يدخل مذهب الشيعة الاتنى عشر الجعفرية إلى إيران و يجعلها مذهب السلطنة ، ففعل ذلك وفاز بمراده ولم يلق معارضه تذكر ، لأن الإيرانيين عدوا هذا الانفصال استقلالاً لهم وفضلوا مذهب القائلين بتكرير الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ومن ذلك اليوم صارت بلاد إيران مقر الشيعة بين المسلمين ، وعصت خراسان وبلغ وغيرها من الولايات أمر السلطان إسماعيل في بيته حكمه على عادتها فحاربها

كلها وانتصر عليها وامتد نفوذه هذا السلطان امتداداً عظيماً حتى رزق عدوا
كبيراً لم يقدر عليه هو السلطان سليم العثماني الشهير ، قصد بلاد إيران بخليه
ورجله البالغ عددها مائة وخمسين ألفاً ومائتي مدفع ، وذلك بغتة دون مخارات
دولية لدى الحكومات ، وقام إسماعيل لخاربته بكل ما لديه من القوة وهو
يومئذ بهمدان يطلب الصيد والقتص ودافع عن بلاده في جلدران بخمسة عشر
ألف نفس بأذر بيمجان ، فتقهقر أمامه وكسر شر كسر مع أنه ظهر في الحرب
بسالة غريبة ، وكان الأتراك يحاربون بالدافع والإيرانيون بالسلاح القديم .
غير أن انتصار الأتراك لم يؤثر في إيران لأنهم اضطروا إلى الرجوع في الشتاء
لشدة البرد وقلة الرزاد . ولكن إسماعيل ظل حزيناً من بعد تلك الكسرة
إلى آخر أيامه ، ويروى أنه لم يضحك من بعد ذلك اليوم ولم يترك ليس السواد
أيضاً . ولما مات السلطان سليم تقدم إسماعيل على بلاد الأتراك للأأخذ بالثار
فأنضم بلاد البركسن وهي يومئذتابعة للأتراك ، وعاد عنها فرج على أربيل
ليزور قبور أجداده فقضى نحبه هناك ودفن فيها مأسوفاً عليه . . .

* * *

ترى هل نرى في تاريخ هذه الشعبة من أربيل ما يأبى أن تلحق به تتمة
تلائمه من تاريخ الشعبة الكواكبية ؟ إن تاريخ الأسلاف ليس بيق في الزمن
كالمقدمة التي تنتظر البقية من أعمال الخلافة والأبناء ، وما أحرى عبد الرحمن
أن يكون البقية المنظورة لمقدمة صدر الدين ! وما أحرى الأسرتين أن يتسلل
فيهما نبع واحد من النجدة والورع والهمة والصلابة والسماحة تشابه فيمن عرفناه
منهما حتى الآن على تنوع المواقع والميادين !

شيء واحد يستوقف المؤرخ من اختلاف الشعبة الصفوية والشعبة
الكواكبية ، ولكنه اختلاف متوقع ينفي كل ما فيه من الغرابة بانتظار وقوعه
على الوجه الذي صار إليه .

فالشعبة الصفوية أخذت بذهب الشيعة الإمامية حين قام منها الأئمة على
عرش إيران ، والشعبة الكواكبية تدين بذهب أبي حنيفة من أئمة السنة لأنه

المذهب الذى غلب على المدينة حيث درجوا وتعلموا وأنجبو الأبناء المتعلمين والأساتذة المعلمين ، وربما كان من أتباع صدر الدين أحناف كثيرون كما يعلم من كثرة مريديه من الترك المتنقلين إلى إيران في أسر السلطان تيمور .

وقد كان أتباع الكواكبى للمذهب الحنفى لا يمنعه أن يدعوا إلى وحدة المذاهب وإقامة الإمامة على غير قواعد الخلافة فى الدولة العثمانية . فربما كان هذا التصرف بين الشعبيتين على النهج المنتظر من كليهما قرابة باطنية تمحو ما يتراهى للنظر من ظواهر الاختلاف .

النشأة

الطفل أبوالرجل .

صدق من قالها بما عناء من لفظها ومعناها ، فإن الرجل الكبير يتولد من الطفل الصغير فهو ولدده وسليله على هذا التعبير .

وقد كان عبد الرحمن الصغير أباً مبكرًا للرحلة المخاهد المفكر الحكيم صاحب «أم القرى» و «طائع الاستبداد» ورائد النهضة العربية في طليعة الرواد .

من أقسى ما يصاب به الطفل في نشأته أن يفقد الأم ويغترب عن الأب وعن الجيرة التي فتح عليها عينيه من دنياه .

وقد أصيب الطفل عبد الرحمن بهذه الحزن جميعاً ، فصلب لها عوده اللدن وهو دون العاشرة ، ونمت على معدن الجهاد في طبيعته قبل أوان الجهاد في عنفوان شبابه ، فمن هذا الطفل الدارج من المهد نشأ ذلك الكهل الذي أقدم على مخاطر الهجرة والرحلة الطويلة على غير أمل في العودة إلى الوطن وعلى غير أمان من الغيلة والضلال والمشقة ، وهو رب أسرة وأبوأبناء وفرع أروم تأصلت في مدبها — الذي قطع نفسه عنه — منذ مئات السنين .

تقول الأوراق الرسمية إن صاحب الترجمة ولد حوالي سنة ١٨٤٨ (١٢٦٥ هجرية) ويقول ابنه الدكتور أسعد إنه ولد بعد ذلك بسنوات، وطلب تصحيح تاريخ المولود لدخول الانتخابات، وإنما كان مولده الثابت من سجلات الأسرة في سنة ١٨٥٤ (١٢٧١ هجرية)، وتوفيت والدته سنة ١٢٧٦ (١٩٥٤ هجرية)

وهو في نحو السادسة من عمره ، أو هو قد ناهز العاشرة إذا أخذنا بالرواية الرسمية .

والمرجح أنه كان أصغر من سنه في الأوراق الرسمية عند وفاة والدته ، فان أبياه قد أودعه حضانة حالته السيدة صفية بإنطاكيه فأقام بها إلى سنة ١٢٨٢ هجرية ثم عاد إلى حلب للدخول المدرسة الكواكبية ، ولو كان قد بلغ العاشرة عند وفاة أبيه لاستغنى عن الحضانة في هذه السن وصلاح للدخول المدرسة الكواكبية بغير تأجيل . ولو صبح تاريخ الأوراق الرسمية لكان في نحو السابعة عشرة حين عاد من أنطاكيه للدخول المدرسة ، وهي سن متأخرة لمن يبتدئ الدراسة في مثل أسرته .

وقد تعلم الكواكبى في مكتب أنطاكيه ومدرسة حلب كل ما يتلقاه التلميذ فيما من العلوم المدرسية ، وتعلم اللغتين التركية والفارسية ومبادئ الرياضيات على الأساتذة الخصوصيين من أصدقائه أبيه ، وتلقى من أبيه صفوه العلوم الدينية والأدبية التي كان يتقنها ، وهو كما تقدم من معلمى الجامع الأموى وأصحاب المناصب الشرعية .

قال صاحب المنار : « إن الفقييد درس قوانين الدولة درساً دقيقاً وكان محظياً بها يكاد يكون حافظاً لها ، وله انتقاد عليها يدل على دقة نظره في علم الحقوق والشريائع ، ولهذا عينته الحكومة في لجنة امتحان الحاصلين ، ولا أعلم أنه برز في فن أو علم خصوص فاق فيه القرآن ، ولكن تلقى ما تلقاه من كل فن بفهم وعقل بحيث إذا أراد الاشتغال عملاً أو تأليفاً أو تعليماً يتسعى له أن ينفع نفعاً لا ينتظر من الذين صرفوها فيه أعمارهم . . . على أن الفقييد لم يتعلم شيئاً من علوم النفس والأخلاق والسياسة وطبائع الملل والفلسفة في مدرسة ، وإنما عمدته في هذه العلوم ما طالعه منها من المؤلفات والجرائم التركية والعربية » .

ولا يخفى أن طالب العلوم السلفية لا يحتاج في عصر الكواكبى أو في العصر الحاضر إلى غير اللغة العربية للتتوسيع فيها غاية ما ينشده من توسيع المتخصصين أو المستطلعين . أما المعارف العصرية فقد يستهين الناشيء العصرى بما كان يتيسر منها للقارى الذى يجهل اللغات الأوروبية قبل مائة سنة ، ولكنه فى الحقيقة

محصول وافر لا يستهان به في زمانه، إذ كان في وسع العارف بالعربية أو التركية أن يطالع مئات من الكتب المترجمة عن اللغات الأوربية في العلوم والأداب، وأن يطالع معها المجالس والصحف التي تكتب في هذه العلوم والأداب أو تنقلها عن ثقافتها وأعلامها، وقد تحدث الزهاوى عن نفسه فقال إنه لم يتزود من المعرفة العصرية بزاد غير مطالعاته في المجالس العربية والتركية وبعض الكتب المترجمة التي وصلت إلى يديه في بغداد، وبهذا الزاد - ولا زيادة عليه - أصبح في مقدمة الباحثين المعدودين إلى أوائل القرن العشرين، فضلاً عن مكانته الشعرية وعمله في مجالس النواب.

ولا نخال أن الكواكبى فاته مرجع هام يعنيه أن يطلع عليه في موضوعات بحثه وتفكيره، بل لا نخال أنه ضيع فرصة يستفيد منها علماً أو خبراً نافعاً من زوار حلب الذين يجتمعون بمثله في مركزه ووجهته بين قومه، وكانت حلب لا تزال في عهد نشأته مثابة الزائرين والمقيمين من فضلاء الشرق والغرب، وبينهم وكلاء الشركات التي كانت تتأسس في المدينة على طريق التجارة الهندية الشرقية قبل افتتاح قناة السويس، وبينهم قلة من الإيطاليين في إيان ثورتهم القومية، وفئة من الفرنسيين في إيان ثورتهم الدستورية، وكثير منهم متقطعون ينتمون إلى حزب من الأحزاب الثورية في بلادهم وينقلون معهم آراء فلاسفتهم وزعمائهم وأبناء طائفتهم وجماعاتهم، ومن هؤلاء ولا شك عرف الكواكبى ما عرف عن «ألفيرى» صاحب كتاب الاستبداد الذى أشار إليه في كتابه، ولا يبعد أن يكون قد انتظم معه في محفل من مخالف «الكربونارى» الذى ألفها ثوار إيطاليا لمنافسة الماسون الإنجليز أو الفرنسيين وجعلوا يرجحون فيها بفضلاء الأمم الأخرى لنشر مبادئهم وتأييد دعوتهم إلى الحرية، وهي قريبة يومئذ من دعوة التأثر العربي إلى الوحدة القومية والاستقلال عن السيادة التركية.

والظاهر من سيرة الكواكبى ومن كتاباته معًا أنه أصحاب من الثقافة القديمة والحديثة ما يرشحه لأعماله في المدينة ولرسالته في العالم العربي والعالم الإسلامي على عمومه، فلم يوكِل إليه عمل من أعمال الحكومة أو الطالب الاجتماعية إلا أثبت فيها كفاية الإدارة الحسنة والنشاط المنجز والتصرف المبتكر الذي يخرج به على

الأثر من جمود الوتيرة المشهور في عرف الغربيين بالروتين، ويضفي به إلى نتيجته المقصودة التي عطلها التقليد وطول الإهمال .

عمل وهو ينافر الثانية والعشرين في صحيفة «فرات» العربية التركية التي أنشأها المؤرخ الكبير أحمد جودت باشا قبل عمل الكواكب فيها بنحو عشر سنوات ، ثم أنشأ في حلب أول صحيفة عربية باسم «الشهباء» مع زميله هاشم العطار ، ثم أنشأ صحيفة «الاعتدال» بعد تعطيل الشهباء لصراحتها في تقد الإدارة وتلميحيها إلى وساومر، السلطان عبد الحميد ، فأصابها ما أصاب الشهباء بعد قليل .

ويئس الكواكب من أداء رسالة الإصلاح بالكتابة المحرور عليها في الصحافة المهددة بالتعطيل . فقبل العمل في وظائف الحكومة وتولى في هذه الوظائف ضروباً متنوعة من أعمال الإدارة والقضاء والتعليم ، ومنها وظائف لها اتصال بالتجارة كادارة حصر الدخان ولجنة البيع والفراغ التي تستبدل أرض الحكومة ، ورئاسة غرفة التجارة ، وغيرها من الوظائف التي ندع إحصاءها ونكتفي في هذا المقام بدلائلها جمِيعاً على كفاية الرجل لكل عمل تولاه ، وعلى تلك القدرة الملهمة التي أعادته على إحياء كل وظيفة عهدت إليه من موات الوريرة أو «الروتين» ونجاهه في تنظيفها وتطهيرها بعد نفخ الغبار عنها ، واستصلاحها للإنتاج والتعمر .

فن مبتكراته في المجلس البلدي أنه جعل للسابلة طرقا غير طريق الإبل والدواب ، وأقام في ضواحي المدينة سلاسل من الحديد للفصل بين معالم الطرق وتسهيل السير للمشاة .

ومنها أنه زاد أجور العمال سداً للدرائع الرشوة والاختلاس ، وأنه رتب
أوقات العمل ومواضعاته وخصص الأماكن لكل منها منعاً للزحام والانتظار ،
 وأنه تتبع المهربيين للدخان وأجرى عليهم الرواتب والوظائف التي تغنينهم عن
التهريب ، وأنه ضبط أعمال الغرفة التجارية بالإحصاءات ونظمها على مثال
الغرف التجارية في عواصم الحضارة .

ومن مشروعاته إعداد العدة لإنارة المدينة وضواحيها بالكهرباء، وبناء مرفأ للسوبرالية وجلب الماء إلى حلب من نهر الساجور ، وتجفيف المستنقعات التي كانت فيها مرضى منبعاً للأوبئة والحميات الدورية .

وقد أقام في حلب معظم أيامه لم يفارقها قبل سفره منها إلى القاهرة غير مرات قليلة في رحلات قصيرة ، إحداها أبعد فيها الرحلة إلى الآستانة حيث علم أبوالمدى بمقتله فنفلت إلى داره وحاول اجتذابه إلى حظيرته واستبقاءه تحت نظره ، فماطله الكواكب بالوعد حتى تمكن من العودة إلى بلده بغير اختياره .

وفي خلال هذه الأعمال والوظائف جرت عليه نزاهته – وصراحته – عداوة أعداء العمل التزيم والقول الصريح ، فابتلى في ماله ورزقه ، وتمحل الولاة المعاذير الواهية لمصادرة أرضه وإتلاف مراقبه ، وأقاموه بمرصد لتهم والوشایات كلها نشبت فتنته أو وقعت جريمة لصقت به الفريدة العاجلة وصنعت الجاسوسية صنيعها في تلفيق الأسانيد وتلقين الشهود وتدبير المحاكمات ، وينقضى الوقت في شغل شاغل من هذه التهم ومن جهوده وجهود أنصاره في دفع شرها ورد كيدها ، ومنها ما يبلغ به الخطر مبلغ الاتهام بالخيانة وعقوبة الإعدام . . .

يلقى حجر على القنصل الإيطالي فيتهم الكواكب لأن القنصل أصيب في جوار داره ، ويطلق الرصاص على الوالي فيتهم الكواكب لأن الكواكب اشتکاه وأنهى عليه ، ويشتجر جماعة من أبناء الجاليات فيتهم الكواكب لأنه حسن العلاقة محبوب بين أبناء هذه الجاليات .

ومن نبل هذا الرجل الكريم أن الوالي الذي أتهمه بتدبير الجريمة لاغتياله – جحيل باشا – وقع في خصومة عنيفة بينه وبين القنصل الإنجليزي في المدينة ، فلرجأ القنصل إلى نفوذ دولته في العاصمة ، وبادرت العاصمة إلى التحقيق على غير عادتها ، فقدم مندوب الوزارة الحق إلى حلب وهو يعلم بنزاهة الكواكب وصدقه ويعلم أنه مطلع على الحقيقة من شهادته وتوجيهاته ، فأثبتت مروءة الرجل أن يؤيد وكيلًا للدولة أجنبية تغنم التأييد في البلدة من وراء فوزه في هذه الخصومة وانتصاره على أكبر ولاتها ، وشرح الموقف لمندوب التحقيق من هذه الوجهة ، فسلم الوالي من عاقبة هذه الأزمة ، ولم يسلم الكواكب من أذاء .

وأخطر ما اتهموه به أنه يتواطأ مع دولة أجنبية لتسليم البلاد إليها ، وهي جريمة عقوبها الموت إذا ثبتت ، وثبتت بالشبهة القوية عند ساسة العصر إذا تعلرت الأسانيد القاطعة ، وأوشكت قرائن التزييف والتهديد أن تطبق على المتهم البريء لو لا أنه نجح في نقل المحاكمة من قضاء حلب إلى قضاء بيروت ، فكان ابعاد المحاكمة عن مقر التزييف والتهديد سبيلا إلى جلاء الشبهة وثبوت البراءة ، بعد أن ضماع الرجاء فيها أو كاد .

إن سيرة هذا البريء المظلوم مادة دراسة للمظالم والأباطيل ، وإن أعداءه في بلده أ尤ان همته وعزمها ، فلولاهم لجاز أن يسكن إلى مقام يستطيع ويتحمل ، ولكنهم أحسنوا غير عاملين ولا مشكورين فتجاوزا به حد الاحتمال .

ثقافة الكواكب

كان الكواكب « ابن عصره »

ووجه الإنسان من الثقافة أن يعيش في عصره لا يتخلّف عن شأوه في علمه ولا في عمله ، فليس للثقافة من حسنة ألم ما من هذه الحسنة في مجال المعيشة ولا في مجال الدعوة إلى التجديد والإصلاح .

فالرجعي الجامد يعيش في الأيام الماضية .

والطوبى الحال يعيش في الأيام المقبلة .

ولكن الرجل المثقف يؤدى للثقافة كل حقها إذا استفاد من معارف زمانه ولم يتقييد ببقايا الزمن السابق وعقابيله ، فعمل كما ينبغي أن يعمل كل من تحرر من قيود التقليد التي يرتبط بها المقلد وهو لا يفقه معناها .

والذين أصابوا من ثقافة القرن التاسع عشر كما أصحاب الكواكب كثيرون يعلدون بالمثلثات ، ولكن الذين لم من ثقافتهم فضل كفضيله آحاد يعلدون على أصحاب اليدين .

إن فضل المثقفين في عصر الكواكب أنهم تعلموا كما فرضت عليهم البيئة أن يتعلموا ، وسيقووا إلى العلم مع الزمن كله ، غير منيرين .

أما فضل الكواكب في ثقافته فهو أكبر من فضل واحد :

إنه فضل المثقف الذي تلقى ثقافته من ثمرة اجتهاده ومشيئته .

وإنه فضل المثقف الذي بلغ بوسيلته ما لم يبلغه أنداده بأضعاف تلك الوسيلة .

وإنه فضل المثقف الذي انتفع بثقافته ونفع بها قومه ، وجعلها عملاً متنجاً ،
ولم يتركها كما تلقاها أفكاراً وكلمات .

تلقي الكواكب في المكاتب والمدارس ما يتلقاه الأطفال الصغار ، فكل
ما يتعلم من الفتى الناشئ أو الرجل الناضج هو كل ما تلقاه في بيته واستفاده
من مطالعاته .

وتعلم من اللغات – غير العربية – لغتين شرقيتين هما التركية والفارسية ،
وكليتاها تأخذ الثقافة العصرية منقولة من اللغات الأوروبية ، متفرقة بين أشتات
من الكتب والصحائف ، فبلغ بهذه الوسيلة في مطلعه الذي عناه ، شاؤأم لم يسبقه
فيه رواد الثقافة من مناهلها في لغاتها ، وبين أيدي الأساتذة والمعلمين من أهلها .

وعرف ما عرف بهذه الوسيلة فعمل به كل ما في الوعي أن يعمل في زمانه ،
وأبقى أساسه من بعده صالحاً للبناء عليه .

وذلك فضل النبوغ وفضل الرزامة ، لا يستوعبه أن يقال إنه عمل رجل
من المثقفين ، حتى يقال بل رجل من المثقفين النابغين العاملين .

ولا يطلب من المثقف العامل أن يحيط بمعرف عصره ويقتضي كل جديد
من بداعه جيله ، فليس ذلك عسير ولا هو بلازم للمثقف العامل ، وإنما يعنيه
أن يعرف ما يعنيه في عمله ، وأن يعمله على التحو الذي جدده معارف الزمان
ولم يكن ميسوراً لمن يتركون القديم على قدمه .

وكان الكواكب ي العمل في إصلاح المجتمع الإسلامي وإصلاح الحكومة
المستبدة ، فلم يدع باباً من أبواب المعرفة التي تعينه على قصده لم يأخذ منه
ما يكفيه ويعنيه ، ولم يزهد في أصل من أصول هذه المعرفة إلا ما كان من قبيل
الفضول في تحقيق غاياته القريبة وجهوده المرجوة .

فليس من زاد هذه الدعوة أن يملأ ذهنه أو يملأ صحائفه بالمطولات
أو الموسوعات في شروح التواريخ وتفاصيل المذاهب الاجتماعية ودساتير
الحكومات والدول بين قديم منها وحديث .

وليس من زادها أن يسبح في عالم من فتاوى الفقهاء وفروض المفسرين
وعشاق التأويل والتخرير .

بل يكفيه من الزاد - ويربى على الكفاية - أن يعلم من أحكام دينه ما يميز
به الصحيح وغير الصحيح ويكتفى به إلى القويم من الرأي والاعتقاد وغير القويم .
ويكفيه أن يعلم من أحوال عصره علاقات الدول والأوطان ، وبجمل الواقع
الثابتة من دعوات الحرية والإصلاح ، وذلك هو الزاد الذي يعلم المطلعون
على كتابيه أنه كان موفوراً لديه .

فن صفحات «أم القرى» و«طبايع الاستبداد» نعلم أنه كان على اطلاع
حسن في مسائل الدين ، وكان على دراية محققة بتواريخ الأمم الإسلامية ،
وكان من الملمين أولاً فأولاً بالفتح العلمية في العصر الحديث يفهم منها ما لم
يكن يفهمه غير القليلين في أوربة نفسها يومئذ من آراء الرواد السابقين فيها .
فكان ملماً بمذهب النشوء والارتفاع ، ملماً بأراء العلماء في أطوار المادة وحركات
الأفلاك وتكون الكرة الأرضية والمنظومة الشمسية ، وكان في شؤون الاجتماع
والسياسة يلم بأخبار الثورة الفرنسية وأخبار الزعماء والعامليين على استقلال
الشعوب وتوحيد الأقوام ، ويتابع قواعد الحكم ومواضع التفرقة بينها ، وينظر
في الأخلاق والعادات التي تفترن بالفوارق بين أمة منها وأمة وبين حكومة منها
وحكومة ، وينص الشؤون العملية بعنایته الأولى غير معرض عن جوانبها
الأدبية ، فلا يخفى عليه اسم الشاعر الذي أبدع الأناشيد أو الخطيب الذي أثار
النخوة ، ولكنه يقنع من ذلك بالحظ الذي سلك عنده «شيلر» في سلك
حسان والكميت ، فلان ظنه كلف نفسه الاطلاع على أناشيد المنشدين وخطب
الخطباء ، بل لا ظنه كان يعبر بها في لغة من اللغات التي يحسنها لو أنه سأل
عنها ، ولكنه لم يعلم بالأسماء إلا لعلمه بالدعوات التي أبرزتها في صفحات
رواتها ومؤرخيها .

* * *

ولا اختلاف في مذهب الثقافة الدينية ، على اعتقاد الكواكب ، بين التجديد
والمحافظة على تراث السلف الصالح في صدر الإسلام . لأن نهضة المسلمين إنما

تقوم على تطهير الديانة الإسلامية من نفاثات الحرافة ، وحواشي البدع التي لصقت بها في عصور الجمود والتقليد ، فالحافظة في اعتقاده مرادفة للتجدد على أقوام سبله ، واعتبار الكواكب من صنيع المحافظين في الدين لا يخرجه من زمرة المجددين المتشددين في طلب الإصلاح ، بل هو على قدر غلوه في المحافظة على تراث السلف يغلو في دعوة الأجيال المقبلة إلى التحرر والتجدد .

وقد كان يشتد في المحافظة أحياناً فيتحرق من تغيير العادات في غير حرج ، كما نرى في اعتقاده الذي أنتجه به على السلطان محمود لأنّه « اقتبس عن الإفرنج كسوتهم وألزم رجال دولته وحاشيته بلبسها حتى عمت أو كادت ، ولم يشأ الآتراك أن يغيروا منها الأكمام رعاية للدين لأنّها مانعة من الوضوء أو معسرة له ». .

وإن هذا الانتقاد لإفراط في المحافظة يلحظه بزمرة المحافظين الغلاة في حرصهم على سمعت السلف وزيه الذي لا مساس له بجوهر العقيدة ، وقد رأينا من معاصريه أنه ربما نزع إليه إفراطاً منه في السخط على سلطان الدولة وأساليبهم في التقريب بين الشرق والغرب والقديم والحديث ، ولكنه – كما نرى من محافظته على زيه في وطنه وبعد الهجرة منه إلى الهند والديار المصرية – لم يكن يعمل غير ما يقول ، ولم يكن ينقد بكلامه ما يتخصص فيه بعمله . فإنه يبقى على سنة أسلافه قبل عهد السلطان محمود ، فلم يبدل زيه إلا ليلبس العباءة والعقال .

وربما جنح في أواخر أيامه إلى آراء بعض المتصوفة في تفسير الكائنات الغيبية بالمعنى النفسي والرموز الروحية ، وأبعد ما ذهب إليه من ذلك قوله في فصل التربية من طبائع الاستبداد : « إن يشاً الكمال يباغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة غير خواتر الخير ، وإن شاء تلبس بالرذائل حتى يكون أحاط من الشياطين ، إن كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر .. »

ورد هذا في الطبعة التي ظهرت بعد وفاته ولم يرد في طبعة من الطبعات التي أصدرها في حياته ، ولعله من بهذا الخاطر بعد اطلاعه على التفسيرات الحديثة على أطراف من كلام الصوفية المتأخرين ، ولا نخاله قد غفل في مطالعاته الدينية عن تفسير كفسيير السيد محمد الآلوسي المتوفي سنة ١٢٧٠ هجرية ، فإنه يشير

إلى أمثال هذه الخواطر كما فعل بعد تفسير الآية عن زلل آدم وحواء إذ أكلَا من الشجرة فقال : « وبينما هما يتفرجان في الجنة إذ راعهما طاووس تحلى لها على سور الجنة فدنت حواء منه ، وتبعها آدم فوسوس لها من وراء الجدار .. ومشهور حكاية الحياة .. يشير أولها عند ساداتنا الصوفية إلى توسله من قبل الشهوة خارج الجنة ، وثانيهما إلى توسله بالغصب . وتسوّر جدار الجنة عندهم إشارة إلى أن الغصب أقرب إلى الأفق الروحاني والحزن القلبي من الشهوة . وقيل إن توسله إلى ما توسل إليه إذ ذاك مثل توسله اليوم إلى إزلال من شاء الله تعالى وإضلاله ، ولا نعرف من ذلك إلا المواجه والخواطر التي تفضي إلى ما تفضي ، ولا جزم عند كثير في دخول الشيطان في القلب بل لا يعقلونه ، وهذا قالوا : إن خبر (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) محمول على الكناية عن مزيد سلطانه عليهم وانقيادهم له ، وكأنى بك تختار هذا القول ، وقال أبو منصور : ليس لنا البحث عن كيفية ذلك ولا نقطع القول بلا دليل

وقد تقدم من كان يقول — كاجبائي وأبي بكر الرازي — إن أثر الشيطان في دم الإنسان كأثر النفس فيه ، فليس للشيطان وجود جسدي في داخل البنية الإنسانية ، وليس له من سلطان عليه غير ما يتغلب به على هواه .

فإن الكواكب قد لاحت له هذه اللمحات العابرة فما عدا بها تلك الخواطر الصوفية ولا تلك الخواطر الطيبة التي أوردتها مورد الاحتمال ، ولم يقطع بالقول — على حد عبارة السيد الآلوسي — بغير دليل .

* * *

ولا تزال سمة الثقافة العصرية أغلب السمات على هذا الفعل المستير ، تجذبه الحافظة على سنة السلف أحيانا ، بل تجذبه كثيرا ، ولكنها لا تجذبه إلى جانبها إلا من جانب التجديد ، لأن التجديد عنده هو نحو الفضول عن العقيدة الإسلامية والعودة بها إلى بساطة الحرية والاستقامة والاجتهداد في الفهم المنزه عن قيود التقليد .

أسلوب الكواكب

كانت أساليب الكتابة في أواخر القرن الثامن عشر لا ت تعدى أساليب الرسائل و «الخطابات» أو «الإفادات» بين عامة وخاصة.

وكانت الرسائل العامة — وهي رسائل الدوادين — مفرغة في قوالبها التقليدية تتكرر على صورة واحدة في مناسباتها فلا يستطيع الكاتب أن يتصرف في ألفاظها ولا في ترتيب عباراتها وصيغة استهلاها وختامها ، أو «ديجاجتها وتقفيتها» باصطلاحهم الذي حافظوا عليه نحو قرن كامل بعد هذه الفترة .

وجرى الاصطلاح على المفردات المتفرقة كما جرى على الجمل والعبارات في تلك الرسائل الرسمية ، فأصبحت لغة الدوادين «لغة خاصة» بين الفصيحة والدارجة تتخللها الكلمات التركية أو الكلمات العربية بأوزانها التركية ، وتتلذلذ فيها ملاحظة قواعد الإعراب فضلاً عن قواعد الصرف على أصولها العربية .

ولم تكن هناك «كتابة» بمعناها المفهوم في أغراض الأدب والثقافة ، فلم يكن في القرن الثامن عشر من يكتب ليعبر عن فكرة أدبية أو عن حالة نفسية ، أو ليصور للقارئ معنى مبتكرآ من عنده أو معنى مفهومآ من معانى العلم والمعرفة ، وإنما الكاتب يومئذ من كان يستظهر أنماطاً من الصيغ يتداولها جميع الكتاب على صورة واحدة في مناسباتها ، ولا يستطيعون إعادة بمعناها على صورة أخرى غير التي حفظوها وتداولوها .

أما كتابة «التعبير» فقد تعطلت في عصور الجمود والتقليد ولم يشعر أحد بالحاجة إليها للتأليف والتصنيف أو للأفهام بما عنده من الخواطر والآراء .

إذ لم يكن ثمة من يؤلف ويصنف : ولم تكن ثمة خواطر وآراء يتبادلها الكتاب والقراء ، بل لم يكن ثمة من يقرأ القديم ويرغب في نسخه وحفظه ، وفي تعلمه وتعليمه ، لقلة العناية بالعلم في غير أغراضه المتواترة التي يكتفون فيها بالحفظ والنقل والمحاكاة .

وطلت الكتابة للتعبير معطلة إلى أوائل القرن التاسع عشر الذي تنبأ فيه البلاد العربية لوقفها من أمم الحضارة ، فاحتاجت إلى التعلم منها كما احتاجت إلى إحياء علومها وأدابها التي بقيت لها بقية من الفخر بها والحنين إليها . فانبعت الكتابة العربية الحديثة مع حركة الترجمة وحركة الطباعة . وولدت « أساليب الكتابة » في مولدها الجديد يوم احتاج المترجم إلى فهم شيء مفصل مشروح بين يديه يؤديه من عنده بعبارة عربية تطابقه في معناه ، ويوم شعر بالضرورة التي تلجمته إلى مراجعة كتب السلف ليتعلم منها أساليب الأداء ويستوعب منها مخصوصاته من المفردات والتركيب .

وبدأت الكتابة العربية — مع ابتداء حركة الترجمة والطباعة — ضعيفة متعرجة تشبه كتابة الدواوين وتلتقت إليها ، ثم نشطت من عقائدها قليلاً قليلاً حتى استقامت على قدميها في شيء من الاستقلال والثقة ، فانقضى جيل من المترجمين والكتاب أو جيلان قبل أن تظهر في عالم الكتابة العربية أقلام يتميز بينها قلم من قلم ، وأسلوب من أسلوب ، ويتحدث القراء عن أسلوب هذا الكاتب وأسلوب ذاك .

وتنوعت الأساليب على حسب القراءات والمطالعات ، فالذين أكثروا من قراءة كتب الأدب أو قراءة كتب التفسير والأحاديث النبوية ظهرت في أسلوبهم جزالة اللفظ وسلامة التركيب وقلت فيه أخطاء النحو والصرف وما تحدى اللغة على الإجمال ، والذين أكثروا من قراءة كتب التاريخ والدراسات الاجتماعية وراجع الحقوق والأحكام ظهرت في أسلوبهم سلاسة التعبير وسهولة الأداء ودقة المعنى على منهج أصحاب العلوم أو أصحاب الأحكام ، ولكنهم لم يسلموا من بعض الخطأ في قواعد الإعراب والتصريف على ديدن أمثالهم ونظرائهم بين الكتاب الأقدمين .

وربما انصح الفارق بين الأسلوبين بتسمية الأعلام من كتاب كل مدرسة متقدمة في ثقافتنا العربية ، فهذا مدرستان : أدبية ينضوي إليها أمثال ابن المقفع والبديع والجرجاني وأبن عبد ربه وأبن زيدون ، وعلمية ينضوي إليها أمثال الغزالى وأبن خلدون وأبن جبير وأبن بطوطة وسائر كتاب التواريخ والرحلات ومباحث الأخلاق والاجتماع .

* * *

والكواكب قد بدأ حياته الصحفية بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وأخذ يشدو في فن الكتابة خلال تلك الفترة المتوسطة بين ابتداء حركة الترجمة والطباعة وانتشار المطبوعات من كتب السلف ، وما استتبعه من شيوع الفصاحة والاستقلال بالتعبير .

ولا أدل من أصلالة طبعه من أسلوب كتابته ، فإن أسلوبه ينم على مطالعاته ، ومطالعاته تتم على الوجهة التي اتجه إليها بفطرته واستعد لها بتربيته ، وهي وجهة العمل على محاربة الاستبداد وتدعم مبادئ الحرية .

وكان الكواكب كثیر المطالعة فيها ينفعه في هذا المطلب ويستحث خطاه إلى هذه الوجهة ، قليل المطالعة فيها عداه من كتب العلم الذي يسميه علم اللغة أو العلم الموكّل بشئون المعاد بمعزل عن شؤون الحياة ، وإلى هذا يشير في كتابه « طبائع الاستبداد » حيث يقول : « إن المستبد لا يخشي علوم اللغة – تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان وأکثرها هراء وهذيان . نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حکمة حماس تعقد الألوية أو سحر بيان يخل عقد الجيوش » . ثم يقول : « كذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة بما بين الإنسان وربه ؛ لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة ، وإنما يتلهي بها المتهوسون » .

إلى أن يقول : « ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحکمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية ، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر الفتوس وتوسيع العقول وتعرف الإنسان ما هي حقوقه .. »

ومن المؤلفين الذين ذكرهم في مقدمة طبائع الاستبداد أولئك الذين ألغوا في علم السياسة ممزوجاً بالأخلاق كالرازي والطوسى والغزالى والعلائى ، وهى طريقة الفرس ، وممزوجاً بالأدب كالمعرى والمتنبى ، وهى طريقة العرب ، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة ، وهى طريقة المغاربة . »

* * *

ولا يرى من مطالعاته في الشعر أنه كان ينحى إلى قراءة شيء من المنظوم على غير ذلك المثال الذي كان يستشهد به في بعض فصول « أم القرى » أو « طبائع الاستبداد » كقول المتنبى :

ولأنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوکها عجم

أو قوله الذي استشهد به على صفة المستبد :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنوته وصدق ما يعتاده من توهם

أو قوله في وصف الجهلاء المسخرين :

بأرض ما اشتهرت رأيت فيها فليس يفوتها إلا كرام

أو قول أبي العلاء :

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فتحن على تغييرها قدراء

ولم يذكر من شعر الجاهليه غير كلام لعمرو بن نفيل يعني فيه على الجاهليين عبادتهم للأرباب الكاذبة وإيمانهم بالخرافة :

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل الخير

فهو قارئ تقوده فطرته إلى مطالعاته ، وكاتب تسرى إلى قلمه أساليب الموضوعات التي يطالعها ولا تصلح لأسلوب غيرها ، وبخاصة حين يجرى بها القلم في الصحف السيارة حيث كتب الكواكبى مقالاته الأولى ومقالاته الأخيرة

الى اجتمع منها كتاب طبائع الاستبداد ، وما كتبه أثناء ذلك في غير الصحف – كأم القرى – فأنما هو فصول متابعة تصلح للنشر في الصحف الدورية على النحو الذى ظهرت به في الكتاب .

وكان الكواكبى رحالة مطبوعا على السياحة في الآفاق ولم يكن قصاراه أنه رحالة على صفحات الأوراق ، وقد طالع كتب المؤرخين والرحالين قبل أن يخرج من بلده للطواف في الأرض والكتابة للتاريخ ، وباشر الرحلة في صفحات الكتب قبل أن يباشرها على متون الإبل والسفن في الصحاري والبحار ، فمن قرأ ابن خلدون وابن جبير وابن بطوطة ثمقرأ مقالات الكواكبى خيل إليه أنهم قد بعشوا من مراقد هم في رحلة من رحلات العصور يكتبون ويسجلون ما شهدوه وكابدوه لأبناء العصر الحديث .

وقد اتسم أسلوبه بسمة الأسلوب الذى تكتب به التوارييخ والرحلات ، وسلست عبارته في نسق مرسل واضح يقرر الواقع ويتبع المشاهدة ويتبسط في وصف ما يراه بالفکر كما يتبسط في وصف ما يراه بالعيان .

ولا يخفى أن هؤلاء الكتاب – كما قدمنا – قد تخصصوا لتسجيل المشاهدات الاجتماعية والتاريخية ولم يتخصصوا لمباحث اللغة والبيان ، فليس من الغريب أن تتسرب إلى أفلامهم أخطاء الألسنة في زمانهم ، وأن يتزدد في عباراتهم بعض السهو الذي يتمحرز منه اللغويون وكتاب الأدب ، في مدرسة ابن المقعم والبديع والباحثظ وعبد الحميد . وشأن الكواكبى في ذلك قريب من شأن ابن خلدون وابن جبير ، بل من شأن الغزالى وابن مسكوبه وسائر أصحاب الأقلام التي لم تنفرغ للأدب واللغة وشغلتها دقة التعبير عن دقة الإعراب .

تقرأ له – مثلاً – في تعريف الاستبداد : « إن الناظر في أحوال الأمم يرى أن الأمراء يعيشون متلاصقون متراكون . . . أما العشائر والأمم الحرة . . . فيعيشون متفرقون » .

أو تقرأ مثل قوله : « الأزواج الخلقاء » . . . « ولا يخرج قط » . . . « وقوابين

لكلة الشئون » . . . « وحياة النائم المزعوج بالأحلام (١) » . . . « وعلى هذا النسق يوضع كتاباً للمنهيات » . . . « وإن هؤلاء الأئمة الأقدمين لا يقدروا أن يطّلعوا على مالا يقدر المتأخرُون أن يطّلعوا عليه » . . . « ولا تتحقق في الإنسان إلا في فن واحد فقط يتولع فيه فيتقنـة» (٢) . . . إلى أشباه هذه المائدة التي كانت تشيع في صحافة عصره ولم يكـد يسلم منها كتاب الأدب والبيان ، وقد يعتبر الكواكبـي من أقل زملائه ونظرائه تعرضاً لهذه المائدة والمنات .

* *

ولا ننسى أن « الكواكبـي » كان يتحرى فيما يكتب ويعلم شيئاً واحداً لا يتحول عنه بفكرة ولا بقوله ، وهو محاربة الاستبداد .

ولا ننسى أن معيار القول النافع عنده أن يخشاه المستبد ولا يطمئن إليه ، والمستبد لا يخشى علوم اللغة التي أكثرها هزل وهذابان ولكنه يخشى من الكلام حامة الخطابة ، لأنها تعقد الألوية وتحل عقدة الجيوش كما قال .

ولمـذا كان هذا الأسلوب الخطابـي من الأساليب المحبـية إلى الكواكبـي في كتابـته ، وكان يـخيل إليه أحياناً أنه يـلقـي بالقلم جانباً ليـتكلـم إلى القراء كـلام الخطـيب على المنبرـ لمـ يـصـغـون إـلـيـه بـالـأـسـمـاع ، أو يـصـغـون إـلـيـه بـالـقـلـوب بـدـلـ الأـسـمـاع .

وكـأنـا نـراه يـهمـ بذلك وهو يـختـمـ كـلامـه عـلـيـ الاستـبدـاد وـالـتـرقـ بهـذهـ الكلـاتـ :

« على ذكر اللوم الإرشادي لاحـلى أن أصور الرقـ والـانـحطـاطـ فيـ النفسـ وكـيفـ يـنبـغيـ لـإـلـانـسـانـ العـاقـلـ أنـ يـعـافـيـ إـلـيـقـاظـ قـوـمهـ وكـيفـ يـرـشـدـهـمـ إـلـىـ أنـهـمـ خـلـقـواـ لـغـيرـ مـاـهـمـ عـلـيـهـ منـ الصـبـرـ عـلـ الذـلـ وـالـسـفـالـةـ ، فـيـذـكـرـهـمـ وـيـحـركـ قـلـوبـهـمـ وـيـنـاجـيهـمـ وـيـنـلـرـهـمـ ، بـنـحوـ الـخطـابـاتـ الـآـتـيـةـ » .

(١) طبائع الاستبداد .

(٢) أم القرى .

ثم يقول :

« ياقوم ! ينazu عنى والله الشعور هل موقعى هذا فى جمع سى فأحبيه بالسلام ،
أم أنا أخاطب أهل القبور فأحبيهم بالرحة . »

« ياهؤلاء ! لست بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين . بل أنت بين بين
في برزخ يسمى السبت ، ويصبح تشبهه بالنوم . »

« يارباه . إنى أرى أشباح أناس يشبهون ذوى الحياة وهم في الحقيقة مو قى
لا يشعرون ، بل هم مو قى لأنهم لا يشعرون . »

« ياقوم ! هداكم الله . إلى متى هذا الشقاء المديد ، والناس في نعيم مقىم ،
وعز كريم . أفلأ تنظرون ؟ » .

وفى مثل هذا المقام يلتفت بعد ذلك بصفحات ليخاطب الشرق والغرب
بهذا الخطاب ، إذ ينادى الشرق أولاً ؛ قائلاً :

« رعاك الله يا شرق ! ماذا أصحابك فأخل نظامك ؟ والدهر ذاك الدهر ،
ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك » .

« رعاك الله يا شرق ! ماذا عراك وسكن منك الحراك . ألم تزل أرضك
واسعة خصبة ومعادنك وافية غنية ، وحيوانك رايباً متناسلا ، وعمرانك قائماً
متواصلا ، وينوك – على ماريتهم – أقرب للخير من الشر . . . أليس عندهم
الحلم المسى عند غيرهم ضعفاً في القلب ، وعندهم الحياة المسمى بالجبانة ،
وعندهم الكرم المسمى بالإتلاف ، وعندهم القناعة المسمى بالعجز ، وعندهم
العفة المسمى بالبلاء ، وعندهم الخاملة المسمى بالذل ؟ . . . نعم ما هم بالسالمين
من الظلم ولكن فيما بينهم ، ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ،
ولا من الإضرار ولكن مع الخوف من الله » .

ثم يلتفت من خطاب الشرق إلى الغرب ليخاطبه على هذا النحو قائلاً :

« رعاك الله يا غرب وحياتك وبياك . قد عرفت لأننيك سابق فضلـه عليك ،
فوقـيت وكـفيـت ، وأـحسـنـت الـوـصـيـاـةـ وـهـدـيـت ، وـقـدـ اـشـتـدـ سـاعـدـ بـعـضـ أـوـلـادـ

أنيك ، فهلا ينتدب بعض شيوخ أحرارك لإعانته أنجذب أنيك على هدم ذاك السور ، سور الشؤم والسرور ، ليخرجوا باخواتهم إلى أرض الحياة ، أرض الأنبياء المداة .

«يا غرب ! لا يحفظ الدين غير الشرق إن دامت حياته بمحريته ، وفقد الدين يهدلك بالخراب القريب ..»

ولم يكن أسلوب المنبر ليسعده في جميع الأحوال لأنه أسلوب لم يخلق له ولم يطبع عليه ، ولكنه كان يكتب أحياناً ويحس أنه يثور ثورة الخطيب فيعد تارة إلى أسلوب التوكيد والتثبيت ، ويعمد تارة أخرى إلى أسلوب التصوير وتحريف الخيال ، ولا يخطئه التوفيق أحياناً في هذا الأسلوب .

ومن ذلك قوله : «المستبد عدو الحق ، عدو الحرية . . . والحق أبو البشر والحرية أمهم ، والعوام صبية أيتام ، نيام » .

أو قوله : «لو كان المستبد طيراً لكان خفشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ، ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في ظلام الليل . . .»

أو قوله : «الاستبداد لو كان رجلاً يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر ، وأبى الظلم ، وأمى الإساءة ، وأخي الغدر ، وأختي المسكنة ، وعمي الفسق ، وحالى الذل ، وابنى الفقر ، وبنتي البطالة ، وعشيرتي الجهالة ، ووطني الخراب . أما ديني وشرف وحياتي فالمال المال المال . . .»

أو كقوله : «إنه المترنك الذي .. قل في البشر من لا يجول فيه على فيل من الفكر ، أو على جمل من الجهل ، أو على فرس من الفراسة ، أو على حمار من الحق ، حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار المتطلع في التدقيق مراكب البخار » .

ومن توكيدهاته الخطابية ما يجري فيه على مثل قوله : «الاستبداد أشد وطأة من الوباء . أعظم تخريباً من السيل . أذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بالنفوس سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي القضاء القضاء ، والأرض تناجي ربه بكشف البلاء» .

ومنها ما يجري فيه على التوكيد بالتكرار كقوله عن التعاون : « به قيام كل شيء ماعدا الله وحده . به قيام الأجرام السماوية . به قوام كل حياة . به قيام المواليد . به قيام الأجناس والأنواع . به قيام الأمم والقبائل . به قيام العائلات . به تعاون الأعضاء . نعم ؛ الاشتراك فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع . فيه سر الاستمرار على الأعمال التي لاتنفي بها أعمار الأفراد » .

ومنه ما يجري فيه على التوكيد بمثل هذا التكرار : « يجدر دون النظر في الدين نظر من لا يحمل بغير الحق الصريح . نظر من لا يضمم النتائج بتشويش المقدمات . نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة . نظر من يريد وجه ربه لا استهالة الناس إليه » .

وتناهى عند قوله إن المصلح ينبغي أن ينظر في الأمور « نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة ، ونظر من يريد وجه ربه لا استهالة الناس إليه » .. فانه قد أودع هذه الكلمة روح هذا الأسلوب الفصيح بمقاصده البين وصمود صاحبها على هذا المقصود طوال حياته . بل أودعه في الحق روح كل أسلوب يؤدي للقارئ من وراء الجمل والمفردات فوق ما تؤديه ألفاظه ومعانيه ، فان إخوان الكواكب الدين عاشروه وألفوا الاستماع إليه وقراءته معًا يقولون لهم كانوا يؤمدون بشيء واحد من حديث لسانه كما يؤمدون به من حديث قلمه كانوا يؤمدون قبل كل شيء بآيمان المتكلم يفكرون وشعوره ببداهة دعوته وصدق رغبته في إقناع غيره بما هو مقتضى بضرورته لعامة قومه ، وأسلوبه في الحديث وأسلوبه في الكتابة متقاربان متعادلان لا يقع بينهما من الاختلاف إلا أن يكون اختلاف القائل المرسل بين الناس والقائل المحتفل على هيئة بيته وبين نفسه ، وعلى هذا الوجه يصبح أن يعتبر أسلوب الكواكب نمطاً من أنماط الحديث الخطابي او الخطابة المكتوبة ، على الطريقة التي تنسى للمتحدث المطبوع وإن لم يكن في المحافل من الخطباء المطبوعين .



ولا شك أن الكواكب قد حظوا كل وسيلة من وسائل التعبير لإبلاغ دعوته « إظهاراً للحقيقة لا إظهاراً للفصاحة » . فانه قد علاج نظم الشعر وأثبت في أم

القرى بعض منظوماته في شبابه ، فافتتح الكتاب بأحدى القصائد يقول منها :

دراك فان الدين قد زال عزه
فكان له أهل يوفون حقه
بهدى وتلقين وحسن تلقن
باهماله اثمن على كل مؤمن
ولا تقنطوا من روح رب مهيمن
فان الذى شادته الاسياف قبلكم

واختتم الكتاب بقصيدة أخرى يقول منها :

غير الله عنكم سايع النعم
وأهملها مصلحون في شؤونهم
بدون إشراث أحياه ولا رم
رجعي إلى دين أسلاف ذوى هم
فاسعوا لنهضتكم يا خيرة الأمم
شئ الخلاائق من عرب ومن عجم
حضراء سوداء حول الركن والحرم

غيرتمو يا حيارى ما بأنفسكم
الله لا يهلك القرى إذا كفرت
يا قومنا صاحبوا توحيد بارئكم
ونقحو الشع من حشو ومحترع
هذى وسائلكم لا غيرها أبداً
سياسة الدين أول ما تساس به
فيها الحياة وفيها حفظ رايكم

ولم نقرأ له نظماً غير هاتين القصيدتين ، وهما — كما يرى القارئ — من الشعر الذي يوصي بأنه شعر العلماء ، لعله حاوله زماناً ولم يجد فيه بغيته من نشر الدعوة وتنبيه النفوس والأذهان ، فعدل عنه وارتضى لدعوته أوقن الأساليب لها وهو أسلوب المواجهة الخطابية على منبر الصحافة كما صنع في كتابه طبائع الاستبداد؛ ومثله أسلوب الفصول التي يكتبها كلّها خطب ألقاها المتكلمون وتعاقبوا على إلقاها والخوار فيها كما يتعاقب المقاوضون في مؤتمر الحاضرة .

إن الكواكبى لقدير على أن يجد نفسه حيث يريد لها — كما يقول الغربيون في تعبيراتهم — فلم يبحث طويلاً حتى وجده ، ولم يبحث طويلاً بعد أن وجد دعوته حتى وجد أسلوبه ، وهو أسلوب الكاتب الذى يواجه القراء كما يواجه المستمعين .

المؤلف

توفر الكواكبى على قضيتين اثنتين لم يشغله زمناً طويلاً بقضية غيرها ،
وهما قضية البحث فى أسباب تأخر الأمم - ولا سيما أمم العالم الإسلامي ،
وقضية البحث فى عوامل الاستبداد فى حكم الدول ، ولا سيما الدولة العثمانية .

وأودع زبدة آرائه عن قضية العالم الإسلامي فى كتابه « جمعية أم القرى » .
وأودع زبدة آرائه عن الحكم والاستبداد فى كتابه « طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد » .

فهو قد استوفى رسالة التأليف فى كلتا القضيتين اللتين تبعد لها طوال حياته
فلا بقية من هذه الرسالة إلا أن تكون بقية الشرح والتفصيل . . . أما لباب
الرسالة وغايتها فقد استوفاها الكتابان .

ونعلم من أقوال مترجميه العارفين به أنه وضع كتاباً سماه « صحائف قريش »
وكتاباً آخر سماه « العظمة لله » وترك ديواناً من الشعر لم تبق منه غير كناشة
من القصائد في الحكمة والنسب وأغراض المدح والرثاء والمجاهد تزيد أبياتها
على ثلاثة آلاف .

أما « صحائف قريش » فهو تذليل لكتابه الأول (أم القرى) تضمن
على ما يظهر نخبة من فصول الصحيفة الدورية التي أشار في الكتاب إلى اتفاق
الجمعية على إصدارها ، وقد أوصى المؤلف قراءه أن ينتظروها ويحفظوها :
« فمن يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرس على إشعاعته بين الموحدين ،
وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ما سيتلوه من نشيريات الجمعية باسم صحائف
قريش التي سيكون لها شأن إن شاء الله في النهضة الإسلامية والأخلاقية » .

ولم يطلع أحد من زملائه في القاهرة على هذه « النشيريات » ولا ورد

من أخباره فيها أنه طبع صحيفه منها حيث كان يطبع كتبه ورسائله ، ولكن ابنه الدكتور محمد أسعد يقول في مجلة الحديث إن الكتاب كان معداً للطبع « ولكن حال دون ذلك سياحته الطويلة المذكورة في غير هذا المكان ، ثم وقوع الوفاة الفجائية ، فصودر مع الأوراق المصادرية وأرسل هدية إلى السلطان فلم أثر له على أثر » .

أما كتاب « العظمة الله » فهو كتاب سياسي « كسائر ما خططته يمينه » على قول الأستاذ محمد كرد على في الجزء الثاني من مذكراته ، وهو يقول قبل ذلك في هذه المذكرات : « الغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكب وأراد القضاء على أفكاره المضرة فأرسل مدير معارف بيروت - عبد القادر القباني - يأخذ أوراقه ويرضى أسرته بمبلغ من المال ، فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكب المطبوعة ، أما الخطوطية فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التي بدأ وضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته واسمه العظمة الله ... »

والذى نرجحه ونستدل من عنوان الكتاب عليه أنه إضافة إلى طبائع الاستبداد ينكر فيها على المستبدین تطاولهم إلى مشاركة الله في عظمته وينكر فيها على الخانعين من رعاياهم خضوعهم لتلك الناظمة ، ولا تخاله قد ذهب فيها شوطاً بعيداً وراء المقدمة التي أطلع عليها صديقه كرد على ، لأنه لم يطلعه على شيء بعدها مع ملازمته لياه إلى يوم وفاته .

أما الديوان فن أمثلته ما أشرنا إليه في الكلام على أسلوبه وهو يعيد فيه - نظماً - بعض ما كتبه ثراراً في « أم القرى » ، وطريقته فيه طريقة العلماء في منظوماتهم التي يخاطبون بها نظراهم مخاطبة العارف للعارف ولا تردد لخطاب قراء الشعر عامة ، لأنها « مفهومات » لا تبلغ قراءها من جانب التخيل واستجاشة الشعور .

ويختصر لنا أنه في مدحه وهجائه أراد أن يستعين بالنظم على استهلاه أمراء الجزيرة العربية الذين زارهم في رحلته إلى المشرق ، وأنه وقف هجاءه على الذين استحقوا نقده في كتابيه ثم استحقوا في صفتهم الشخصية نقداً غير نقد المبادئ والآراء .

وإن ضياع هذه الأوراق – بعثورها ومنظومها – خسارة تاريخية يأسف لها قراوه ومتربجه ، ولكن الخسارة فيها قدر أهون من قدر كما يقال في مقام السلوى لكل مصيبة لاحيلة لها . فانها من الخسائر التي تعيش على كراهتها ، وعوضها أن يسلم الكتابان اللذان أودعهما صحفة التجارب والدراسات من بوأكير شبابه إلى ما قبل وفاته ، وبادر إلى نشرهما بعد تردد منه في نسبتهما إليه ، وما كانا ليسلمما من مصير كمير تلك الأوراق المفقودة لو لم يبادر إلى طبعهما قبل أن ينقضى عليه عام في القاهرة ، وقبل أن تشغله عنهما رحلاته التي لا يملك فيها موعد ذهاب ولا موعد إياب .

الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية

قبل أن ننتقل من الكلام على المؤلف إلى الكلام على مؤلفاته نبدأ القول
ببيان الموقف الذي أوحى إليه اختيار موضوعه في تلك المؤلفات ، بل أوحى
إليه اختيار رسالة في الحياة ، وهو موقفه بين قضية الاستقلال وقضية الجامعية
الإسلامية ، وكيف اتفق له الإيمان بالإصلاح الديني ، والإصلاح الوطني
في وقت واحد .

لقد فتح عينيه على المسائل العامة في إثبات المشكلة الشرقية بين حوادث جبل لبنان وحوادث أرمينية ، وأوفى على الكهولة في إثبات حركة الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية التي أبتعثها السلطان عبد الحميد الثاني .

وكلتا الحركتين - الجامعية والخلافة - كثيرة الشعب متaramية الأطراف ،
يبلغ من تشبعها ان يرى فيها الرأيان المتناقضان وكلاهما من وحي الإخلاص
والغيرة على الوطن وعلى الدين .

فكان من دعاء الإصلاح من يرى أن الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة الإسلامية الكبرى هي القوة التي بقيت لأمّ الإسلام في عصر الأضياع ، وقد أعزّتها قوّة المال والعتاد وقوّة العلم والصناعة وقوّة السياسة والسيطرة الدوليّة ، فلا أقلّ من قوّة التضامن والاتحاد .

وكان في تلك الوجوه المشعبة أن الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية تحمل هذه الدولة تبعات المشاكل والأزمات التي تعرض لها شعوب الإسلام في الشرق والغرب ، وينتشر فيها في ضعفها واضطراب أحوالها أن تنوع بها فلا هي تتفق شعوب الإسلام بمجهودها ولا هي تنجو بنفسها من عواقب ذلك المهدود .

ومن وجوه هذه القضية المتشعبه أن الإطناب في لقب الخلافة يضفي على صاحب ذلك اللقب قداسة تحميء من نقد الناقدين ومتآخذ طلاب الإصلاح ،

وتؤخر أعمال الإصلاح التي يرجى منها الخير للدولة العثمانية ، وقد تؤخرها على سبيل القدوة في مصير بلاد المسلمين .

ومن وجوهها المتشعب أنها تخرج الشعوب التي تطالب بحقوقها في ظل الحكم التركي ، فلا تدرى كيف تقدم أو تخجم بين رعاية حقوقها وبين العمل بما تقتضيه علاقتها بالخلافة وبالجامعة الإسلامية .

وليس من وجوهها الضعيفة أن إعلان الجامعة الإسلامية في العالم يعزز نشاط الحزب المتعصب وأحزاب التبشير بين الغربيين ويقوى حجتهم في مناهضة الأحزاب السياسية التي ترمي إلى فصل السياسة عن الدين ، بل يقوى حجة المستعمرين الذين يتلمسون النраيغ لغزو البلاد الشرقية ويتفقون هذه الترغبات لترويج مطامعهم كلما أعزتهم ذرائع السياسة .

هذه طائفة من تلك الوجوه المتشعب التي يتوجه لها أنصار الجامعة وخصومها ، ومصدر هذا التشجب أنها مسألة واحدة تجمع في طيها ثلاث مسائل كبرى ، كل منها مزدحم مكظوظ بالخلفايا والنقائص والعراقيل .

فهي في الواقع مسألة الدولة العثمانية ومسألة الخلافة ومسألة الجامعة ، وكل منها مسائل شتى تتفرق في كل وجهة ، ولا يجمع بينها غير العنوان .

مسألة الدولة العثمانية هي مسألة البلقان الذي سبى بحق « مخزن البارود » وهي المسألة الأرمنية والمسألة الطورانية ، ومسألة الشعوب التي يحكمها الترك ولا تتكلم التركية ولا تنتمي إلى سلالتهم بين عناصر الأجناس .

ومسألة الخلافة هي مسألة الإمامة عند الشيعة وأهل السنة ، ومسألة الولاية الشرعية بحق الإرث والعصبية أو بحق الشوكة والسلطان القائم ، حيث قام من بلاد المسلمين .

ومسألة الجامعة تفتح أبواب الجامعة السياسية والجامعة الروحية وما إليها من جامعات التعاهد والاتفاق على شئون الثقافة والمعاملات .

ولا يفتح القمع المغلق حتى يخرج منه ، الرصد الهائل منتشرًا من محبسه يضيق به الفضاء . وإنما اضطر عبد الحميد إلى فتح القمع لأنه حيلة من لا حيلة له سواه .

كان يسمع بأذنيه — كما يسمع العالم كله — اسم دولته الدائمة عند أعدائه المتربيين بها في القارة الأوربية بلا اختلاف بين قادر منهم وعجز وبين مستعمر منهم ومبتدئ في صناعة الاستعمار ، يتعلق بتصنيف له يفرضه من ذلك الملك المباح .

كان اسم « الترك » أو تركة الرجل المريض عنوانا على البلاد العثمانية ، أيا كان ساكنها من مسلمين أو غير مسلمين ، ومن ترك أو عرب ، ومن أوربيين أو آسيويين أو أفريقيين .

كانت « جامعة » في الحق يجمعها الطمع من أشتات الطامعين ، وليس بينها من وحدة قط في رأى أولئك الطامعين إلا أنها تهالك إلى حين ، في طريق التفرق والزوال .

وكان لابد له من جامعة باقية لا يزيلاها عمل إنسان ، ولكنها قد تنشط بعمل إنسان يؤيده الله . وتلك هي جامعة الإسلام بولاية خليفة المسلمين .

وليس عبد الحميد أول من تلقب بالخلافة من سلاطين آل عثمان ، ولكنه كان أول من وضعها هذا الوضع الحاسم في معركة السياسة العالمية والسياسة الداخلية ، وأول من جعلها مسألة حياة أو موت في تاريخ الدولة التركية .

أما قبل عصر عبد الحميد فقد كان للترك عامة موقف من مسألة الخلافة غير هذا الموقف ، سواء منهم الترك العثمانيون والترك السلاجقويون ، والشعوب التي غلب عليها اسم الترك في الدولة الإسلامية وليس منهم ، كالدليم والشراكسة .

فقد تمكّن رؤساء الترك من زمام الخلافة في عهود كثيرة ولكنهم تهيبوها ولم يتقدموها لادعائها ولعلهم لم يجدوا السبيل إلى ادعاء حقوقها التي كانت مقصورة على الأمة العربية ، ينتهي بها أناس إلى أهل البيت النبوى ويتوسع آناس آخرون فيجعلونها عربية قرشية ، ومن الشعوب الإسلامية غير العربية من كان يحصرها بين أهل البيت في أبناء على وفاطمة رضوان الله عليهمَا ، فلا يحيّزها لبني العباس ولا يعترف لهم بحقوقها إلا اجتناباً للفتنة ورعايا للضرورة والتقية .

وجرى العرف نحو ثلاثة قرون على وحدة الخلافة في العالم الإسلامي ، فمن نازع فيها فانما ينazuء فيها لأنه أحق بها على دعواه حسب الشروط التي يشرطها

في مذهبها لصحة الإمامة، فيذهب خليفة ويأتي بعده خليفة ولا تستقر الخلافة في وقت واحد لاثنين بحجة واحدة . وقد حدث أن الأمويين أقاموا لهم دولة بالأندلس فلم يعلنوا خلافتهم على الأمم الإسلامية مع خلافة بنى العباس ببغداد ، ولم ينطر عبد الرحمن الناصر أن يتلقب بلقب أمير المؤمنين (٣٥٠ - ٣٠٠ هـ) إلا بعد قيام الدولة الفاطمية على مقربة منه في المغرب ومتاداة أمراءها لأنفسهم بالخلافة ولم يعارضهم الأمويون يومئذ إلا بتكذيب نسبتهم إلى النبي عليه السلام ، بل تصدى لهم من أمراء الموحدين من يتنسب إلى النبي ليغازلهم الحق في إمارة المؤمنين .

وبعد قيام الدولة الفاطمية أصبح في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء، بين منتنسب إلى النبي ومنتنسب إلى قريش ، وكلاهم في نسبتهم العامة عرب قرشيون .

فلياً كثراً الجند من الترك في عاصمة الخلافة العباسية ملك قادتهم زمام الدولة وبسطوا نفوذهم في قصر الخلافة، وصار كل من في القصر تبعاً لهم مطيناً لأمرهم ، بين حراري وماليلك وجوار وخدم وعيون وأرصاد ، وانفرد الخليفة وحده بمقام الخلافة وليس له منها غير الاسم والخاتم وخطبة الجمعة في المساجد ، وتهيأت للقادة من الترك فرصه المتاداة لأنفسهم بالخلافة في بغداد لو لا أنهم علموا أنهم يقيمونها على غير أساس من الدعوى الشرعية ، وأنهم لا يطمئنون إلى ولاء رعاياهم من الترك أنفسهم إذا اغتصبواها بغير حجة من الشعور والسنن المأثورة . فقسمى أولئك القادة باسم السلاطين وجعلوا يتقدلون مناصبهم في الدولة بتغويض من الخليفة صاحب الحق الشرعي في التنصيب والعزل والتغويض ، وكان بعضهم يستبيح ضرب السكة باسمه كما فعل طغرل بك السلجوقى وزير القائم بأمر الله العباسى ، لأنه تولى أمور المعاش و«الإدارة» بتغويض من صاحب الصفة الدينية ، وهى الأمور التي يتولاها صاحب الشوكة و«السلطان» .

وما يدل على رسوخ الإيمان بشروط الخلافة بين أمم المشرق الإسلامية أن رؤساء الدول التى قامت فيه تجنبوا لقب الخليفة أو أمير المؤمنين واكتفوا بلقب السلطان أو الأمير أو النظام أو الشاه ، ولم يشد عن هذه القاعدة ملوك إيران من الشيعة لأنهم يدينون بالإمامية لغير الملك صاحب العرش ، وإنما يكون الملك نائباً عن الإمام محمد المنتظر إلى موعد أوبته في آخر الزمان .

وعلى هذا انفق العرف في المشرق على اجتناب لقب الخلافة بغير شروطها، وجرى العرف على ذلك في مصر بعد زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، فان ولاة الأمر من الأيوبين – ومنهم صلاح الدين العظيم – كانوا يتلقبون بالقاب الملوك والسلطانين ويحفظون شارة الخلافة لوريثها من الفاطميين إلى أن يبايعوا بها خليفة بغداد على مذهب أهل السنة الذي يدين به بنو أيوب ، وعادت الخلافة وظيفة موحدة في العالم الإسلامي بعد زوال الدولتين الفاطمية والأندلسية ، فانفرد بها خليفة بغداد ، وإن لم يبق له منها – كما تقدم – غير الخاتم والعنوان .

ثم قضى « هلاكو » على آخر بنى العباس وقام في مصر دولة المماليك الشراكسة فلم يقدم أحد منهم على ادعاء الخلافة بل عمد أقوامه وأشجعهم الظاهر بيبرس إلى الخليفة لإحياء لقب الخلافة وإسنادها إلى صاحب صفة شرعية من المنتسين إلى بيتهما العريقة ، فجاء برجل مجهول زعم أنه من ذرية بنى العباس وأشهد على ذلك شاهدين مجهولين في قضية علنية بمحضر كبير القضاة ، ثم يويع هذا الرجل المجهول بالخلافة وتوارثها منه بنوه إلى عهد السلطان سليم العثماني الذي تلقى البيعة من آخرهم بالخلافة وعزز هذه البيعة بلقب « خادم الحرمين » .

* * *

وقد كان سلاطين المماليك في مصر يستفيدون من إقامة « الخليفة العباسي » بينهم حجة يقاولون بها خصومهم أصحاب الإمارات والممالك الإسلامية الأخرى فيقاومونهم أو يغزون عليهم مفوضين بالقتال من صاحب الصفة الشرعية ، وكان أقوى أولئك الخصوم سلاطين آل عثمان في بلاد الروم وما جاورها على مقربة من حدود البلاد المصرية ، وهم السلاطين الذين تلقبوا بلقب « الغزاوة » وجعلوه بدليلا من لقب الخليفة الذي لا يقدرون عليه . فلما فتح السلطان سليم مصر وقضى فيها على دولة المماليك لم يكن يعنيه على ما يظهر من بيعة « الخليفة العباسي » إلا أن يتقدّم تفويفه لأحد غيره من الأمراء المسلمين بحجّة شرعية لقتاله ، فانتزع منه صفة الخلافة ليسقط كل حجة تحيّز عصيائه أو إعلان الحرب عليه ، وهو السلطان المعترف له بمقام « الغازى أمير المؤمنين » .

على أنه سواءً كان هذا كل قصده من بيعة الخليفة العباسى أو كان له مطعم آخر من تأسيس الخلافة العثمانية—لقد وقفت المسألة عند هذا الحد في عهده وعهود خلفائه ، فلم يحاولوا أن يفرضوا بها فريضة جديدة في صفة الإمام أو شروط الإمامة ، ولم يتخلوا منها مذهبًا جديداً لتقدير حقوق الملك وحقوق الخليفة الشرعية للتمييز بين هذه الحقوق أو لتوحيدها والتوفيق بينها . وسكت شيوخ الإسلام في القسطنطينية عن بحث هذه المسألة من الوجهة الفقهية حتى لامهم الكاتب الترك المستعرب «حسن حسني الطويراني» (١٨٥٠ - ١٨٩٧) على إغفاله و قال في رسالته عن إجمال الكلام على مسألة الخلافة بين أهل الإسلام: «إن رأى الجمهور الجارى على لسان علماء المسلمين أهل السنة والمدون في كتب المعتقدات التي تدرس في العواصم كنفس القسطنطينية العظمى ومصر ومكة والشام وبغداد وغيرها أن الأئمة من قريش ، حتى إن حضرة صاحب الدولة والفضيلة عمر لطفي أفندي شيخ الإسلام السابق لما كتب حاشيته على العقائد النسفية لم يكتب شيئاً بالسلب أو الإيجاب على مسألة الأئمة من قريش واختار التوقف

وكل ما ذكره هذا الباحث المطلع عن استخدام سلاطين العثمانيين لصفة الخلافة «أن المرحوم مصطفى باشا العلمدار الشهير لما رأى أن المملكة العثمانية قد أخذت تنكمش من أطرافها على التقى من انبساط قوة أوربا وتقدمها وتبين أن القوة قد ابتدأت تخدمها في مقاصدها اغتنم فرصة ليقاع البيعة للمرحوم الغازى السلطان محمود خان سنة ١٢٢٣ هجرية فبائع له وشرط شروطاً بين الخليفة وبين أمراء الأطراف في الروملي ، فكان على مقام السلطنة أن يعمل بالشريعة وألا يقتل أحداً أو يصدر مال أحد إلا بوجه شرعى وعلى الأمراء السمع والطاعة وأن كلهم تحت التكافل . وأشهد على ذلك العهدشيخ الإسلام وعموم الرجال وتم الوفاق على تأييد الأمن العمومي والشرع العادل وعادت وفود النساء إلى بلادهن

قال : « ولما رأى رشيد باشا الكبير أن لا سبيل للإصلاح إلا بعهد يناسب الزمان اغتنم فرصة جلوس السلطان الغازى عبد الحميد خان وأصدر منه الخط الشريف المعروف بخط كل خاتمة وفيه قرر ذات الخليفة رفع قوانين المصادرة

وأوجب العمل بالشرع وعدم سفك الدماء بلا حق ورأى تنظيم النظمات والقوانين المطابقة لأحوال الشريعة . ولكن علم رشيد باشا أن هذا العهد لا يزيد على العهد الذى استحصل عليه مصطفى باشا العلمدار الشهيد من قبل ولم تغرن عنه الجامعة العثمانية ، فأحب أن يؤمن على مشروعه فحصل على قيد في ذلك الخط الشريف ألا وهو إشهاد الدول على هذا المشروع وصرح بذلك في الخط الشريف فهد للدول بهذا العمل مبادئ مسوغات التداخل الأجنبي بدعوى التأمين على الحقوق والأرواح . فتفع من جهة وأضر من جهة أخرى » ..

ويفهم من كلام الطويراني بعد ذلك أن سياسة السلطان العثماني كانت تتراوح في عصره بين وجهتين : وجهة الخلافة ووجهة الملك على نظامه الحديث في البلاد الأوربية ، لعله يدفع عنه غائمة التعصب الأوروبي بمحاراة العصر في نظمته السياسية .

قال المؤلف الذى يبدو من سيرته ومن أقواله أنه كان على معرفة بمجرى السياسة العليا في زمانه : « ثم رأى العثمانيون رأيا آخر بعد ثمانى وعشرين سنة واحتجو بأن احتياجات الدولة تضطرها إلى مبدأ مدنى يكفى لمقابلة التزاحم السياسى ، وهنالك صدر القانون الأساسى مصدقاً عليه من جلاله مولانا السلطان الأعظم وانعقد بمقتضاه مجلس الأمة مدة ثم رفأ أنه غير مناسب للحال فلم يجتمع بعدها . أما أعضاء مجلس الأعيان فلا يزالون موظفين وإن لم يجتمعوا . لكن لما كان إلغاؤها مخلا بالقانون الأساسى العثماني لم يلغها بالكلية ولم تزل القوانين موقتة ينتظر الحكم عليها بالدائم إلى ما بعد عرضها على المجلسين إن اقتضت الحكمة إعادةهما » ..

وظلت حالة التردد بين وجهة الخلافة ووجهة الملك على هذا النحو الملتبس حتى نشطت دعوة الخلافة ونشطت معها دعوة الجامعة الإسلامية في وقت واحد بعد ولاية عبد الحميد بسنوات قليلة وعلى أثر انعقاد مؤتمر برلين وافتتاح مؤامرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع بلاد الدولة العثمانية من سيادتها بغير فارق بين الإسلامية منها وغير الإسلامية .

ولا خفاء بمقصد السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية باسم الخلافة العثمانية ، فما كان لثله في حصافته ودهائه أن يطمع في سيادة فعلية

على بلاد المسلمين باسم جامعة الإسلام، فإن أهون ما في هذا الطمع من الخطوب
الجسام يوقعه في حروب لا طاقة له بها مع عصبة المستعمرات التي تحكم كثيراً
من بلاد الإسلام أو تتطلع إلى امتلاكها ، وقد يوقعه هذا الطمع في حروب مع
الأمم الإسلامية التي لا تزال على شيء من الاستقلال ولو كانت في ظل سيادته
العامة ، وهي السيادة «الاسمية» التي كانت تربط بعض الأمم بدولة آل عمان
منذ فتوحها الأولى .

فغاية الأمر فيها قصد إلـيـهـ السـلـطـانـ عبدـ الـحـمـيدـ منـ دـعـوـتـهـ إـلـىـ الجـامـعـةـ الإـسـلامـيـةـ
بـاسـمـ الـخـلـافـةـ أـنـ يـحـتـمـيـ بـعـطـفـ الـعـالـمـ الإـسـلامـيـ فـ وـجـهـ التـعـصـبـ الـأـورـيـ المـطـبـقـ .
عـلـيـهـ مـنـ كـلـ جـانـبـ ، وـأـنـ يـسـتـمـعـ الـعـالـمـ الإـسـلامـيـ إـلـيـهـ حـينـ يـنـادـيهـ بـتـلـكـ الصـفـةـ
لـأـنـهـ أـكـبـرـ وـلـاـةـ الـأـمـرـ فـيـهـ وـأـعـظـمـهـ مـرـكـزـآـ فـيـ مـرـاسـمـ السـيـاسـةـ الدـولـيـةـ ، وـلـمـ يـكـنـ
يـحـتـمـيـ عـلـيـهـ أـنـ الـعـالـمـ الإـسـلامـيـ لـاـ يـقـارـعـ الـمـسـتـعـمـرـيـنـ سـلـاحـاـ بـسـلاحـ وـلـاـ ثـرـوـةـ بـثـرـوـةـ
وـلـاـ نـفـوذـ ، وـلـكـنـهـ كـانـ يـقـنـعـ مـنـهـ بـمـاـ يـسـتـطـعـهـ فـيـ كـفـاحـ الـاستـعـمـارـ وـيـعـلمـ
أـنـهـ يـسـتـطـعـ الـكـثـيرـ مـاـ يـخـشـاهـ الـمـسـتـعـمـرـوـنـ ، وـبـعـضـ هـذـاـ الـكـثـيرـ الـمـخـشـىـ أـنـ يـقـلـقـ
حـكـومـاتـهـ وـشـرـكـاتـهـ وـيـقـاطـعـ مـتـاجـرـهـ وـيـدـخـلـ بـيـنـهـ بـالـتـأـيـيدـ وـالـخـدـلـانـ
فـيـ خـصـوـمـاتـهـ وـيـشـيرـ عـلـيـهـ رـعـاـيـاهـ الـمـتـمـرـدـيـنـ مـنـ يـسـتـثـارـوـنـ بـاسـمـ الـخـرـيـةـ وـالـمـبـادـيـعـ
الـدـيمـقـراـطـيـةـ وـيـجـدـونـ فـيـ الـعـمـلـ عـلـىـ التـفـرـقـةـ بـيـنـ شـتـوـنـ الـدـينـ وـشـتـوـنـ السـيـاسـةـ ،
وـقـدـ كـانـ لـلـسـلـطـانـ عبدـ الـحـمـيدـ خـبـرـةـ بـهـذـاـ الفـنـ مـنـ فـنـوـنـ الدـعـاـيـةـ شـهـدـ بـهـ الغـرـيـبوـنـ
وـالـشـرـقـيـوـنـ ، وـبـلـغـ مـنـ خـبـرـتـهـ بـهـ أـنـهـ كـانـ يـسـتـخـدـمـهـ لـتـأـلـيـبـ فـرـيقـ مـنـ رـعـاـيـاهـ
عـلـىـ فـرـيقـ وـتـنـفـيرـ طـلـابـ الإـصـلـاحـ أـنـفـسـهـمـ مـنـ يـحـرجـوـنـهـ بـطـلـبـ الإـصـلـاحـ عـلـىـ
غـيـرـ هـوـاهـ .

وـعـرـفـ دـعـاـةـ الجـامـعـةـ الإـسـلامـيـةـ جـمـيعـاـ غـاـيـةـ مـاـ يـرـادـ مـنـ هـذـهـ الدـعـوـةـ بـاسـمـ الـخـلـافـةـ
الـعـلـيـةـ أـوـ بـاسـمـ الإـسـلامـ عـلـىـ التـعـيمـ .

فالـسـيـدـ جـالـ الدـينـ الـأـفـغـانـيـ – أـكـبـرـ دـعـاـةـ الجـامـعـةـ فـيـ عـصـرـهـ – يـصـرـحـ بـغـاـيـةـ
الـجـامـعـةـ الـتـىـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ فـيـقـولـ مـنـ رـسـالـةـ عـنـ الـوـحـدـةـ الإـسـلامـيـةـ :
« لـاـ أـنـتـسـ بـقـولـ هـذـاـ أـنـ يـكـونـ مـالـكـ الـأـمـرـ فـيـ الـجـمـيعـ شـخـصـاـ وـاحـدـاـ ،
فـانـ هـذـاـ رـبـماـ كـانـ أـمـرـاـ عـسـيـراـ ، وـلـكـنـ أـرـجـوـ أـنـ يـكـونـ سـلـطـانـ جـمـيعـهـ الـقـرـآنـ ،
وـوـجـهـةـ وـحدـتـهـمـ الـدـينـ ، وـكـلـ ذـيـ مـلـكـ عـلـىـ مـلـكـهـ يـسـعـيـ بـجـهـدـهـ لـحـفـظـ الـآـخـرـ

ما استطاع . فان حياته ب حياته وبقاءه ببقاءه . إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات .

« هذا أوان الانفاق . ألا إن الزمان يؤتكم بالفرص وهي لكم غنائم . فلا تفرطوا ... إن البكاء لا يحيي الميت . إن الأسف لا يرد الفائت . إن الحزن لا يدفع المصيبة . إن العمل مفتاح النجاح ... » .

ولما ضرب المثل بملوك الإسلام الذين يقتدى بهم في حفظ خوزته ودفع أعدائه لم يقصر كلامه على الخلفاء منهم بل عدد من ملوكهم طائفنة من أمثال « محمود الغزنوی وملكشاه السلجوقى وصلاح الدين الأيوبى ... » عدا السلاطين العثمانيين الذين لم يتلقبوا بلقب الخليفة .

وربما كان الأمير شبيب أرسلان أشهر الدعاة إلى الجامعات الإسلامية باسم الخليفة العثماني . فانه عاش بين القدسية وعواصم الغرب زمناً في خدمة هذه الجامعات ، وهو مع ذلك يقول في تعقيبه على فصل الجامعات الإسلامية من كتاب حاضر العالم الإسلامي : « إن الخليفة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فان الخليفة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض الخالف لشروط الخليفة سواء كان من العرب أو من الترك إلا خشية الفتنة في الداخل والا عنداء على الحوزة من الخارج » .

وكان الأمير شبيب يستوجب هذه الدعوة وهو لا يجهل أحوال السلطان عبد الحميد ، بل يقول عنه من تعليقاته على الترك في تاريخ ابن خلدون : « وفي زمن السلطان عبد الحميد ساءت الأحوال في مقدونية . لأن السلطان كان أكثر همه في الحافظة على شخصه ، وكان شديد التحيل إلى درجة الوسوس . فاستكثر من الجواسيس وصار بأيديهم - تقريراً - الحال والعقد » .

ثُم يقول : « وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرى أكثرها ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس أثقلت الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم وأصبح الناس

تبالغ في الروايات عن الجوايس فساعت سمعة الحكومة وسخط الرأى العام
على هذه الحالة . . .

* * *

على أن الجامعة الإسلامية—بغايتها التي أحلناها فيها تقدم—ليست من المسائل التي تسمح بالخلاف بين أحد من المسلمين في أرجاء العالم على حقها وعلى صوابها في شرعة الدين أو الخلق . وإنما يعرض لها الخلاف — بل يشتد — حين ترتبط بمسألة الخلافة العثمانية وحين تنطوى هذه الخلافة على معنى السيادة والتبعية في الحكومة .

فانخلافة على هذه الصفة يرفضها القائلون بامامة قريش ويرفضها الداعون إلى استقلال العرب بسيادة الحكم ، فيضطرون اضطراراً إلى الأخذ بمبدأ الخلافة العربية القرشية ؛ لأنهم إذا سلموا مبدأ الخلافة للشوكة لم يتبرأ لهم ترشيح دولة إسلامية لها من المركز الدولي يومئذ ما كان للدولة العثمانية . . .

ويعتقد الداعون إلى القومية العربية بحق أن الجامعة الإسلامية لا تناقض الدعوة إلى الجامعة العربية ، ولا يلزم في توثيق عرى المسلمين أن تكون جامعتهم وقفاً على خدمة بنى عثمان وأن يكون مستقبل الإسلام مرهوناً بمستقبل دولتهم ، وسعى الأمم الإسلامية في سبيل الحرية والمنعة موقعاً على سياسة تلك الدولة ، بل على سياسة القائمين بالحكم فيها على غير مشيئة المصلحين وطلاب التقدم من أبنائها .

وقد تتصل أناس من الترك أنفسهم من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية في أواخر عهد السلطان عبد الحميد ، لأنهم أرادوا أن يقيموا الحكم في بلادهم على «مبدأ مدنى» كما قال الطويراني فيما تقدم ، وأن يلخصوا حجة المتعصبين من الغربيين كلما شنوا الغارة عليهم باسم الدين أو باسم حماية رعايا الدولة غير المسلمين ، ومن الترك من كان يؤثر الدعوة إلى الجامعة الطورانية على الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وينهش إليهم أنهم قادرون بهذه الوسيلة على تأسيس «اتحاد امبراطوري» يقوده الترك وتشترك فيه الأقوام التابعة للدولة العثمانية على تعدد الملل والأديان .

وَمَا أَعْلَمُهُ فِي هَذَا الصَّدَدِ مِنْ ذَكْرِ يَاقِ الشَّخْصِيَّةِ أَنْ جَمَاعَةً « تَرْكِبَا الْفَتَاهُ »
بَحْثَتْ فِي مِصْرَ بَعْدَ إِعْلَانِ الدُّسْتُورِ الْعُثْمَانِيِّ عَنْ صَحِيفَةِ عَرَبِيَّةٍ تَدَافَعَ عَنْهَا وَتَشَرَّحَ
مَقَاصِدُهَا فَاخْتَارَتْ صَحِيفَةً « الدُّسْتُورُ » الَّتِي كَنْتُ أَكْتَبُ فِيهَا وَكَانَ يَصْدُرُهَا
الْكَاتِبُ الْمُؤْمِنُ التَّزِيَّهُ « مُحَمَّدُ فَرِيدُ وَجْدَى » رَحْمَهُ اللَّهُ ، وَكَانَ فَرِيدُ مِنْ أَشَدِ
الْكُتُبِ فِي مِصْرَ غَيْرَةً عَلَى الْجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، فَأَبَى أَنْ يَجْبِيَهُمْ إِلَى اقْتِراَحِهِمْ
لَا شَرَاطَهُمْ أَنْ تَكُفَّ الصَّحِيفَةُ عَنْ ذَكْرِ الْجَامِعَةِ وَتَرْفَعَ مِنْ صَدْرِهَا أَنْهَا لِسانٌ
حَاطِهَا ، وَقَدْ حَدَثَ هَذَا بَعْدَ وَفَاهُ الْكَوَاكِبِيُّ بِخَمْسِ سَيِّنَوَاتٍ ، وَقَبْلَ هُجُومِ
إِيطَالِيَا عَلَى « طَرَابِلُسَ الْغَرْبِ » وَهُجُومِ النَّمْسَا عَلَى بَلَادِ الْبَشَنَاقِ ، تَنْفِيذًا لِلسيَاسَةِ
الْأُورَبِيَّةِ الَّتِي سَعَواَهَا « بِتَقْسِيمِ تَرْكَةِ الرَّجُلِ الْمَرِيضِ » .

وَبَيْنَ هَذِهِ الدُّعَوَاتِ الْمُتَشَابِكَةِ نَشَأَ الْكَوَاكِبِيُّ وَنَفَذَ بِيَصْرِهِ إِلَى مَا وَرَاءَ الْأَقْنَى
الْمَكْشُوفِ لِمُعاَصِرِهِ ، فَاسْتَطَاعَ — كَمَا سَنَرَى — أَنْ يَخْتَارَ لِلْغَدِ خَيْرَ مَا يَرْتَضِيهِ
الْعَرَبُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِدِينِهِ وَيَعْرُفُ عَقَبَاتَ الطَّرِيقِ إِلَى قَبْلَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَنْظَرُ إِلَى
مُسْتَقْبَلِ الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ نَظَرَةَ الثَّقَةِ وَالْإِيمَانِ .

أم المُتُرِّى

أول كتاب وضعه الكواكبى كما تقدم في التمهيد السابق ، فهو باكورة أعماله القلمية وفاتحة اشتغاله بالتأليف .

أما من ناحية التفكير والتحضير فلا يحسب الكتاب من أعمال البواكير ، لأنه نتيجة ناضجة للدراسة طويلة وصل منها إلى نهاية الرأى في أحوال العالم الإسلامي وأسباب ضعفه ويواعث الأمل في صلاحه وتقديره ، فهو مخصوص حياة فكرية وقفها على هذه الدراسة في جوهرها ، ولم تكن دراساته الأخرى إلا شعاباً متفرعة عليها .

«جمعية أم القرى» اسم أطلقه المؤلف على مؤتمر عام تخيل انعقاده في مكة المكرمة وجمع فيه مندوبين ينوبون عن أمم العالم الإسلامي في المشرق والمغرب يمثلون الهند والصين والأفغان والعراق والهجاز والشام ونجد واليمن ومصر وتونس ومراكش وغيرها من الأقاليم المشتركة بين هذه الأقطار ، وألقى على لسان كل منهم خطاباً يشرح حالة المسلمين كما اختبرها من شئون بلده وما يعلمه عن شئون سائر البلدان الإسلامية ، واجتهد في إتقان صورة المؤتمر السرى بما له من الحاضر المسجلة والرموز المصطلح عليها وعلامات الأرقام التي يتضامن عليها الأعضاء ، لأنه أراد أن يتمس الصورة شكلاً على ما يظهر ، أو أراد أن يوضع في روع القارئ ما يبعث عنده الفقة باجتماع العزم على العمل وقيام المؤمنين على تنفيذه ، إلا أن الثابت من روایة أصدقائه والله أنه ألف الكتاب قبل رحلته إلى مصر وإلى الهجاز ، وتحدث هو عن هذا الكتاب إلى صديقه السيد محمد

رشيد رضا – صاحب المثار – فلم يزد على أن قال إن الجمعية أصلاً وتوسعاً في سجله ، وعاوده غير مرة بالتنقيح والحدف والزيادة .

وفي وسعنا أن نفهم هذا «الأصل» على سبيل الظن من تصفح ألقاب المندوبين في الكتاب. فلابد أن يكون المؤلف قد التقى في بلده بآناس من فضلاء المسلمين الذين يترددون عليه في طريق الحج فذاكرهم في مسائل الدين ومصالح المسلمين وسمع منهم وأسمعهم ما عنده من الآراء والمعلومات في هذه الشئون ، ولا حاجة إلى التوسيع في قراءة المسجلات للتيقن من هذه الحقيقة البديهية ، فإن لحة عابرة إلى الألقاب التي اختارها للمندوبين تشعر القارئ بمعرفة حسنة للأمم التي نسبهم إليها ، يجوز أن تعرف بالسماع والاطلاع ، ولكن لا يجوز أن تكون كلها سماعاً واطلاعاً مع إمكان المقابلة في حلب بيته وبين الواقفين إليها من عامة الأقطار الإسلامية مختلف المقاصد والوجهات ، ومع عناية المؤلف باستيعاب الأخبار والآراء في موضوع كتابه قوله لصديقه إن لها أصلاً توسيع فيه .

انظر مثلاً إلى ألقاب الأستاذ المكي والصاحب المندى والقاضي الشامي والمولى الرومي والمجتهد التبريزى والرياضي السكردى والعالم النجدى والحدث البينى والعلامة المصرى والخطيب الفازانى ، وسائر الألقاب وعنوانين الخطاب التى تخللت المسجلات والخطب على ألسنة هؤلاء الأعضاء .

إن هذه الألقاب لم توضع جزاً ولم يتميز بعضها من بعض لأسباب تتعلق بأفراد المندوبين ولا ينظر فيها إلى خصائص شعوبهم أو إلى السمات العامة التي تبرزهم بين جملة المسلمين ، فإذا جاوزنا الألقاب إلى المسجلات وما وعنه من الآراء والأوصاف والواقع ومناحى التفكير وضعح لنا أن المؤلف قد صدر فيها عن علم واسع بأحوال الشعوب الإسلامية وأحوال السادة المتخصصين فيها للإمامية والفتوى الدينية ، ويجوز كما أسلفنا أن يجتمع هذا العلم للمؤلف بالاطلاع والسماع على الألسنة ، ولكن بعيد عن الظن الذى لا يجوز في حكم العرف والعادة أن يصل إلى حلب قصادها والعابرون بها من أرجاء العالم الإسلامي ولا يتفرق بينهم وبين الكواكب لقاء مقصود أو غير مقصود ، يتطرق فيه الكلام إلى حديث ك الحديث أم القرى كما سجلته محاضر الكتاب .

وغير بعيد أن يكون « الكواكب » قد سمع بعض هذه الآراء واطلع على بعضها ووصل إليها وإلى غيرها باطالة التأمل وإنعام النظر وتقليل المسائل على شئ الوجه ، غير أن هذه الآراء لا تحتوى الكتاب ولا تغنى عنه ، فان الكواكب لم يعرضها عرض الحكاية ولا عرض النقل والرواية ، بل كان عمله فيها عمل « الغربلة » والتحليل والنيابة عن المناقشة والموازنة والأخذ والرد الذى لا يتأتى في غير المجتمعات المشهودة .

فكل سبب من أسباب الأعضاء المترافقين يعللون به ضعف المسلمين ينتهي إلى أن يكون سبباً من ناحية ونتيجة من ناحية أخرى ، وكل عرض من أعراض الجمود يجري به الدور والتسلسل على هذه الوثيرة ، إلى أن تنتهي كلها إلى سبب الأسباب في عقيدة الكواكب كما نفهمها في دينه وهجراته في التفكير ، وليس هناك سبب لجميع الأسباب غير الحكومة السيئة أو غير الاستبداد .

فماذا يضعف المسلمين ؟

يضعفون لأنهم أهملوا آداب الدين التي نهضوا بها في صدر الإسلام .

وماذا أهملوا آداب الدين ؟

لأنهم جهلو لباه وأخلوا منه بالقشور ؟

وماذا جهلوها ؟

لأنهم فقدوا الهمة وقنعوا بالضعف واستكأنوا إلى التحور والتسليم .

ولك أن تتبع حلقات السلسلة عكساً كما تابعتها طرداً ، فتقول إنهم فقدوا الهمة لأنهم جهلوها ، وإنهم جهلو لأنهم أهملوا آداب الدين ، وإنهم أهملوا آداب الدين لأنهم ضعفووا .

فكل علة من هذه العلل هي مقدمة من جهة ونتيجة من الجهة الأخرى ، إلا الحكومة السيئة في تعليل الكواكب فانها تبطل الدور والتسلسل لأنها ملتقي الأسباب والنتائج في كل عرض من الأعراض . فالاستبداد جهل وضعف وإهمال آفاث تعرض للرعاية ثم تعرض منهم للرعاية فتجري دواليك في حلقة مفرغة لانتهى أبداً مع بقاء الاستبداد ، ومن ثم يصبح أن يقال إن الفكرة في أم القرى هي الفكرة في طبائع الاستبداد ، وإن طبائع الاستبداد لا يحتوى شيئاً لا يكتبه من كتب أم القرى قبل التنقيح أو بعد التنقيح .

ويقول الدكتور سامي الدهان في ترجمته للكواكب في سلسلة نوابغ الفكر العربي إن كتاب أم القرى : « صدر في حياته منقحاً بقلم السيد رشيد رضا أو بقلم الشيخ محمد عبده كما قال الأب شيخو » ويشير الدكتور سامي الدهان بهذا إلى قول الأب شيخو في تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين عند كلامه عن أم القرى إنه « نظر فيه الشيخ محمد عبده » .

ثم يعقب الدكتور الدهان قائلاً « وكل الذي نستطيع أن نقول في أسلوب كتابته إنه قريب من أسلوب هذين الرجلين وهو أسلوب الفحول لذاك العصر » .

ولازم ما يراه الدكتور الدهان من التشابه بين أسلوب الكواكب وأسلوب الأستاذ الإمام أو تلميذه السيد رشيد . فان في الكتاب من مأخذ النحو والصرف والتزكيب ما يتخرج منه السيد رشيد غاية التحرج ولا يسكت عن نقهـ إذا عرض عليه ، كما صنع مراراً في تعقيبه على الرسائل والمصنفات التي يقرأها لأصدقائه وزملائه ، والأستاذ الإمام يكتب بقلمه على نهج غير نهج السيد رشيد كما يظهر من أسلوبه في « رسالة التوحيد » وفي « الإسلام والنصرانية » وفي المقالات الأدبية ، ويقع الالتباس أحياناً بين أسلوب الإمام وأسلوب تلميذه لأن قراء المنار كانوا يحسبون أن تفسير القرآن الذي كان ينشر فيه مكتوب بقلم الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة ملخص أو مقتبس من دروسه في الرواق العباسى بقلم صاحب المنار ومن هنا يظن أن الأسلوبين على شبه قريب وهما مختلفان مع اتفاقهما في التحرز من المأذن اللغوية واجتناب الصيغ المولدة والصيغ التركية .

ولا يمتنع، عندنا أن يكون الشيخ محمد عبده أو السيد رشيد قد نظرا في الكتاب وأبديا عليه بعض الملاحظات وأنحد المؤلف بما أبدىاه . بل نحن نجزم براجعتهما لآراء الكتاب وتصحيحتهما بخلاف طائفة من العبارات السياسية التي وردت فيه . وثبتت هذه المراجعة من المقابلة بين النسخة التي طبعها السيد رشيد في مطبعة المنار والنسخة التي لم يشرف على طبعها . فقد حذفت منها العبارات التي اشتدت فيها الحملة على الدولة العثمانية ، واتبع السيد رشيد في حذفها رأى الأستاذ الإمام فيما وجهه إليه من النصائح غير مرة . إذ قال السيد رشيد وهو يعد وجوه النقد التي كان أستاذه يصارحه بها : إنها تشمل « الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الأحيان » ... قال : « وهذا ما كنت أكرهه أنا أيضاً فيعرض لي من

الضرورة ما يحملني عليه . وجل عملهم منها كان سريا . وقد أشرت إلى ذلك في فاتحة الجلد الثاني عشر من المنار سنة ١٣٢٧ ولم نزل منها مانهواه إلا بعد أن اصطفاه الله

والمشهور عن الأستاذ الإمام أنه ابتلى بالمتاعب المرهقة من آفات السياسة حتى ملها واستعاذه بالله منها في كلمته المعروفة « أعود بالله من السياسة ومن ساس ويسوس وسائل ومسوس » وطرق ينصح لمريديه باجتنابها لتجيئه القول في المبادئ والأصول التي يتجرد الناس من أحوازهم وما ربهم عند نظرها ولا يصدون عنها ذهابا مع وساوس العصبية ونوازع المنفعة والتفاق . وقد كان الأستاذ الإمام يبيع النقد ويأبى الحملة على الدولة العثمانية في محنتها ، وأخرى به أن يأبى الإغراء في هذا النقد على طريقة الكواكبى كلما استشارته حماسة الدعوة فشدد التكير وبالغ في الاتهام ، ومن دلائل هذه المبالغة — ولا ريب — أنه استطاع أن يكتب « أم القرى » « وطبائع الاستبداد » وينخرج بهما من حلب ويحملهما في طريقه ولا يحال بينه وبين ذلك كما حيل بين أصحاب الأقلام وبين أمثال هذه الكتابة في الأقطار الأوروبية لزمانه ، وكما يحال بينه وبين أمثالها في بلاد الدول المستبدة التي تخضع لحكوماتها المطلقة .

ولا نعتقد أن مراجعة الأستاذ الإمام أو أصحاب المنار تجاوزت هذه الملاحظة إلى غيرها من أفكار المؤلف وآرائه ، ومن تجاريده وتعليقاته ، فان مادته من هذه الأفكار والآراء ومن هذه التجارب والتعليقات أوفى جداً من أن تحتاج إلى مدد يضاف إليها ، وحسبه نموذج واحد يلمسه بيديه ولا يقدر على الفكاك منه ليقيس عليه كل ما أحصاه في أم القرى من فساد السلطة الدينية والسلطة السياسية في عصور الاستبداد أو حصور التخلف والجمود ..

حسبه نموذج « أبي المدى الصيادي » الذي انتزع نقابة الأشراف من بيت الكواكبى بغير حق من حقوق النسب أو الفضل أو الكفاية ، ليضيعه أمامه وينقل عنه آفات السلطتين ومواطن الحاجة إلى علاج هذه الآفات والمقابلة فيها بين الداء والدواء .

لقد كان الكواكبى ينبع على جهلاء المسلمين استغاثتهم بأصحاب الأحضر ولا يفرق بينها وبين الشرك بالله ويضرب المثل على ذلك بقوله :

عبد القادر يا جيلاني يا اذا الفضل والى احسان
صرت في خطب شديد من احسانك لا تنساني

وقوف

رفاعي لا تضيعني أنا المحسوب أنا المنسوب

وكان هؤلاء الجهلاء يستمدون دعاءهم من كتاب «قلادة الجواد» في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر» الذي يوثقه الصيادي أو يأمر بتأليفه وينشره وينشر معه التصانيف من قبيله عن «فرحة الأحباب في أخبار الأربعية الأقطاب» و«الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف» و«وذخيرة المعاد في ذكر السادة بنى الصيادي». إلى غيرها من كتب المشور والمنظوم في أشيه هذه التراثات.

وكان الكواكب ينبع على العصر أن يرتفع بالجهلاء إلى مساند الأئمة العلماء،
ولا بضاعة لهم من العلم والورع إلا بضاعة الحيلة والدسسة وصناعة الزلالي
والقرب إلى السلاطين والأمراء، وقد ينقلون مناصبهم بالوراثة إلى ذريتهم
فيصفون في المهد بصفات الجهابذة والأولياء.

وقد كان الصيادى ينال غاية ما ينال من ألقاب العلم والشرف ويتشفع عند ولادة الأمر لمن يطبع في نيلها وهو من الجهل بالكتابة بحيث يستكتب «المحسوب» ما ننسنه إليه من تلك التصانيف في كرامات الأقطاب.

قال الأستاذ خير الدين الزركلى صاحب الأعلام - وهو خبير بأصحاب السير والتراجم من أبناء البخلق القرىب - : إن الصيادى « صنف كتاباً كثيرة أشـكـ فى نسبتها إلـيـهـ ، فـلـعـلـهـ كـانـ يـشـيرـ بـالـبـحـثـ أوـ يـمـلـىـ جـانـبـاًـ مـنـهـ فـيـكتـبـهـ لـهـ أحدـ العـلـمـاءـ مـنـ كـانـوـاـ لـاـيـفـارـقـونـ مـجـلسـهـ ، وـكـانـتـ لـهـ الـكـلـمـةـ الـعـلـيـاـ عـنـدـ عـبـدـ الـحـمـيدـ فـيـ نـصـبـ الـقـضـاـةـ وـالـمـفـتـنـ وـلـهـ شـعـرـ رـمـاـ كـانـ بـعـضـهـ أوـ كـثـرـ مـنـهـ لـغـرـهـ »

نقول : ومن هذا الشعر مابعث به إلى الأستاذ الإمام يشفي فيه على
مسألة التوحيد :

نعم فيها اختيارات ونسج دقيق فيه درب للطراز
وغيتكم بما قد صين فيها متزهدة بحكم الاعتقاد
فدم نساج در هدى ثمين مفيد للعباد ولبلاد

وقائل هذا الشعر ومن يستعيره من نظم غيره سواء ، وآية الجهل فيه أن يحسبه ناظمه أو طالب نظمه جديراً بالإهداء إلى شارح نهج البلاغة وراعي الشعراه والأدباء .

- والكواكبى يعلم أن أمراء المسلمين تأخرروا وأخر وامعهم رعاياهم لأنهم أحاطوا عروشهم بشراذم من الحاشية المتملقين واستمعوا إلى مشورتهم في اختيار الولاية والرؤساء من أذنابهم وأقربائهم وإقصاء المرشحين للولاية والرئاسة من الكفالة الخلصيين والأمناء العاملين .

فإن لم يكن قد علم ذلك من مشاهداته ومطالعاته فهو مدفوع إلى علمه بما يبصره أمامه من ذلك المثل البارز ولو كان وحيداً في زمانه ، وما هو بالوحيد .

فالصيادى كان يتحكم في مناصب القضاة والمقترين كما قال صاحب الأعلام وكان يتحكم في مناصب الولاية والرؤساء فيستندها إلى أصحابه وأقربائه وينذهب هؤلاء إلى مراكزهم وهم يعلمون ما تفرضه الوظيفة عليهم وأوله تعظيم شأن المحسن إليهم والتشير بمن ينافسهم وينافسونه من جلة العلماء ودعاة الإصلاح .

قال صاحب المنار : إن أبو المدى سعى في إسناد ولاية طرابلس إلى أحد أصحابه فأصبح الناس يحجمون عن ذكر اسم جمال الدين والثناء عليه في مجلسه ولم يقنع أبو المدى بمقدمة هذا المصلح الكبير في حياته في البلاد التي يتناولها نفوذه من ولايات الدولة العثمانية ، فكتب إلى صاحب المنار بعد وفاة جمال الدين كتاباً (في التاسع والعشرين من رجب سنة ١٣٦٦) - لعل الكواكبى قد اطلع عليه - عتب فيه عليه لثنائه على جمال الدين فقال : «إنى أرى جريدة تلك طافحة بشقاشق المؤفnen جمال الدين المفقنة ، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعها زوراً . وقد ثبتت في دوائر الدولة ربما أنه مازندرانى من أهلات الشيعة ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » .

وكان هذا ديدن الصيادى في إنكار الحسب على غيره والإشتثار به لنفسه ولو لم يكن صاحب الحسب من منافسيه على نقابة الأشراف أو حراسة الأوقاف .. وإنما يقطع عليه السبيل ليحمله ويحيط مسعاه ولو كان فيه خير عميم للدولة وسائر المسلمين ، وكذلك كان تدبيره لإحباط سعي جمال الدين في التقرير بين الدولة التركية والدولة الفارسية لتتفق السياسة بينهما على محاربة الاحتكار

ومقاطعة الدول المستعمرة التي تعتدى على إحداها ، تخويفاً لها من عاقب المقاطعة على مطامعها الاقتصادية .

فإذا جاز أن تخني على الكواكب أسباب الفشل الذي منى به المسلمون فيما وعاه التاريخ أو أحاطت به التجربة والحادية ، فليس من الجائز أن تفوته أسباب الفشل التي تقتصر عليه داره وتسلبه قراره ، ويكتفي بها الصيادي في شرفه ونسبة عمله واجتهاده ، ولا يرضيه منه إلا أن يعترف له بالشرف الذي اغتصبه منه ويعززه بالتأييد والتمكين على محاربته لياه .

غير أن الكواكب لم تعوزه الأمثلة غير هذا المثل في بلاده وفي عاصمة الدولة ، فكل من تولى الحكم في حلب كان مثلاً كهذا المثل في كشفه عن المساوىء وهدايته إلى مواطن الإصلاح ، ووسائل الكواكب إلى كشف الحقيقة غير قليلة في نطاق حياته و مجال معيشته ، فإذا صرنا النظر عن مطالعاته ومحادثاته . إذ هي وسائل الرجل المتصل بوظائف القضاء والإدارة و بمراكز التجارة وشركات الاحتكار ، وهي إلى جانب ذلك وسائل الرجل الذي يحمل تكاليف الوجاهة وقيمه الناش مقام المسؤول عن مرافق البلدة وخفايا السكبس والسعى فيها من مباح ومحظور .

إن المباحث في « أم القرى » تجربة شخصية لعبد الرحمن الكواكب لا تعوزها الزيادة من تجربة غيرها ، فليس في الكتاب فكرة يعز عليه في ذكائه وبخشه أن يستوحى من مكانه وزمانه ، ولا غضاضة على مثله أن يسترشد بعد ذلك بنصائح ذوى الرأى فيما يذاع أولاً يذاع ، وفيما يحسن نشره لحينه أو يحسن إرجاؤه إلى حين .

وعلى الجملة يصبح عندنا أن نفهم أن جوهر الكتاب وهو البحث عن حل الأمم الإسلامية وعوامل شفائها عمل خالص للكواكب فرغ منه في بلاده قبل هجرته منها .

أما موضع تبيحه والإضافة إليه والمحذف منه فهو شكل الكتاب ، وما كتبه فيه أخيراً عن شكل « الجمعية » كما تخيلها وكما اعتقد بعد رحلاته في العالم الإسلامي أنه أقرب إلى تفاصيلها ، وقد نشر الكتاب في طبعات متلاحقة فأعيد فيه ما حذف منه ، فلا تباس اليوم بين عمل الكواكب في « أم القرى » وبين عمل الناصحين فيما أبقاءه وفيما حذفه منه إلى حين .

طبائع الاستبداد

هذا الكتاب الذي يعد آية الكواكبى ، يتالف من سلسلة مقالات نشرها لأول مرة في صحيفة المؤيد وتناول في كل مقالة منها عارضاً من عوارض الاستبداد التي يشاهد أثرها في أحوال الأمم والأفراد ، وانتهى الكتاب وقد بحث فيه جملة العوارض الاجتماعية التي تصاحب الاستبداد في أحوال الدين والعلم والجهد والثروة والأخلاق والتربية والتقدم ، ومهد المقالات بتعريف الاستبداد ثم عقب عليها بوسائل الخلاص منه والغلبة عليه .

ومقالات الكتاب جميعاً تبني عن دراسة وافية للعوارض التي شرحها أو أجمل القول فيها ، وتدل على تأمل طويل في موضوعاتها يستفاد من النظر والتجربة كما يستفاد من الاطلاع والمراجعة ، وهذا خطر للأستاذ أحد أمين مترجم زعماء الإصلاح أنها نتيجة دراسته بعد أن « ساح في سواحل إفريقيا الشرقية وسواحل آسيا الغربية ودخل بلاد العرب وجال فيها واجتمع برؤساء قبائلها ونزل بالمند وعرف حالها ، وفي كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية وحالها الزراعية ونوع تربيتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة ، ونزل مصر وأقام بها ، وكان في نيته رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجله منيته . . . نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجالات والجرائم ثم جمعت في كتابين اسم أحدهما طبائع الاستبداد — والآخر — ألم القرى — . . . » .

والواقع أن الكواكبى درس موضوعات الكتابين قبل رحلته المطولة في البلاد الشرقية وقبل هجرته من حلب إلى القاهرة ، وقد عنى حفيده الدكتور عبد الرحمن الكواكبى بالتنبيه إلى ذلك في مقدمة الطبعة الأخيرة من كتاب ألم القرى التي

طبعت هذه السنة (١٩٥٩) فقال إنه «لابد في هذه المناسبة من الإشارة إلىحقيقة تاريخية تلقى ضوءاً على موضوع هذا الكتاب ، وهي أن جدي رحمه الله ألف أم القرى وطبعه الاستبداد قبل هجرته إلى مصر ، وكان عمي الدكتور أسعد الكواكبي يتولى تبييض أم القرى له في حلب ؛ كما أخبرني أيضاً عالم حلب الثقة المرحوم الشيخ راغب الطباطبائى أن المؤلف أطلعه عليه قبل سفره إلى مصر ، ولما كان السيد الفراتى لم يغادر حلب خلال مقامه فيها إلا إلى استانبول ولم يتم بمحولاته إلى العالم الإسلامي إلا بعد رحلته إلى مصر ، فان المؤتمر الذى عقد فى مكة ، ويدور عليه موضوع الكتاب ، إنما هو مؤتمر تحويله المؤلف لعرض فيه آراءه

ويطابق هذا القول ما رواه الأستاذ الغزى للأستاذ سامي الكيالى صاحب مجلة الحديث كما نشره في مجلة الكتاب (سنة ١٩٤٧) إذ يقول :

« .. وقبل سفره بيوم واحد زارنى في منزلى يودعني وأخبرنى أنه عازم في خذه على السفر إلى استانبول لتبديل نيابتة ، أى نيابة قضاء رأسيا - وكانت عالماً بهكتابه (جمعية أم القرى) وقد شعرت منه العزم على طبعه فوقع في نفسي أنه سيخرج على مصر لطبعه ونشره ، إذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها ، وحذرته من ذلك وقلت له : إياك يا أخي والسفر إلى مصر . فانك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع إلى وطنك ، لأنك تدعى الحال من الطائفية المعروفة باسم - جوز تورك - ولا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضه وانتقاد الأحوال الحاضرة . فقال : لم أعزّم إلا على السفر إلى استانبول للغرض الذي ذكرته لك ، وقد كتم سر سفره حتى عن أعزّ أصدقائه ، ثم ودعني ومضى ، وأنا أسأّل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشدده وقادده ، وكانت مبارحته حلب في أوائل سنة ١٣٦٦ هجرية (هكذا) . . وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصلى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر تقريره كتاب طبائع الاستبداد الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية أم القرى . فقد أطلعنا عليه مراراً ثم إنه طبع الكتابين المذكورين وقام بما في المأبين السلطاني ضجة عظيمة وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الملك

العثمانية .. بيد أنها رغمًا عن ذلك كله وصل إلى حلب على صورة خفية وقرأناها في سيرنا المرة بعد المرة » ..

فالدراسة التي توفر عليها في الكتابين كانت من مطالعاته وتجاربه ومشاهداته في حلب والآستانة وغيرها من بلاد الدولة العثمانية ، وهي كافية لمن كان في مثل فطنته للإحاطة بظواهر الاستبداد وخوافيه والعلم بأثر الاستبداد في أحوال الأمم الكثيرة التي كان من اليسير عليه أن يتصل بها بين موطنها وعاصمة السلطنة الكبرى ، وليس عليه أن يبحث في غير تجربة واحدة ليعلم كل ما أثبتته في الكتاب من أثر الاستبداد في الدين والعلم والجند والأخلاق والثروة وعوامل التقدم ، وتلك هي تجربته لمساعي « أبي المدى الصيادي » ووسائله في الاستئثار بنقابة الأشراف ومنصب شيخ المشايخ في الدولة ، مع ذلك الجاه الذي كان يعينه على اللعب بمعظمه المجد ومداورات السياسة كما يشاء .

وقد صادف الكواكبى التوفيق في موعد وصوله إلى القاهرة ، فانه وصل إليها وهي في فترة من فترات الجفاء المتداولة بين « يلدز » و « عابدين » ، ولو لا ذلك لتعذر نشر المقالات في صحيفة المؤيد لسان القصر الخديوى وهو يتحفظ غایة التحفظ في الإشارة إلى الدولة بكلمة تؤيد وشایة الجواسيس فيها اتهموا به الأسرة الخديوية غير مرة من التطلع إلى الخلافة والعمل على إثارة الفتنة في البلاد العربية ، ولكن « المؤيد » يومئذ كان في حل من ذلك التحفظ الشديد ، ليعرب عن استياء الخديو من خطة الدولة ويومئذ إلى سادة « يلدز » بالمساومة على مواضع الخلاف .

ومع هذا لم يستغفون الكاتب عن بعض المصانعة عند عابدين وحاشيتها لتهوين الأمر على الصحيفة وتسخير مقامه في البيئة التي اختارها ولم يكن له بد من اختيارها ، فقد حرص على هذه المصانعة إلى أن فرغ من نشر المقالات وأظهرها في أول طبعة فقال في تقديمها : « أقول وأنا مضطر للأكتام حسب الزمان ، الراجح اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال ، لاني في سنة ثمان عشر وثلاثمائة وألف وُجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمي عُم النبي العباس الذى الناشر لواء الحرية على أكتاف ملكه ، فنشرت في بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » ،

منها ما درسته ومنها ما اقتبسه ، غير قاصلد بها ظالماً بعيته ولا حكمة مخصصة .
إنما أردت بذلك تنبية الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم
هم المسيرون لما هم فيه ، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار . . .

ولقد كان في وسع الكواكب أن ينشر مقالاته في صحيفـة من صحف
الاحتلال التي كانت تجاهر بمحاربة السيادة العثمانية خدمة للسيادة البريطانية ،
ولكته لو فعل ذلك خرج عن صفتـة الإصلاحية الإسلامية ، وعرض نفسه
ل شبـات الدعاية الأجنبية ، ووطن العزم على القطـيعة الدائمة بينه وبين البلاد
المشـولة بـسيادة الدولة والمطالبة بالولاـعـها في جوازاتها وشروط الإقامة فيها
والرحلة منها وإليـها ، ويظهر من كـثـان اسمـه وتوقيعـه بالـحـرفـ الأولـ منهـ أنهـ لمـ يكنـ
قد وطنـ العـزمـ علىـ ذلكـ عندـ وصـولـهـ إـلـىـ القـاهـرةـ ، وـأـنـهـ أـرـادـ أنـ يـخـبـرـ الحـالـةـ فـيـهاـ
حـولـهـ قـبـلـ أـنـ يـقطـعـ بالـعـزمـ الـأـخـيرـ عـلـىـ الـمـسـلـكـ الـذـيـ لـاـ رـجـعـةـ فـيـهـ .

• * •

والمرجـحـ عندـناـ أـنـ طـوىـ كـتابـ طـبـائـعـ الـاستـبـادـ فـيـ حـلـبـ وـلـمـ يـطـلـعـ عـلـيهـ
أـصـدـقاـعـهـ لـسـبـبـ غـيرـ التـحرـجـ مـنـ خـطـرـهـ وـالـخـلـرـ مـنـ إـفـشـاءـ خـبـرـهـ وـإـعـنـاتـ أـصـحـابـهـ
بـكـثـانـ سـرهـ . فـانـهـ أـطـلـعـهـ عـلـىـ كـتابـ أـمـ القرـىـ وـفـيـهـ مـنـ الـمـخـدـورـاتـ مـاـ لـاـ يـقـلـ
عـنـ أـنـخـطـرـ الـمـخـدـورـاتـ فـيـ كـتابـ طـبـائـعـ الـاستـبـادـ . فـقـدـ صـرـحـ فـيـهـ بـالـدـعـوـةـ
إـلـىـ الـخـلـافـةـ الـعـرـبـيـةـ وـأـنـكـرـ الـخـلـافـةـ عـلـىـ بـنـ عـمـانـ وـرـمـاـهـ بـالـتـواـطـؤـ مـعـ الـدـوـلـ
عـلـىـ التـشـكـيلـ بـمـسـلـىـ الـأـنـدـلـسـ ، وـمـسـلـىـ الـإـمـارـاتـ الـأـسـيـوـيـةـ ، وـقـدـ يـرـدـ
عـلـىـ الـخـاطـرـ أـنـفـلـ هـذـهـ الـمـسـائـلـ فـيـ النـسـخـةـ الـمـخـطـوـطـةـ وـاـكـتـفـيـ فـيـهاـ بـالـتـلـمـيـحـ دـوـنـ
الـتـصـرـيـحـ وـبـالـإـشـارـةـ دـوـنـ الـإـسـهـابـ ، وـلـكـنـ الـكـتـابـ يـشـتـملـ بـعـدـ إـغـفالـ
هـذـهـ الـمـسـائـلـ عـلـىـ مـآـخـذـ مـنـكـرـةـ أـخـذـهـاـ عـلـىـ الـأـمـرـاءـ الـمـسـتـبـدـينـ وـعـزـاـ فـيـهـ تـخـلـفـ
الـمـسـلـمـينـ إـلـىـ مـسـاوـيـهـمـ وـسـوـءـ سـيـاسـتـهـمـ وـتـدـلـيـسـهـمـ عـلـىـ رـعـاـيـاهـمـ وـتـقـرـيـبـهـمـ لـلـمـفـسـلـيـنـ
وـالـدـجـالـيـنـ مـنـ الـوـلاـةـ وـرـجـالـ الـدـينـ ، وـلـمـ يـقـلـ عـنـ الـمـسـتـبـدـينـ كـلـمـةـ فـيـ طـبـائـعـ
الـاستـبـادـ إـلـاـ كـانـ هـاـ نـظـيرـ فـيـ مـعـنـاهـاـ وـمـرـمـاـهـاـ مـنـ فـصـولـ أـمـ القرـىـ عـلـىـ أـلسـنةـ
الـمـسـلـمـينـ الـتـرـكـ وـالـعـمـانـيـنـ ، وـهـوـ تـصـرـيـحـ بـالـحـكـومـةـ الـمـقصـودـةـ لـمـ يـرـدـ لـهـ نـظـيرـ

فـ طبائع الاستبداد ، إذ يتبع له عموم القول أن يعلن في تقديم الطبعة الأولى أنه « لا يقصد ظالماً بعنه ولا حكمة مخصوصة » .

فليست الحقيقة سر كثان الكتاب عن أصحابه الذين أطلقهم على كتاب جمعية أم القرى ، وإنما نرجح أنه طواه عنهم لأنه لم يفرغ من وضعه في صيغة النشر والتلاوة ، ووقف به عند تدوين العناوين ورسوس التعليلات وإعدادها للتوسيع فيها وإفراغها في قالبها الأخير عند تقديمها للطبع أو للنشر في الصحف ، ويتبين ذلك من المقابلة بين مقالات المؤيد ومقالات الطبعة الأخيرة بعد تنقيحها فان الاختلاف بينهما أشبه بالاختلاف بين عجالة التحضير وبين النسخة المتممة للنشر والتلاوة . وقد ظهرت الطبعة المنقحة في صفحات صفحات الطبعة الأولى ، وقال الدكتور عبد الرحمن الكواكبي حفيده إنه « ينشر هذا الكتاب للمرة الأولى على العالم العربي منقحاً ومزيداً بقلم المؤلف ، وهو مختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة والمتداولة حتى اليوم » .

ويروى الأستاذ سامي الكيالي عن الدكتور أسعد الكواكبي ابن المؤلف أنه أخبره « بأن والده رحمه الله قد أضاف على الكتاب بعد طبعه إضافات كثيرة ، والمواضيع التي يحتفظ بها بقلم والده تألف كتاباً مستقلاً بمحجم الكتاب المطبوع وهو يعتزم طبع هذه النسخة قريباً ليطلع العالم العربي على ثمرة أفكار والده في الحرية والاستعباد » .

ونجتاز في المعارضة بين الطبعة الأولى وبين النسخة التي طبعها الدكتور أسعد وصدرت منذ سنتين - بالمقابلة بينهما في موضوع واحد يدل على سائر الموضع : وهو كلامه عن التربية .

فـ في الطبعة الأولى وردت مقالة الاستبداد والتربية بالنص الذي نقل منه ما يلى إذ يقول :

« خلق الله في الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد . فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدanh ، أى أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً إن خيراً فخير وإن شرآ فشر . وقد سبق أن الاستبداد المشئوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسلام ويسيطر على النفوس فيفسد الأخلاق ويضيق على العقول فيمنع نعاءها بالعلم ، بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في التتابع ، فكل

ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته . واستعداد الإنسان لا حد لغايته . فقد يبلغ في الكمال إلى ما فوق مراتبة الملائكة لأنه هو المخلوق الذي يحمل الأمانة وقد أبتها كافة العالم ، ويصبح أن تكون هذه الأمانة هي تخدير تربية النفس على الخير أو الشر ، وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون أحاط من الشياطين بل أحاط من المستبددين ، لأن الشياطين لا ينazuون الله في عظمته ، والمستبددون ينazuونه فيها . ولكن حاجة في النفس ، والمتناهون في الرذالة قد يقبعون عبثاً لا لغرض ، حتى قد يتعمدون الإساءة لنفسهم .

« الإنسان في نشأته كالغضن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ؛ ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر ، فإذا شب يبس وبقي على أمياله ما دام حياً ، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين في جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور ببقاء حق وظيفة الحياة . ما أشبه الإنسان بعد الموت بالفرح الفخور إذا نام ولدته له الأحلام ، وبالحرب الجائحة إذا نام فغضنته قوارض الوجدان بهوا جس كلها ملائم وإيلام » .

أما في الطبعة الأخيرة فهذه المقالة ترد على الصيغة التالية :

« خلق الله في الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد ، فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدanh . أى أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقد سبق أن الاستبداد المشئوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسمام ويسيطر على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم . . . بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسيين في النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته ، وهل يتم بناء وراءه هادم؟ . . الإنسان لا حد لغايته رقياً وانحطاطاً ، وهذا الإنسان الذي حارت العقول فيه الذي تحمل أمانة تربية النفس وقد أبتها العالم ، فاتم خالقه استعداده ثم أوكله خيرته ، فهو إن يشاً الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مراتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة غير خواطر الخير ، وإن شاء تلبس بالرذائل حتى يكون أحاط من الشياطين إن كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر . على أن الإنسان أقرب للبشر منه للخير ، وكفى أن الله ما ذكر الإنسان في القرآن إلا وقرن اسمه بوصف قبيح ، كظلم وغرور وكفار وجبار وجهول وأثيم . ما ذكر الله تعالى الإنسان

فِي الْقُرْآنِ إِلَّا وَهُجَاهَ فَقَالَ : قَتْلُ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ .. إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكُفُورٍ ..
لَمْ يُنْهَى إِنَّ الْإِنْسَانَ لَنِي خَسِرَ .. إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيُطْغِي .. خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَجُولًا .. خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَجْلٍ .

« ما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته . فالمستبدون من الإنسان
ينازعونه فيها والمناهون في الرذالة قد يقعون علينا لغير حاجة في النفس ، حتى
وقد يعمدون الإساءة لأنفسهم .

« الإنسان في نشأته كالغصين الرطب ، فهو مستقيم لدن بطنه ، ولكنها
أهواء التربية تميل به إلى الخير أو شرال الشر ، فإذا شب يبس ويبيق على
أماليه مادام حيا ، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين في نعيم السرور باتفاقه حتى
وظيفة الحياة ، أو في جحيم الندم على تفريطه . وربما كان لاغرابة في تشبيه
الإنسان بعد الموت بالإنسان الفرح الفخور إذا نام ولدت له الأحلام ،
أو بال مجرم الجاني إذا نام فتشبيه قوارص الوجدان بهوا جس كلها ملام ولام » .

* * *

ولم تخل مقالة من مقالات طبائع الاستبداد من مثل هذا التنقية أو مثل هذه
الزيادة على قلة في بعض المواضيع وكثرة في غيرها . إلا أنه فارق بين النسختين
كالفارق بين المسودة المعدة للتذكرة والتحضير والنسخة التي فرغ منها
عمل التأليف .

على أن العبرة بروح الكتابة وما نسميه « نفس الكاتب » في كلتا النسختين .
ولم تكن هذه « الروح » في المقالات ولا في الطبعة الأولى بأخفى منها في الطبعة
التي ظهرت بعد وفاة المؤلف ، بل نرى أن روح الكاتب كانت في « مسوداته
ومذكراته » أبرز منها في طبعتها الأخيرة ، كما يتفق أحياناً في الكتابة التي تعلقها
السجية عفو الخاطر والكتابية التي يدخلها التنقية وتعلمه فيها المراجعة ، أو كما
يتفق أحياناً بين الكتابة « المركزة » المتجمعة وبين كتابة التبسيط والإفاضة .
وقد أحسن السيد محمد رشيد رضا حين شبه المقالات في الحالتين بالأديم المدود
فقال في المنار إن « الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في المؤيد ثم مدها
صاحبها من الأديم العكاظى وزاد عليها فكانت كتاباً حافلاً ينجلى له علمه الأول
بصورة أوضح وأجل » .

نعم ، أوضح وأجي . ولكن الأديم هو الأديم ولعله قبل مده كان
أوثق وأقوى .

ومرhan ما تداول القراء مقالة بعد أخرى من هذه « المذكرات » التي هياما
صاحبها للنشر في الصحافة حتى أحسوا أنها طبقة في النقد الاجتماعي لم يعهدوها
لعامة الكتاب في الصحف ، وعلموا من مطلعها أنها بقلم رجل من رجال الدين
فخطر لهم أنها لا تكون لغير رجل من رجلين : الأستاذ الإمام محمد عبده أو
السيد محمد رشيد رضا تلميذه ومربيه ، ولسنا نحسب أنه خاطر يخطر لمن يعرف
أسلوب الرجلين ويحسن التمييز بينه وبين أسلوب تلك المقالات ، فان بضعة
أسطر من المقالات كافية للجزم بأنها أسلوب من الكتابة غير أسلوب الإمام
وتلميذه الرشيد ، ولكن شيوخ هذا الخاطر يدل على المنزلة التي قدرها جمهورة
القراء لصاحب تلك المقالات ، فلن يكون في تقديرهم إلا علماء من أعلام
الرأي والإصلاح .

ولم تنقطع الظنون عند وقوف المطلعين على سر مقالات المؤيد ، فقد كان
من البسيط على الكثرين أنه يفهموا أن محمد عبده وتلميذه الكبير لا يتسع لها
صدر « المؤيد » مع ما بينهما وبين القصر الخديوي من الجفوة والقطيعة ، ولم
يكن من البسيط على قراء ذلك العهد أن يفهموا كيف يتسمى هذا البحث لكاتب
شرق عرفا أنه لا يعلم من اللغات غير اللغات الشرقية ، ولا يحسن القراءة
في غير لغته واللغتين التركية والفارسية

قال السيد رشيد : « كنا على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح حتى إن
صاحب الدولة اختار باشا الغازى اتهمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه » .

ثم قال : « وقد زعم زاعمون أن معظم ما في الكتاب مقتبس من كتاب
لفيلسوف إيطالي . ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرنج الاجتماعية وأحوالنا
وذوقهم في العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكيم شرق يقتبس علم
الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه يصورها تصويراً .. »

وقال الأستاذ إبراهيم سليم النجار « سبق لي أن قرأت في شبابي كتاب
(الكونترا - سوسيا) أي العقد الاجتماعي بجان جاك روسو ثم انقطعت عن
الرجوع إليه . فلما قرأت كتاب طبائع الاستبداد أعاد إلى ذاكرني كتاب الكاتب

الإفرنجى العظيم . ولو كان الشيخ العربي يعرف ولو قليلاً اللغة الفرنسوية لاعتقدت أنه أخذ عنه أو احتوى حذوه ، ولكن الحقيقة أن العقول النيرة والقلوب الكبيرة نيرة وكبيرة مهما اختلفت لغاتها وبلادها وأقاليمها ..

وإن الكواكب نفسه ليعرف القراء والنقاد من مئونة الظن في اقتباسه واطلاعه على وصف الاستبداد وعوارضه الاجتماعية في كتب غيره . فإنه قد ذكر ذلك في كلامه وتبرع به دون أن تدعوه الفضورة إلى ذكره . فكل ما يفهم من قراءة « طبائع الاستبداد » أن صاحبه على علم واطلاع في موضوعه ، وتلك بداعه لا حاجة إلى التنبيه إليها . إذ كان من الغفلة أن يطالب الكاتب بالتأليف في موضوع لم يكن على علم به واطلاع فيه .

أما أن يكون الاقتباس على مثال ما نسميه بالسرقة المقصودة فذلك إسراف في الظن لا مسوغ له سواء رجعنا بالمعارضة والمحاكاة إلى الكتب التي سرد الكواكب أسماءها أو إلى الكتب التي أفضت في هذا الموضوع ولم يكن في وسعه أن يطلع عليها أو يسمع بأسمائها .

قال الكواكب : « لا خفاء أن السياسة علم واسع جداً يتفرع إلى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى . وقلما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم كما أنه قلما يوجد إنسان لا يتحكك فيه . وقد وجد في كل الأمم المتقدمة علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الأخلاق أو الأدب ، ولا تعرف للأقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير مؤسسي الجمهورية في الرومان واليونان ، وإنما لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية ككليلة ودمنة ورسائل غوريغوريوس ومحررات سياسية دينية كمنجم البلاغة وكتاب الخراج . وأما في الشعون المتوسطة فلا تؤثر أبحاث مفصلة في هذا الفن لغير علماء الإسلام . فهم ألفوا فيه ممزوجاً بالأخلاق كالرازي والطوسي والعلاقى وهى طريقة الفرس ، وممزوجاً بالأدب كالمرسى والمتني وهى طريقة العرب ، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهى طريقة المغاربة .

« أما المتأخرون من أهل أوربة ثم أمريكا فقد توسعوا في هذا العلم وألفوا فيه كثيراً وأشيعوا تفصيلاً ، حتى إنهم أفردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة ، وقد ميزوا مباحثه إلى سياسة عومية وسياسة خارجية وسياسة إدارية

وسياسة اقتصادية وسياسة حقوقية إلى آخره . وقسموا كلها إلى أبواب شتى وأصول وفروع . أما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون ألفوا في أكثر مباحثه تأليف مستقلة ومزوجة مثل أحمد جودت باشا وكمال بك وسلیمان باشا وحسين فهمي باشا ، والمؤلفون من العرب قليلون ومقلدون ، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعة بك وخير الدين باشا وأحمد فارس وسلمي البستاني والمبعوث المدني

* * *

ومن أيسر نظرة يدرك القارئ المطلع أن الكواكبي أراد أن يسرد بعض الشواهد على مبلغ اهتمام الأقدمين والمخاترين بعلوم السياسة وبمباحثها ، ولم يرد أن يستقصي مراجع الاطلاع في هذه العلوم والمباحث ، ولا مراجع الاقتباس منها في « طبائع الاستبداد » .

ولو أنه قصد إلى الاستقصاء لما فاته أن يذكر من كتب الأقدمين أهم ما كتبه فلاسفة اليونان وأفضله في بابه ، وهو كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو ، وليس هذا ولا ذاك من رؤساء الجمهوريات ، ولا فاته أن يذكر الماوردي صاحب « الأحكام السلطانية » أو بدر الدين بن جماعة صاحب « تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام » أو ابن تيمية صاحب « السياسة الشرعية » ، أو محمد بن علي بن طباطبا صاحب « الفخرى في الآداب السلطانية » ، أو ابن حدون صاحب « التذكرة في السياسة والأداب الملكية » ، وغيرهم وغيرهم من صنفوا وألفوا في هذه المباحث ولا يفوت المؤرخ ذكرهم في مقام الاستقصاء .

ولا يلزم أن يكون الكواكبي قد اطلع على كتب المؤلفين الذين ذكرهم في مقدمة « طبائع الاستبداد » ، وإنما ترجح أن بعض مؤلء المؤلفين كان يستدعيه إلى قراءته باغراء من سيرته ومناسبات تأليفه . فن الصعب على باحث كالكواكبي يعرف التركيبة أن يعرض عن قراءة « أحمد جودت » الصادر الأعظم الذي بلغ من عنايته بالعربية أن يؤلف في نحوها وباللغتها ويعقب على التفسيرات القرآنية فيها ، ولم يكن أروج من مصنفاته بين أدباء الترك والعرب بعد وفاته في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٥) ومن الصعب

كذلك على كاتب مثله يعرف الفارسية أن يعرض عن قراءة العلائي الملقب بالحقق الثاني (١٤٦٣ - ١٥٣٤) وهو المستشار الأمين المأمون للشاه طهماسب بن اسماعيل الصفوي الذي يننسب والكواكبى إلى أسرة واحدة ، ولكننا نراجع هؤلاء المؤلفين ونراجع غيرهم من المذكورين في مقدمة «طبائع الاستبداد» فنعلم أنهم مؤرخون يروون أخبار الدول والحكومات ويعقبون على هنود السلاطين والأمراء ويتحدثون عن العدل والظلم وعن العادلين والظالمين في سياق هذه الأخبار ، أو نعلم أنهم من فلاسفة السياسية الذين يفصلون القول في أوضاع الحكم ودساتير الديمقراطية والنظم النيابية ، أو أنهم تصاحرون من حكماء الدين والمعرفة يوصون بالتحير ويحذرون من الشر ويعظون الساسة بما ينبغي وما لا ينبغي في حق الله وحق الرعية ، ولم يستخرج أحد من كتبهم مبحثاً مفصلاً في تحليل عناصر الاستبداد وتفسير عيوبه وأعراضه وأثاره في طوائف الرعايا على تعدد أطوارها وشواغلها كهذا المبحث الذي استوحاه الكواكبى من تجاربه ودراساته ونظراته وتأملاته ، ولا يعود الفضل فيه إلى غير فطنته وابتداره واستقلاله بفهمه وصحة نظره ، فان هذه المطالعات قد اطلع عليها المثاث كما اطلع عليها الكواكبى ولم يستخرجا منها الكتاب الذي انفرد به ولم يسبقه أحد إليه .

ولما يصدق وصف الاقتباس على مؤلف واحد لم يذكره الكواكبى في المقدمة ولكنه ذكره واستشهد به في كلامه على التخلص من الاستبداد ، (فتوريو ألفيري) ، الذي أردف اسمه بنعت المشهور في قوله : « لهذا أذكر المستبدین بما أنذرهم به الفياري المشهور حيث قال : لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه . فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير ؟ ! »

ولا بد أن يكون هذا المؤلف هو المقصود فيما رواه صاحب المثار عن ينسيون أفكار الكواكبى إلى « فيلسوف إيطالي » معروف ، فإنه صاحب أشهر كتاب عن الاستبداد ظهر في أواخر القرن الثامن عشر ١٧٧٧ ، وشاع بعد ذلك أىما شيوع بين أيدي الثوار الإيطاليين ، ولا سيما جماعة الكربيوتارى – الفحامين – الذين أسسوا جماعتهم السرية معارضية لجماعة البنائين أو الماسون ، وتسرب أعضاؤها إلى كل مكان يغشاه الإيطاليون في موانئ البحر الأبيض ومدن الشرق الأدنى ، ومنها مدينة حلب التي كانت « مركزاً مهماً » لتجار البندقية والمتكلمين

باللغة التوسكانية، وأوى إليها كثير من المثقفين والمهاجرين السياسيين منذ راجت فيها حركة التجارة على طريق الهند والأقطار الآسيوية.

ويبن «الكواكب» و«الفيرى» شبه قريب في السيرة والمزع وظروف الحياة، فكلامها تعود الرحلة في طلب المعرفة بأحوال الأمم، وكلامها اضطر إلى الكتابة في ظل الرقابة، وكلامها نزل مختاراً أو مضطراً عن روطه وعنداته، وزاد «الفيرى» فأسلم ما بقي له في الثروة إلى أخته لتسليمها منها نفقته التي يحتاج إليها، رغبة منه في التفرغ للرحلة والكفاح بالقلم والدعوة اللسانية.

وكتب «الفيرى» مقالاته عن الاستبداد *Della Tirannide* ظهر فيها أثر اطلاعه على «رسو» و«منتسكيو» وعلى «مكيافيلي» من قبل، ولم يظهر فيها مذهب خاص يميز للناقد أن يصفه بالفيلسوف كما وصفه القائلون بأن الكواكب نقله بمروفة واعتمد عليه في تفصيل آرائه.

والتشابه بين رسوس الموضوعات بادٍ من النظرة العابرة إلى صفحات الكتابين فقد كتب الفيرى في تعريف الاستبداد وتعريف المستبد، ثم كتب عن الخوف والتملق والطموح، ووزراء المستبد، ثم كتب عن الانتحال والدين والمقابلة بين الاستبداد القديم والاستبداد الحديث وعن الشرف المزيف والخداع الكاذب وعن نفوذ الزوجات في عهود الاستبداد وعن وسائل المقاومة للاستبداد وعن الشعوب التي لا تحسن الطغيان وعن الحكومات التي تركن إليه، ونظر في جميع هذه الموضوعات إلى أطوار الأمم الأوربية على خلاف منهج الكواكب في النظر إلى الأمم الشرقية والتعقب في وصف أحوالها، مما يميز لنا أن نقول إن مؤلف أم القرى كان خليقاً أن يكتب آراءه عن الاستبداد ولو لم يطلع على الرسالة الإيطالية.

ويتساءل الأستاذ أمين: كيف وصلت الرسالة الإيطالية إلى علمه؟ وهو سؤال لا جواب له غير الحيرة إن لم تكن للكواكب وسيلة أخرى للعلم بالفيرى غير العلم بلغته. إلا أنها نعلم من طبائع «الاستبداد» إن الفيرى كان مشهوراً عند الكواكب في زمانه، ونعلم أن هذه الشهرة لا تستغرب مع كثرة الإيطاليين في حلب ورغبة الكواكب في الاستفادة من معلومات أصحابه الأوروبيين المثقفين وهو كثير الاتصال بهم وهم يلقونه على الدوام في أعماله وأعمالهم، وقد كان اسم

«إيطاليا الفتاة» على كل لسان بين طلاب الحرية العثمانين ومنهم جماعة «تركيا الفتاة» الذين استعاروا اسمهم من اسم الجماعة الإيطالية، وقد كان الإيطاليون يسعون في تلقين دعوتهم ولا ينتظرون من يسامحون عنها، وكانوا ينتشرون في سواحل البحرين الأبيض والأحمر وينشرون فيها أندیتهم السرية التي تنتهي إلى طوائف الفحامين وتحاول أن تراوح في ميادين السياسة طوائف الماسون – أو البنائين الأحرار – التي غلب عليها في الشرق نفوذ الإنجليز والفرنسيين، ومن تاريخ الكواكب بعد الهجرة من حلب نعلم أنه كان يتلقى بكلاء الحكومة الإيطالية في شواطئ بحر العرب وينتقل على إحدى السفن الإيطالية باذن من أولئك الكلاء، فليس بالعسير بعد ذلك أن يعرف الكواكب شيئاً عن الكاتب الإيطالي «المشهور» كما وصفه في كلامه، وأن يلمّ برسوس الموضوعات التي طرقها في رسالته عن الاستبداد وهو مشغول بمكافحة الاستبداد منذ صباه، وأن يعارض تلك الرسالة بما يقابلها معارضته الشاعر للشاعر في القصيدة المأثورة لديه، ولا ينقل منه شيئاً بهذه المعارضة غير الوزن والقافية، أو غير العنوان والمناسبة.

ونحن نرجع هذا الاتهام على قول بعض المعاصرين إن الكواكب اطلع على ترجمة تركية لطباخ الاستبداد من عمل كاتب من أحرار الترك المهاجرين إلى سويسرا يسمى «عبد الله أمين» فاننا نشك في ذلك لأن مثل هذه الترجمة لا تطبع يومئذ في البلاد العثمانية، وإذا طبعت في مصر فلا بد أن تكون متداولة معهودة بين العثمانيين أصحاب الكواكب فلا يهم ذكرها ولا يختلف الباحثون في أمرها عند السؤال عن مصدرها ولا يخفىحقيقة هذا الأمر على مختار باشا الغازى وهو وكيل الدولة العثمانية المسئول عن أخبار هذه المنشورات التي تراقبها الدولة.

وأصحاب السيد رشيد رضا إذ قال إن مباحث طباخ الاستبداد لا يكتبه قلم أوربي ولا يقتبسها شرق من المراجع الأوربية، وززيد على هذا أن «الفيرى» نفسه لا يستطيع أن يصور عناصر الاستبداد كما صورها الكواكب من وحي تجربه وتأملاته في البلاد العثمانية وفي بلده وإقليمه بصفة خاصة، لأنه يحمل « بصورة» تريه ما يقع عليه حسه ولا تريه مالم يشهده بعينيه.

فإذا كان جهل الكواكب بالإيطالية يبعث على استغراب علمه بالفيرى، فإن جهله بهذا الكاتب خاصة هو الغريب من رجل يعاشر الإيطاليين ويسمع بشورتهم ويسمع أن ثوار الترك يستغيرون منهم تنظيم حركتهم، ويسأله ولا شك عن كتابهم «المشهور» أو يتلقى منهم البيان عنه بغير سؤال.

وما كانت الشبهة أن اتصال الكواكبي بالإيطاليين قليل لا يسمح بهذه المعرفة ، وإنما الشبهة أنها كانت تزيد على اللازم لهذه المعرفة ، حتى خطر لبعضهم أنها تمتد من الصحبة إلى « التواطؤ » على السياسة الخفية ، فلولا المصادفة التي وقعت على الرغم من الكواكبي ولم تقع باختياره ولا بتدبيره لاستعصى على المدافع عنه أن يدحضها بغير حسن الظن وصدق القراءة . .

« حدث في يوم ما أن قنصل دولة إيطاليا في حلب - السيد أريكو ويتو - بينما كان راكباً عربته ، مارأ في محله الجلوم ، التي هي محلة السيد عبد الرحمن الكواكبي ، إذ وقع على ظهره حجر عاثر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً ، بحيث اضطرته أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريراً يطلب فيه منه البحث عن الضارب وإجراء العقوبة القانونية . . هذه الحادثة فتحت للوالى باباً يلتج منه إلى المصاق هذه الجناية بالسيد الكواكبي ، لاسيما وقد كانت الحادثة في محلته وعلى مقربة من داره ، وفي الحال أوعز إلى بعض شياطينه بأن يرفع إليه تقريراً فحواه أن الكواكبي منضم إلى عصابة أرمنية - وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة - وأنه قبل يومين أغوى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجراً أصاب ظهره ، محاولاً بذلك إحداث ثورة بين الأرمن وال المسلمين بحلب . . وفي الحال أصدر الوالي أمره بالقاء القبض على الكواكبي وزوجه في السجن ، وما أسرع ما أخرج من السجن مخفوراً وأجلس على كراسي المحكمة لاصدار الحكم عليه(1)».

ويستوى اتهام الكواكبي في هذه القضية وبراءته منها في تكميل الوشاية الدين رجعوا بالظن فجعلوه صنيعة الإيطاليين ، فان الصنيعة لا يسلمه حاته المزعومون إلى الموت وهم ينظرون ا

(1) المجلد الثالث من مجلة الكتاب عدد يناير ١٩٤٧ .

شخصية مكونة

«كان مربع القامة ، حنطي اللون ، مستدير الوجه ، خفيف العارضين ، أقى الأنف ، واسع الجبين ، ذا عينين زرقاوين ، معتمد المقلة ، لا غائزها ولا جاحظها ، معتمد فتحة الفم ، أزج الحاجبين ، صغير الأطراف ، معتمد الجسم بين السمن والهزال ، أسود الشعر ، قد وخطه الشيب حين فارق حلب إلى جهة مصر » .

هكذا وصفه صديقه الأستاذ كامل الغزى ، ووصفه الأستاذ إبراهيم سليم النجار وهو من عرفوه وصاحبوه فقال : «كان ربع القامة تميل إلى الطول قليلا ، أبيض الوجه بياضاً مشرباً بشيء قليل من الحمرة ، شأن سكان البلاد الباردة ، . . . وقد أحاط خديه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه ، مد فيها الشيب خيوطه » .

ووصفه ابنه الدكتور أسعد فقال : «كان ربعة إلى الطول أقرب ، قوى البنية ، صحيح الجسم ، عصبي المزاج بتأنٌ ، أشهل العينين ، أزج الحواجب ، أبيض اللون ، واسع الفم ، عريض الصدر ، أسود شعر الرأس والذقن ، متأنق في لباسه ، يتكلم بجهة هادئه وسلامة وابتسام ، يحسن السباحة والصيد والغوصية . . .

وسمعنا وصف سجاياه وملكاته العقلية من عاشروه ، كما قرأنا هذا الوصف بأقلام مترجميه ، فرأيناهم يتقدون على سجايها خلقه وملكات عقله اتفاقهم على سماته وتكون جسده ، كأنهم ينظرون إلى ملامح محسوسة لا تخفي العين رؤيتها ولا يختلف الناظرون إليها في وصفها ، فما من ترجمة له لم تبرز في الكلام عليه صفات الوقار والحلم والقطنة والتجدة وعفة اللسان وحسن الملاحظة

وصدق الإرادة ، وكأنما ثبتت هذه الصفات في نقوس عارفه ، لأنها جاوزت أن تكون صفات مقدورة وأصبحت أعمالاً متكررة يؤيد بعضها بعضاً فلا ينساها من رآها وسمع بها وبآثارها . وهي قد أصبحت فعلاً في عداد الأعمال المشهودة ولم تبق في حيزها من عالم السجايا والأخلاق ، وسُنحت لها منادح الظهور والثبوت مرات في جملة الوظائف التي عمل فيها فكان في كل منها أمين الجهر والسر خيراً بعمله غيره على الصعفاء حريصاً على واجبه متطوعاً بما يزيد على الواجب كلما دعته إلى ذلك دواعي النجدة والإنصاف .

ثم خلا من أعمال الوظائف فكانت بطالته في عرف الحكومة أدعى إلى إبراز تلك السجايا والملكات من كل وظيفة تولاهما ، إذ كان يشغل وقته بالتطوع لدفع المظالم وإبلاغ الشكايات وتحميس الأسانيد والنهوض بتكاليف الرئاسة وأعباء الوكالة الموروثة التي ألقاها على عاتقه مكانه من العلم والواجهة وسابق الخبرة بولاية أعمال الناس ، وافتتح لهذه الأعمال مكتباً مستعداً مفتوح الأبواب لمن يقصدونه بغير جراء ، بل يحمل النفقه أحياناً عن أصحابها الذين يعيشهم حملها من ذوى الحاجات .

لا جرم يتفق واصفوه على سجایاه وملکاته ، بل على صنائعه وفعاله ، كاتفاقهم على ملائمه وسماته . فانها ملامح مشهودة وصفات جاوزت حيز الظنون إلى حيز الأعمال .

ومرجع ذلك إلى أنها هنا أمام « شخصية مكونة » قام كيانها المتن على أساس عميقة من عوامل بيتها وأسرتها وظروف زمانها وظروف حياتها وسائر مقوماتها وعناصرها وتکاد كل صفة من صفات الكواكب تنسب إليه فلا تعجب لاتصافه بها ولا تنقب طويلاً حتى تجد تفسيرها كافياً مائلاً في عامل من تلك العوامل التأصلة في ظروف زمانه أو ظروف مكانه .

رجل يتطلع إلى قلب دولة وإقامة دولة من طريق الدعوة .

أى عجب أن يتطلع إلى ذلك رجل يعلم أن ملفاً من أسلاف أسرته أقام الدولة الصفوية من طريق الصومعة والمدرسة في بلاد غريبة عن بلاده ، وأن الدولة التي يريد أن يقلبها قد تزعزعت في موطنها ولم تعد إليه بعد فترة إلا وهي على حال من التزعزع لا تؤذن بالدوام ؟

رجل دائم الشعور بعروبتة شديد الغيرة على نسبته العربية .

أى عجب أن يكون كذلك من يرجع إلى تاريخ بلاده من قبل إبراهيم عليه السلام فيعلم أنها عربية لم تزل عربية تحس عروبتها كلما أحسست أنها « تهان من أجل هذه العروبة وتظلم في سبيلها » ؟

رجل يتصدى للجهاد في هذا السبيل وينهض بأمانة الإمامة فيه ولا يتمنى لنفسه العذر في التخلف عنها .

أى عجب في إماماة رجل توارث الإمامة في بيته فطلبته قبل أن يطلبها .

ورجل يعرف الاستبداد فلا يصبر عليه ولا يستقر معه على قرار .

فهل من عجب أن يكون كذلك مصاب بعسف الاستبداد في سربه وفتراث قومه وفي حقوق عشيرته وآلها وأقرب الناس إلى جواره .

وإنه ليعلم أثر الاستبداد في الدين والدنيا ، فأى عجب في هذا العلم وهو لا يتطلب منه إلا أن يعلم كيف توسل الكذبة من رجال الدين إلى اغتصاب حقه وحق بيته ، وكيف يختلسون النسب والحساب ويزيفون الشعائر والشرايع ليصعدوا من ثم إلى مجالس الصدارة في الدين والدنيا وبين الرعية والرعاة ؟

ورجل يتحفز للثورة ، فأى عجب في ذلك وهو يعيش في عصر الثورة ؟

ورجل يتصل بالعالم في زمانه فلا تخفي عليه خافية من أخطاره وخطوبه ، فأى عجب في ذلك وهو في بلد تلتقي عنده طرق العالم ولا يقطع عنها أو ينقطع عنه الواردون إليه والطارئون عليه في سلمه وحربه ؟

رجل واحد ندبته الحوادث لرسالته ولم تندب لها أحداً غيره ، فأى عجب في ذلك وهو الذي تهيأ لتلك الرسالة بالاستعداد لها والقدرة عليها والشعور بدوافعها والعجز عن إغفالها والإغصاء عنها .

* * *

وقد تجرد الكواكب لرسالته وتفرد بها في بيته لأن هذا الاستعداد الموروث منذ القدم يسانده استعداد خاص به من قطنته وخلقه ومطالعته وبواعته النفسية . فلا تكفيه الفطنة وحدها لأن الفطنة لا تقدم ولا تؤخر ما لم تسعدها الحالات التي تصبر على الشدة وتقدم على الخاوف وتضطلع بتکاليف

النجد و المروءة ، ولا تغنيه الفطنة والخلق بغير البواعث النفسية التي تثير الضمير و تستجيش الخاطر ، وبغير البيان الذي استفاده من دراسته و اطلاعه و حسن إصاغائه إلى ذوى المعرفة والخبرة من صحبه ، ومن المصادرات النادرة أن يجتمع ذلك الاستعداد الموروث من القدم وهذا الاستعداد الخاص بصاحبه لأكثر من ناين و احد في حقبة واحدة ، وهو كاف لارتياح الدعوة الأولى على سنة الطبيعة من القصد في غير ضرورة للسرف والزيادة .

* * *

والشخصية المكونة المنذورة لرسالتها هي هذه الشخصية التي تعاونت فيها العوامل هذا التعاون بين حديث قديم وبين خاص و عام ، وعلى هذا التكوين بنيت « شخصية » الرائد الذي كتب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » .

كان الرجل قضية حية متفقة المقدمات والنتائج .

كان شخصية قوية جلية لا موضع فيها لغموض أو التواء .

مفاتها إذا المسنا المفتاح لبعض زواياها أنها « شخصية عزيز قوم يغضب لكرامته وكرامة قومه » .

ولنا أن نفسر بهذا المفتاح كل سر فيها من أسرار الأعمال أو أسرار النيات .

في مصر

وصل الكواكبى إلى مصر في منتصف شهر نوڤمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى بها في شهر يونيyo سنة ١٩٠٢ وتحلل هذه الفترة رحلتان ، قال صديقه صاحب المزار عنها : « إنه وجه همته أخيراً إلى التوسع في معرفة حال المسلمين ليسعى في الإصلاح على بصيرة ، فبعد اختباره الثامن لبلاد الدولة العلية - تركها وعربها وأكرادها وأرمادها - ثم اختباره لمصر ومعرفة حال السودان منها ، ساح منذ سنتين في سواحل إفريقيا الشرقية وسواحل آسيا الغربية ، ثم أتم سياحته في العام الماضي فاختبر بلاد العرب التي كانت موضع أمله أتم الاختبار . فإنه دخلها من سواحل المحيط الهندي وما زال يوغل فيها حتى دخل في بلاد سوريا واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل وعرف استعدادهم الحربي والأدبي وعرف حالة البلاد الزراعية وعرف كثيراً في معادنها حتى إنه استحضر نموذجاً منها . وقد انتهى في رحلته الأخيرة إلى كراجي في موانئ الهند وسخر الله له في عودته سفينة حربية إيطالية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسي في مسقط ، فطافت به في سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقيا الشرقية ، فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختباراً سبق به الإفرنج وكان في نفسه رحلة أخرى يتم بـها اختباره المسلمين وهي الرحلة إلى بلاد الغرب ولكن حالت دونه المنية التي تحول دون كل الأمان والعزائم . . . »

وقال الأستاذ جورجى زيدان في كتابه عن مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر عن رحلته : « وما يذكر له وتأسف لضياع مماره أنه رحل رحلة لم يسبقه أحد إليها ويندر أن يستطيعها أحد غيره . وذلك أنه أوغل في أواسط جزيرة العرب ، فأقام على متون الجمال نيفاً وثلاثين يوماً. فقطع صحراء الدهناء في اليمن ولا ندرى ما استطلعه من الآثار التاريخية أو الفوائد الاجتماعية فعسى أن يكون

ذلك محفوظاً في جملة متخلفاتة . وتحول في هذه الرحلة إلى الهند فشرق إفريقيا أيضاً وكان أجله ينتظره فيها .

والمؤرخ الحلبي الأستاذ الغزى ، وهو صديق الكواكبى ، يذكر هذه الرحلات فيما كتبه بمجلة الحديث ويشير إلى إشاعة القائلين إن الخديوى عباس استدعاه ليقوم بالدعایة للخلافة مصرية وليسى لدى الشيخ وعربان الإمارات في ذلك ، ويروى أنه جاءه كتاب من قنصل إيطاليا في حديقة بالمين — وهو من أسرة الصولا بحلب يسمى فردیناند میخائیل — فذكر فيه أنه اجتمع بالسيد عبد الرحمن الكواكبى أثناء هذا الطواف»(١) .

ولا تتفصل هذه الإشاعة عن إشاعة أخرى فحواها أن الدولة الإيطالية يسرت له الرحلة لأنها كانت تطمع في نجاح المسعى إلى خلع الخلافة التركية منذ توجهت محاولاتها الاستعمارية إلى شواطئ البحر ، لعلها تستفيد من مصادقة الخلافة العربية المنتظرة بعد إقامتها على مقربة من مناطق نفوذها .

ولابد لكل ملتفت إلى هذه الإشاعة أو تلك من تفسير التناقض بين العمل للخديوى عباس والعمل للإمامية العربية القرشية ، فإن عباس لا يبذل المال لمن يسعى في إحباط مسعاه وإثمار سواه عليه ، ولا مصادحة للدولة الإيطالية في إقامة الخلافة بأرض يحتلها الإنجليز ويسطرون بها على شواطئ البحر الأحمر من شمالها إلى جنوبها ، وليس ارتباط الأسرتين المالكتين في إيطاليا ومصر كافياً لحمل الدول الإيطالية على اتباع هذه السياسة ، فلابد إذن من التفسير القاطع للظنوں بين قولين لا يتفقان ، وإن اتفقا في شيء واحد وهو حرب الخلافة العثمانية .

• • •

أما اتصال الكواكبى بالخديوى عباس فيكفى في تفسيره أن الكواكبى قد وصل إلى القاهرة خلال أزمة من الأزمات المستحكة بين « عابدين » و « يلدز » وبين « عابدين » و « نقابة الأشراف » التي كان « أبو المدى الصيادى » يتولاها في عاصمة الخلافة ، فلا غرابة في اتحاد الخطوة بين الخديوى وبين صاحب طبائع الاستبداد في تلك

(١) مجلة الحديث (١٩٥١) ، وكتاب « عبد الرحمن الكواكبى » الدكتور سامي الدهان .

الفترة ، ولا في التحالف بينهما على ابقاء الشر من دسائس «يلدز» ودسائس «نقاية الأشراف» في آونة واحدة .

وكانت هذه الفترة من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٢ أصلح الأوقات لارتفاع الكواكب في مساعيه بزيارة القاهرة . فانه استطاع أن ينشر مقالاته في «المؤيد» صحيفة الخديوي الشبيهة بالرسمية ، ولو لا ذلك لاضطر إلى الكتابة في الصحف المتهمة بخدمة الاستعمار تعصباً منها للدول الأوروبية على دولة الخلافة ، ولم يسلك هذا الطريق داع من دعاء الإصلاح في العالم الإسلامي إلا تعرّت به السبل من خطواته الأولى .

ومضت هذه السنوات والخديو عباس يقاطع الآستانة ويأتي أن يقصد إليها في رحلة الصيف قبل أن يفلح رسالته إليها في تسوية المشاكل المتعلقة بين يلدز وعابدين ، ومنها مشكلة قاضي مصر من قبل الآستانة ، ومشكلة جزيرة «طشيوز» التي استردها السلطان من الأسرة الخديوية ، ومشكلة الصحافة التي تحمل على الدولة ويصرح المسئولون في القصر السلطاني بانتهاها إلى الخديو ، أو بأن الخديو على الأقل يقصر في استخدام نفوذه لإسكانها ، وقد غضب الخديو غضباً شديداً يوم علم أن حاشية السلطان اتصلت بالسفارة الإنجليزية تسألهما أن تتوسط عند الوكالة البريطانية في القاهرة لكف الحملة على السلطان في صحافتها العربية والأجنبية . وقد سافر أحد شقيقه باشا إلى الآستانة في صحبة الوالدة للاحتجاج على ذلك وعلى غيره من مسائل الخلاف بين الأمير التابع والسلطان المتبع .

قال شقيق باشا في مذكراته — أول مايو سنة ١٨٩٩ — إنه أثار هذه المسألة في حديثه مع باشكاتب المابين وأبلغه أن الخديو يشعر بالإغضباء عنه «في عدة مراقب آخرها أن المابين قصد إلى الحكومة الإنجليزية ليشكوا إليها عدوان صحفية من هذه الصحف تصدر في مصر . كان الخديو وكيل للسلطان الشرعي غير موجود» .

وشاعت أخبار هذه المشاكل في الدوائر السياسية بالآستانة فاستطلع السفراء أسرارها وتحدث غير واحد منهم إلى شقيق باشا عن حقيقتها ، ولا سيما سفراء الدول التي كانت تقاوم الاحتلال البريطاني ومنها يومئذ فرنسا وألمانيا وروسيا .

قال شفيق باشا : « وفي اليوم التالي زرت سفير فرنسا فسألني عن سفره إلى الخديو للاستانة فأشرت إليه بأنه قد لا يأتي في هذا العام نظراً لأن شيئاً لا تشجع سمه على الزيارة ، ولما سأله عنها باللحاظ أخبرته موجزاً بمسألة الصحف فقال لي في النهاية إن كل شيء يزول عند وجود سمه بالاستانة . ثم قال : إنني سأتهز كل فرصة وأعرف السلطان بالحقيقة وأكرر عليه ما سبق أن قلته وهو أن من صالحه أن يجعل الخديو راضياً . لأن سمه لو خلع الطاعة لأوقع الخليفة في ارباك عظيم » .

ثم قال : « ووزرت السفارة الروسية فقابلني مكسيموف الترجمان الأول وله نفوذ عظيم في المabin ورحب بي وقال لي إنه علم بمسألة الصحف فأسف لما وقع .. »

ومضى شفيق باشا يقول : « ... ثم ذهبت إلى المabin فلم ألق جديداً ، وهناك قابلت نجيب بك ملهمة القوميسير العالى للدولة في البلغار ، فتعزفنا بعد قليل ، ودارت بيننا أحاديث أخرى في خلالها أن جماعة أبي الهدى أرادوا اجتذابه نحوهم ، فطلبوه منه أن يرسل تقريراً ضد الحضرة الخديوية وكان الواسطة في ذلك كريم أفندي صاحب جريدة تركيا التي تطبع في مصر . ولكنه أخذ الأوراق التي ثبتت ذلك ورفعها للسلطات فصدرت له الإرادة بحفظها عنده .. »

ونقل شفيق باشا في مذكرات سنة ١٩٠١ « في ٢٤ نوفمبر أبلغنى تحسين بك أن أبياً الهدى تمكّن من دخول السرای بعد أن كانت علاقته بها على غير مiar ، وألقي بدسيسة ضد الخديوى مؤداتها أن سمه تامر مع رفعت باشا الصدر الأعظم الذى توفى أخيراً ، والقزرل أغاسى والمشير فؤاد باشا وغيرهم نخلع السلطان وتوليه ولـى العهد ، وأن المتآمرين أخذوا رشوة قدرها عشرون ألف جنيه بواسطة الكريدى ليونيه وأنى كنت الواسطة بين الخديوى ورشاد أفندي ولـى العهد في هذه المؤامرة .. »

وكان الخديو في هذه الأثناء يسافر إلى الصحراء الغربية فيتلقى المabin تقارير الجواسيس بأنه « سيقابل هناك الشيخ جنية وكيل السنوسى للمخابرات معه بشأن الخلافة العربية » .

وفي أول يونيو سنة ١٩٠١ كتب شفيق باشا في مذكراته : « .. إن بطرس

غالى باشا ناظر الخارجية توجه من قبل كروملى الخديو وأبلغه أن الحكومة الإنجليزية ورد لها بлаг من سفير الدولة بلندرة يقول فيه إن ممدوه أخذ في إرسال مدافع ونقوذ إلى التأمين في العين ..

وقال بعد ذلك إنه « في ٣١ أكتوبر طببت للسرى وعرض على تحسين بك صورة منشور عليه توقيع الخديو بصفته خديويا يدعى المسلمين فيه للخروج على السلطان ومبaitته بالخلافة ... ولكن جلالة الخليفة عرف أن هذه دسسة»

ودامت هذه الجفوة إلى صيف سنة ١٩٠١ حين شعر الخديو بالتصييق عليه من قبل الإنجليز ، فأخذ في التهديد لإصلاح العلاقة بينه وبين السلطان ، وقرر السفر إلى الاستانة قبل أن تبلغه الدعوة السلطانية بالحضور إليها كما جرت بذلك مراسم المابين .

* * *

ولا ندرى هل كان الكواكبى يتبع الفرصة المؤاتية لسفره من حلب إلى القاهرة ؛ أو أنه نزل بها فوجد الفرصة مؤاتية له بعد وصوله إليها. ولكن هذه الفرصة كانت ضرورية له في عمله فاستفاد منها أثناء مقامه بمصر وأنجاز كل ما أراد إنجازه فيها قبل رحلاته إلى المشرق وقبل انقلاب الموقف وراجعت الخديو عن خطتها الأولى. فسرعان ما « اعتدل الجو » بين «يلدز» و«عابدين» حتى جاءه النبأ من قبل الخديو يوحى إليه بما لا يتحقق عليه . إذ عرض عليه أن يصحبه إلى الاستانة ليقدمه إلى السلطان ويعيده إلى حظيرة رضاه . ولم يكن ليتحقق على الكواكبى مغزى هذا الاقتراح الصريح . فإنه سواء قبل السفر إلى الاستانة أو اعتذر منه خلائق أن يفهم أنه مطالب بالسکوت عن السلطان أو مبارحة البلاد ، إلا إذا شاء أن يمكث بها في حماية الاحتلال .

ونحن لم نسمع بهذا الخبر من أصحاب الكواكبى الذين لقيناهم وسمعنا منهم الكثير من أخباره مع الخديو ومع الأستاذ الإمام ، وإنما نقول على رواية الأستاذ كرد على في الجزء الثاني من مذكراته التي يقول فيها : « وجاءنى ذات ليلة يسمى معى في دارى مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرنى في أمر عظيم . قال : إن الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه إلى الاستانة — وكان الخديو يصطفاف فيها — ليقدمه إلى السلطان العثمانى ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه

المشادة ويطمئن خليفة الترك إليه . فصعب علىَّ وعلى رفيق بك إبداء رأى في موضوع جد خطير كهذا . لأن ابن عثمان لا تأخذه هواة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها ، وما قال لنا ؛ إنه حائز في أمره بين القبول والرفض ، وإنه شعر بالأمس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا ، وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي إلى داره فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ، ويقول قم يا كرد على ، فإن صديقك أبي مات . . .

وظاهر من سيرة الكواكبي في القاهرة أنه لم يقم بها إقامة طويلة متواتية ، وإنما كانت إقامته بها متقطعة تخللها الرحلة بعد الرحالة على التحو الذي تقدم بيانه في ترجمته بأقلام أصدقائه .

أما المعلوم من أخبار إقامته بها فخلاصته أنه كان يؤثر السكن في الأحياء الوطنية بين شارع محمد على والجى الحسينى إلى جوار الجامع الأزهر ، وكان يؤثر في صحبته من يلقونه ويلقاهم أن يتتجنب التحيز والتشييع لهذا الفريق من أصحاب الخصومات السياسية ، فكان يلقى الأستاذ الإمام وتلاميذه كما يلقى الشيخ على يوسف وزملاؤه من أنصار السياسة الخديوية ، وكان يجتمع بكل من تجمعهم جلسة « سيلنند » وجلسة « يلدز » من أندية القاهرة المشهورة وبينهم طائفة من حزب « تركيا الفتاة » وطائفة من دعاة الجامعة الإسلامية ، وكان المتطرفون من جماعة « تركيا الفتاة » يستحبون الجلوس بقهوة يلدز تفاؤلاً باحتلال « يلدز » الكبرى في يوم من الأيام ، فإذا وجدوه هناك جلسوا إليه فلم يعرض عليهم ولم يخنس معهم في دعائهم ، وربما كان بينهم أذناب مدسوسون من قبل السلطان عبد الحميد أو الشيخ أبي الحلى أو خدام الدسائس الأجنبية المتلبسون بلباس الوطنية ، فيعرفهم أو لا يعرفهم ثم لا يبالي أن يستمعوا إليه ويستمعوا إليهم ، وقد يعتزم بالصمت ساعات إذا تطرق بهم الحديث إلى غير ما يرضيه .

وقد تعددت الروايات عن أخباره الأخيرة ليلة وفاته رحمه الله . فنها ما تقدم بيانه في مذكرات الأستاذ كرد على ، ومنه ما رواه أحد أصدقائه الشيخ صالح عيسى وكان مقىها في مصر إذ يقول كما جاء في عدد يناير سنة ١٩٤٣ من مجلة

الكتاب : « وفي اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هجرية ورد على السيد عبد الرحمن من قبل حضرة الخديو - وكان مصطفاً في الإسكندرية - بطاقة يدعوه فيها لحضور ضيافة يقيمها هذا اليوم في إحدى سراياته في الإسكندرية فأجاب السيد الدعوة وركب قطار السرعة وسار إلى الإسكندرية وقابل الحضرة الخديوية وحضر ضيافته وعاد إلى مصر من يومه، وفي الليل سهرنا معه في مقهى ستانبول مع جماعة من أدباء مصر وأفاضلها يزيد عددهم على العشرة ، و كنت جالساً جانب السيد عبد الرحمن وما صارت الساعة الرابعة عربية من تلك الليلة همت بالقيام . لأن النوم غلبني ، فاستدعي إليه وكنت جالساً في قرينه ، وقال لي : أحس بوجع شديد في خاصرتي اليسرى وهو إذا دام معنٍ ساعة أخرى ، فلا شك أنه يكون قاتلي . قلت له : لا بأس عليك إن شاء الله . ثم انصرفت إلى منزلي ورقدت في فراشي ، وما كاد شفق الفجر يلهم فحمة الليل إلا والباب يطرق على . فنهضت من فراشي مسرعاً وقلت : من بالباب ؟ فأجبني الطارق بقوله : أنا كاظم . إن أخاك والدى قد مات . فدهشت من هذا الخبر المفاجئ » .

ونقل الدكتور سامي الدهان عن مجلة الحديث (١٩٤٠) رواية أخرى فقال : « في مساء الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢ الموافق ٥ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هجرية جلس في مقهى يلدز قرب حدائق الأزبكية إلى أصحابه وأصدقائه وفيهم السيد رشيد رضا والأستاذ محمد كردى على وإبراهيم سليم التجار وشرب قهوة مرة ، وبعد نصف ساعة أحس بألم في أمعائه فقام للحال وقصد مع ابنه السيد كاظم في عربة حنطور إلى الدار وظل يقء حتى قارب الليل متتصفحه فأصيب بنبوبة قلبية ضعيفة فأحس ابنه بالخطر وهب يستدعي أقرب طبيب من المحلة ، ولما عاد صحبة الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة . . . وسرى الخبر صباح الجمعة في مدينة القاهرة فأمر الخديو بburial الكواكب على نفقته الخاصة وأن يعجل بdeath him ، وأرسل مندوياً عنه لتشييعه ودفن في قرافة باب الوزير في سفح المقطم ، واحتفل له السيد على يوسف صاحب جريدة المؤيد بثلاث ليال حضر فيها القراء » .

ويكاد أصحاب هذه الروايات المختلفة عن وفاته رحمه الله يتتفقون على ظن واحد سبق إلى الكثرين من سمعوا بتعيه في حينه ، فقد خطر لهم جميعاً أنه ذهب

ضعيّة الغدر والدسيسة بتدبير من أبي المدى أو من جواسيس السلطان عبد الحميد ، وقال الأستاذ الغزى في مجلة الحديث : « كان وفاته كانت متوقرة . لأنها لم يمض عليها يوم أو بعض يوم إلا وقد اتصلت بسامع السلطان عبد الحميد ، وعلى الفور أصدر إرادته إلى السيد عبد القادر القباني - صاحب جريدة ثمرات الفنون التي كانت تصدر في مدينة بيروت - لأن مهبط سريراً ويقصد محل إقامة السيد ويحرز جميع ما يحمله من الأوراق ويرسلها إلى المابين .. »

وما كان أحد في ذلك العصر ليستبعد هذه الفعلة وأمثالها على المتهمن بها ، ولكن تحقيق الخبر للتاريخ لا تكفي فيه مظنة السوء ، وأرجح الأقوال في هذا النباء ما كتبه الأستاذ محمد لطفي جمحة في مجلة الحديث (١٩٣٧) إذ يقول إنه « ذهب ضعيّة ذبيحة صدرية » .. ويؤيد هذا القول ما شعر به الفقيه من أعراض الذبيحة كوجع الذراع وألم الجنب الأيسر ، وما جاء في النباء الأخير عن إصابته بنوبة قلبية خفيفة تلتها نوبة الوفاة ، وربما كان للإعباء من أثر التيء فعله في تحريك عوارض النوبة وتعجّيل القضاء الختوم .

وما كان باليقين الذي لا ظن فيه ، إلا ضعيّة الخيانة والظلم فيها تجنيان من داء يفعل في النفوس ما تفعله السموم في الأبدان .

* * *

وضريحه بالقاهرة في مثواه الأخير بباب الوزير ، نقلته إليه مصلحة التنظيم بعد وفاته بنحو خمس عشرة سنة ، وعلى صفحاته المرمرة هذان البيتان لحافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التيء هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرعوا أم الكتاب وسلموا عليه فهذا القبر قبر الكواكب

الكتاب ص ١٣ الثاني

برناج إصلاح

فَكِرُّ الْكَوَاكِبِيِّ كَثِيرًا ، وَأَطَالُ التَّفْكِيرَ ، فِي جَمِيعِ الْمَسَائلِ الَّتِي بَنَى عَلَيْهَا دُعَوَتُهُ إِلَى الْإِصْلَاحَ ، وَهِيَ دُعَوةٌ مُحِيطَةٌ بِشَتَّوْنِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ فِي زَمْنِهِ عَلَى الإِجْمَالِ ، وَشَتَّوْنِ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ عَلَى التَّخْصِيصِ ، وَلَيْسَتْ مِنَ الدُّعَوَاتِ الَّتِي تَنْجُهُ إِلَى نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ تَنْحَصُرُ فِي جُزْءٍ مِّنْ أَجْزَاءِ الْحَيَاةِ الْعَامَةِ الَّتِي تَتَفَرَّقُ عَنْهَا بَيْنَ أَشْتَاتِ الْمُصْلِحِينَ .

وَقَدْ نَجَّ فِي دُعَوَتِهِ مِنْهَجُ الْعِلْمِ التَّجْبِيِّيِّ أَوِ الْفَلْسُفَةِ الْعَمَلِيَّةِ ، فَنَظَرَ فِي جَمِيعِ الْعُلُلِ وَقَدِرَ جَمِيعَ الْوِجُوهِ ، وَاعْتَمَدَ الْبَحْثَ فِي تَلْكَ الْعُلُلِ مِنْ نَاحِيَةِ النَّقْنِ وَنَاحِيَةِ الْإِثْبَاتِ ، فَلَازَ الْمُقْدَرَةُ يَتَبَعَّ أَعْرَاضَهَا وَيَسْتَقْصِي آثارُهَا وَبَرِيَ أَنْ مَكَانُ الصَّوَابِ مِنْ تَطْبِيقِهَا عَلَى الْوَاقِعِ وَتَفْسِيرِهَا بِالرَّأْيِ ، وَأَنْ مَكَانُ النَّقْصِ الَّذِي تَقْصُرُ فِيهِ عَنْ تَفْسِيرِ الْوَاقِعِ وَمَوْافِقَةِ الْأَحْوَالِ .

وَيَبْدُو لَنَا مِنْهَجُهُ فِي التَّفْكِيرِ وَالْمَرْاجِعَةِ مِنْ أَسْلُوبِ كَتَابِيَّهِ الَّذِينَ عَرَضُوا فِيهَا آرَاءَهُ فِي عُلُلِ الْفَضْعُفِ وَشَفَعُهَا بِمَا يَقْتَرَحُهُ لِعَلاجِ ذَلِكَ الْفَضْعُفِ وَالْوَقْفُ بِهِ عَنْدَ حَدِّهِ وَاستِصْبَالِ أَسْبَابِهِ وَدُوَاعِيهِ .

فَهُوَ فِي كِتَابِ «أَمِ القرى» يَخْتَارُ أَسْلُوبَ الْمَسَاجِلَةِ بَيْنَ طَائِفَةٍ مِّنْ أَصْحَابِ الْآرَاءِ لِيُعَرَّضَ عَلَى لِسَانِ كُلِّ مِنْهُمْ وَجْهَةً نَظَرٍ يَشْرَحُهَا مِنْ جَانِبِهِ وَيَتَلَقَّ الرَّدَّ عَلَيْهَا مِنْ مُخَالِقِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَلُ الْفَضْعُفَ بِالْجَهْلِ وَمَنْ يَعْلَلُ بِالْفَقْرِ أَوْ يَعْلَلُ بِالْاسْتِبْدَادِ أَوْ يَعْلَلُ بِالْخُورِ وَالْجِنْبِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ ، أَوْ يَعْلَلُ بِالْتَّوَاكِلِ وَالْتَّسْلِيمِ لِلْمَقَادِيرِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْقَى التَّبَعَةَ فِيهِ عَلَى الْأَمْرَاءِ أَوْ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَوْ عَلَى الْخَاصَّةِ دُونَ الْعَامَةِ ، أَوْ عَلَى الْعَامَةِ دُونَ الْخَاصَّةِ ، وَيَعُودُ بِاللَّامَةِ تَارَةً عَلَى

المسلمين وتأرة على أعداء الإسلام . ثم يتراءى للقارئ من بين مطارات الأفكار ومذاهب الحوار مبلغ كل علة من الآخر وبلغ كل أثر من الأصالة في الضرر ، وبلغ الاشتراك بينها في التأثير ، وأيها أحق بالابداء أو أحق بالإرجاء .

ولأنما يطلع القارئ في الواقع على رأى مفكر واحد يذهب بالنظر في شتى مذاهبه ويراجع نفسه فيها يعن له من خواطره التي طرأت له فامتحنها وثبت عليها أو عدل عنها .

أما أسلوبه في كتاب «طبائع الاستبداد» فهو أسلوب التقسيم واستيفاء الكلام على كل موضوع من الموضوعات ، أخذنا ورداً ، وشرعاً واستدراكاً ، وتقليلياً للفكرة على وجهها ، كما تطورت في ذهن صاحبها وتقدمت بين بداعتها ونهاية التفكير فيها ، وكل موضوع من موضوعات الكتاب عن الدين أو عن المجد أو عن العلم أو عن المال أو عن السياسة فهو مبحث مفروغ منه بين جوانب المناقشة وخواطر الظن والاستدراك وأدلة التشكيل والتفسيد ، مما ينم على بحث طويل في ذلك الموضوع لم يقف عند سوانحه الأولى من الظن العاجل والرأي الفطير .

فناليسير - من أجل هذا - أن نسمى دعوة الكواكب فلسفة اجتماعية أو نسميتها مذهبياً فلسفياً ينتظم بين مذاهب الحكام المصلحين ، لأنها استلزمت من تفكير صاحبها كل ما يستلزم مذهب الفيلسوف من التحقيق والرواية والمراجعة والتوفيق بين النقادين ووجوه الاعتراض .

ولستنا لم ننشأ أن نسميها فلسفة ولا مذهبياً فلسفياً كسائر المذاهب التي عرفت بأسماء أصحابها أو بعناوين موضوعاتها ، لأن الدعوة هنا عمل يزيد على التفكير ، ولا ينتهي عند مجرد التفكير .

فالدعوة التي تسمى «فلسفة» تدور على البحث والنظر ثم ترك العمل على قواعدها لمن يؤمن بها ويقدر على تطبيقها ، وقد يكون البحث فيها مطلقاً غير محدود بزمن الأزمنة أو بلدان البلدان ، ولكن يرسل على إطلاعه كما ترسل هـقوانيـن الـريـاضـيـة لـمن يـخـتـرـعـ لـهـ أدـواتـهاـ ويـوـفقـ بـيـنـهاـ وـبـيـنـ مـطـالـبـهاـ . فـهـىـ فـكـرـةـ مـعلـقةـ عـلـىـ زـمـنـ مـجـهـولـ وـمـجـالـ غـيرـ مـحـدـودـ .

ولا نحسب أننا نسمى دعوة الكواكبى بامتهنها الصحيح إذا مهيناها « مذهبًا فلسفياً » لقول إنها هي « مذهب الكواكبى » في الإصلاح . فان المأوف عن المذاهب أنها طريق يقابل طريقاً آخر أو طرقاً متعددة لتوضيح رأى أو تنفيذ عمل ، ودعوة الكواكبى قد بلغت إلى مرحلة وراء المذهب ووراء الاختلاف عليه وجاوزت المذهب إلى القرار الذى يوضع موضع التتنفيذ ولا يعوقه عنه إلا أن يتولاه العاملون .

صاحب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » لا يعرض لنا فكرة معلقة على مجال مجهول ، ولا يعرض لنا مذهبًا نقابل به مذهب يعقب عليه ، ولكنه يعرض لنا « برنامجاً » يتبعه عمل ، وقراراً تنتهي إليه مذاهب الخلاف .

* * *

إن ذلك النهج « العملى » هو أجدر المناهج أن ينتظر من عقل كعقل الكواكبى فيما ورثه من استعداد الفطرة وفيما تعوده بتربيتها وعمله ، فانه نشأ في بيته لم تزل من قديم الزمن ملتقى لحركات النشاط والذآب من أنحاء العالم ، وتربي في أسرة تعرف الصناعة كما تعرف تكاليف الرئاسة الدينية والدنيوية ، وتولى أعمال الإدارة والتنظيم في كثير من الوظائف التي يناظر بها تنفيذ الخطط وإعداد المشروعات للتنفيذ ، وكاد أن يكون كل تقرير كتبه برنامجاً لعمل يؤديه أو « مشروعًا » لبرنامج يقترح تنفيذه على غيره .

ونكاد نجزم بأنه يقى في حلب قبل هجرته الأخيرة منها لأنه لم يكن قد فرغ من التفكير ولم تتقرر في ذهنه فكرة صالحة للإنجاز أو صالحة لإيقاع غيره بإنجازها . فلما نضجت في ذهنه هذه الفكرة وحصل في يديه برنامج العمل لم يكن في طاقته أن يبقى بعد ذلك ولو تهيات له في بلده أسباب البقاء . لأن بقاء المصلح العامل ولديه خطة مختصرة للعمل خليق أن يقلقه أشد من قلق الخوف والخطر ، وحبس لقواه الجياشة بالحركة أشد من حبس القيد والاعتقال ، وقد يكون غريباً من رجل غير الكواكبى أن يمكث في بلده ويؤلف الكتب التي تهدده في مأمه ، بل تهدده في حياته ، ولا يخطر له أن يعقد العزم على الهجرة إلى بلد آخر يسطر فيه ما يدور في خاطره وهو آمن على نفسه وعلى ثمرات تفكيره .

ذلك غريب من رجل غير الكواكب قد يقنع بالتفكير ويحسب أنه لباب دعوته التي يتم بها رسالة حياته ، فإذا خطر له أن ينجو بتلك الرسالة من الخطأ أو المصادر نجا بها وهي خاطر في ذهنه قبل أن يجرى بها القلم فكرة مسجلة على ورق مقروء .

أما الرجل العامل بقطرته فالتفكير عنده تمهيد لرسالته ينتهي فينتهي معه القرار وتبدأ الحركة ، وإنه ليفكر ويراجع فكره ويستطيع القرار على التفكير والمراجعة إلى أن يتحول الفكر إلى برنامج مفصل وخطة محددة ، ويومئذ لا قرار ولا انتظار .

فلا عقد النية على الهجرة خرج من بلده وفي جعبته ذلك البرنامج الخيط بكل جزء من أجزاء الدعوة وكل مقصد من مقاصد الإصلاح .

خرج من بلده وفي جعبته الرسالة التي يخشى عليها ، وغاية ما اتخذه من الخيط أنه لم يعلن اسمه مع إعلان تلك الرسالة ، ولعله آخر الكتمان لأنه أعون له على الحركة والتنقل بين الأقطار ، واستر له وملن يتحرجون من لقائه إذا انكشفت مقاصده وتبين العاجل والأجل من نياته ومساعيه ، ولا بد من مثل هذه الخطة في دور الاستطلاع وجس النبض وزن الخطى بين العجلة والأنفة .

* * *

وأياً كان النص الذي انتهت إليه عبارة المؤلف في كتابيه الباقيين لقد كانت أعمال الإصلاح كما ينبغي أن يتولها العاملون متى صحت عزيمتهم عليها مائة أمام بصيرته جلية العالم في خلده ، بعضها مشرح مسبباً في إيجاز وسهولة ، وبعضها مذكور كما تذكر رءوس المسائل للعودة إليها والإفادة فيها ، ولكنها تكفي بتفصيلها وإيجادها لتنسيق برنامج العمل والإحاطة بأصوله وفروعه فيما يشمله الإصلاح من شؤون الدين والدنيا .

وما من شيء يعزز البرنامج الذي يحيط بمتطلبات الإصلاح في مسائل الدين والدولة وسائل السياسة والأخلاق وسائل الثقافة والثروة الاقتصادية وال التربية الاجتماعية ، وهذه هي المسائل التي احتواها الكتابان على تفصيل أو إجمال ،

وعلى جلاء وثقة فيها فضل وفيها أجمل . ومن هذين الكتابين نستخلص ذلك البرنامج الشافل بغير كلفة ولا مشقة ، ونؤثر أحياناً أن نعتمد على عبارة المؤلف محافظة على منهجه وإثباتاً لما يتخلل السطور من مقاصده ونياته .

وسرى بعد الإحاطة بآرائه ومقترحاته أن دعوة هذا المصلح العامل تنتظم في عداد « الفلسفات » التي اشتهر بها حكماء الإصلاح والنظر ، ويصبح أن تسمى بالفلسفة الكواكبية في سياق المذاهب والأراء التي تنسب إلى أصحابها من الحكماء ، وإنما يختار لها اسم « البرنامج » لأن فيها مزية ليست في مذاهب الفلسفة : إذ هي فلسفة محضرة للعمل ، بلغة في باب الأعمال ، لأنها توافق مقتضي الحال .

الدين

يتلخص الإصلاح الديني عند الكواكبى في تحرير الإسلام من الجمود والثراقة .

وأنظر آفاث الجمود عنده أنه جعل المسلمين صورة مقلدة ونسخة مستعارة ، فهم مسلمون للدعة أسلافهم وليسوا بالمسلمين للدعة أنفسهم ، وهم مسلمون بالتبعية وليسوا مسلمين بالأصلالة ، يدينون بالإسلام انتقاداً منهم لمن تقدمهم ولا ينسبون أنهم أهل للخطاب على حدتهم ، وقد صدق فيهم ما نعاه الكتاب المبين على القاتلين : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنما على آثارهم مقتدون » .

وعلاج هذه الآفة أن يعاد بالدين إلى بساطته الأولى التي يسرت فهمه لمن قبلوا دعوته في صدر الإسلام ولا تزال تيسره لمن يدعون إليه على بساطته وسهولته بين أبناء الشعوب الفطرية .

ومن واجب المسلمين في كل زمان أن يفهموا دينهم وأن يعرفوا حكمة فرائضهم وعقائدهم ، فليس من الإيمان الصحيح أن يحال الفهم على من سلف وأن ينقاد الخلاف كله لغير ما عرف ، ولا يمكن إيمان المسلم بغير الفهم والاجتهد في كل موطن من العالم وفي كل حقبة من الزمن ، فإن تعذر اجتهد المسلمين جميعاً فقيام العلماء بأمانة الاجتهد فرض كفاية لا يسقط عن جيل من أجيالهم ولا سلامه لمن يسقطونه عن أنفسهم .

ولا يغنى المقلد من الفهم الذي هو قادر عليه . فإن « العامة يهدى بهم العلماء مع بيان الدليل بقصد الإقناع . فالعلماء لا يمسرون على أن يفتوا في مسألة مطلقاً مالم يذكروا معها دليلاً من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، حتى لو كان المستفتى

أعجمياً أمياً لا يفهم ما الدليل ، وطريقتهم هذه هي طريقة الصحابة كافة والتابعين عامة والأئمة المجتهدين والفقهاء الأولين من أهل القرون الأربع وأجمعين ١ .

والمقلد أن يختار بين أقوال المجتهدين ولا حرج عليه، « فان البعض وصفوا المقلد لأحد المذاهب إذا أخذ في بعض الأحكام بذهب آخر ملتفقاً ، واستعملوا لفظة التلبيق في مقام التلاعب بالدين أو الترقيق القبيح . والحال ليس ما اسموه بالتلبيق إلا عين التقليد من كل الوجوه، ولا بد لكل من أجاز التقليد أن يحيزه . لأنه إذا تأمل في القضية يجد القياس أنه هكذا يجب على كل مسلم عاجز عن الاستهدا في مسألة دينية بنفسه ويسأل عنها أهل الذكر . . . وعلى هذا الاعتبار ما المانع للمقلد أن يتعلم كل مسألة من الطهارة والغسل والوضوء والصلة من مجتهد أو فقيه تابع لمجتهد؟ . . . ولا يعقل أن يكلف هذا المقلد بأخذ دينه كله من عالم واحد . لأن الصحابة رضى عنهم مع اجتہادھم وتخالفهم في الأحكام كان يصل بعضھم خلف بعض مع حکم المؤتممنھم حسب اجتہادھ بعدم صحة صلاة إمامۃ .. ٢ ١) .

* * *

ويرى الكواكبى بحق ، أن الجمود والخرافة لا محل لها بين أتباع دين متسم بالبساطة والجلاء يأخذه خاصتهم وعامتهم ، مأخذ الفهم والبينة على حسب حقوقهم ومصالحهم ، فان التدين على هذا العرف بمثابة بعثة متتجددۃ يتلقاها المسلمون أبداً وكأنهم هم المسلمين الأولون جيلاً بعد جيل .

ولم ينفل الكواكبى عن خطته العملية لتحقيق الإصلاح في هذا الباب . فانه يذكر صفة العالم الذى يؤهله علمه للاجتہاد بالرأى والإقناع بالدليل ، ويذكر موضوعات الكتب ودرجات هذه الموضوعات التي يتکفل علماء الإسلام بنشرها للعمل بها أو لفائدة المقلدين على تفاوتهم في القدرة على الاستفادة من المطالعة والمراجعة .

(١) أم القرى

فينبغي للعالم المجتهد :

«أولاً» أن يكون عارفاً باللغة العربية المصرية القرشية بالتعلم والمزاولة معرفة كفاية لفهم الخطاب لا معرفة إحاطة بالمفردات ومجازاتها ويقواعد الصرف وشواذه والنحو وتفصيلاته والبيان وخلافاته والبديع وتتكلفاته مما لا يتيسر لاقناعه إلا من يقى ثلثي عمره فيه ، مع أنه لا طائل تحته ولا لزوم لأكثره إلا من أراد الأدب .

«ثانياً» أن يكون قارئاً كتاب الله تعالى قراءة فهم للمتادر من معاني مفرداته وتراسيمه مع الاطلاع على أسباب النزول وموقع الكلام من كتبها المدونة المأذوذة من السنة والآثار وتفاسير الرسول عليه السلام أو تفاسير أصحابه عليهم الرضوان ، ومن المعلوم أن آيات الأحكام لا تتجاوز المائة والخمسين آية عدّا .

«ثالثاً» أن يكون متضالعاً في السنة النبوية المدونة على عهد التابعين وتابعهم أو تابعي تابعهم فقط . بدون قيد بمائة ألف أو مائتي ألف حديث ، بل يكتفي ما كفى مالكا في موطأه وأحمد في مستنه . ومن المعلوم أن أحاديث الأحكام لا تتجاوز الألف وخمسمائة حديث أبداً .

«رابعاً» أن يكون واسع الاطلاع على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأحوالهم من كتب السير القديمة والتواريخ المعتبرة لأهل الحديث كالحافظ الذهبي وابن كثير ومن قبلهم ، وكابن جرير وابن قتيبة ومن قبلهم كذلك ، والزهرى وأضرابهم .

«خامساً» أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل التعليميين والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيٹاغورية وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء وزعزعات المعتزلة وإغرابات الصوفية وتشددات الخوارج وتخريجات الفقهاء المتأخرین وخشويات الموسوين وتزویقات المرائین وتمریقات المدرسین . وعلى العلماء المجتهدين أن ييسروا الكل من المقلدين أن يأخذ من أحكام الدين ما هو أهل لفهمه حسب طاقته . فيقسمون المسائل « على مراتب في متون مخصوصة فيعقدون لكل مذهب من المذاهب كتاباً في العبادات ينقسم إلى أبواب وفصوص تذكر في كل منها الفرائض والواجبات فقط . وتنطوى ضمنها الشرائع والأحكام

بحيث يقال إن هذه الأحكام في هذه المذاهب هي أقل ما تجوز به العادات ، ويعقدون كتاباً آخر ينقسم إلى عين تلك الأبواب والفصول تذكر فيها السنن بحيث يقال إن هذه الأحكام ينبغي رعايتها في أكثر الأوقات . ثم كتاب ثالثاً مثل الأولين تذكر فيه سنن الزوائد بحيث يقال إن هذه الأحكام رعايتها أولى من تركها . وعلى هذا النسق يوضع كتاب للمنتهيات يقسم إلى أبواب وفصوص تعد فيها المكرفات والكبائر وكذا الصغار والمكرهات ، ومثل ذلك تقسم كتب المعاملات على طبقات من الأحكام الإجتماعية أو الاجتهادية أو الامتحانية . ويتمثل هذا الترتيب بسهولة على كل من العامة أن يعرف ما هو مكلف به في دينه فيعمل به على حسب مرتبته وإمكاناته . وبهذه الصورة تظهر «سماحة الدين الخفيف » (١) .

* * *

ويؤخذ من جملة الشروح والمساجلات في كتابي «أم القرى» و«طباخ الاستبداد» ، أن الكواكب يهم أشد الاهتمام بإغلاق الباب على طوائف الوسطاء المترفين في المسائل الدينية ، إذ لامنفذه لواسطة الوسطاء في دين يعرفه المجتهدون من أتباعه في كل زمان ، ويعرفه المقلدون على بساطته الأولى مع السؤال عن الدليل الواضح عند التباس الأمر عليهم بين المباح والمنوع .

ولكن هؤلاء الوسطاء يكثرون ويتشاربون حيث يحاط الدين باللغايات والأسرار ويتوارى خلف حجب الغموض والتهويل ويكتنف فيه الاجتهاد بالدليل والسد المعلوم ، ومن ثم تنجي الحاجة إلى الوسطاء من أشباه الكهان وأدعية الخوارق والكرامات ، ومن يستغلون الدين لخدمة أنفسهم أو لخدمة الحاكمين المسخرين لهم على سنة التبادل في المنفعة والتعاون على التضليل وقيادة الرعية المستسلمة بالتفويه والتضليل .

قال الأستاذ من فصل الاستبداد والعلم : «إن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل فإذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع ، أى انقلب المستبد رغم طبعه إلى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام» .

واستغلال الجهل على ضروب تتسع فيها الحيلة لطوائف شتى من المشعوذين

(١) أم القرى .

والدجالين وأصحاب السحر والتعاويذ من تروج بضائعهم مع الغفلة والرهبة وتنكشف حقيقتهم مع الفهم والحرية ، ومنهم علماء السوء وأدعية التصوف والعبادة وأشخاص من المدرسون الذين يسمون أنفسهم بأهل الباطن ويعنفهم أن يجعلوا السر حكراً ، ليستأثروا بتجارته ويساوموا عليه في أسواق المطامع والدسائس مساومة الغبن والخداع .

قال من فصل الاستبداد والدين في طبائع الاستبداد : « إن قيام المستبددين من أمثال أبناء داود وقسطنطين في تأييد نشر الدين بين رعاياهم ، وانتصار مثل فيليب الثاني الأسباني وهنري الثامن الإنجليزي . . . والحاكم الفاطمي والسلطان الأعاجم المنصرين لغلاة الصوفية والبانين التكاكايا لم يكن ذلك كله إلا بقصد الاستعانتة بالدين أو بأهل الدين على ظلم المساكين »

ويرى الكواكب أن المتشددين من رجال الدين مسئولون كالحكام المستبددين عن شيوع التصوف الفاسد بين العامة وأشباه العامة من المسلمين المتقدمين والمتاخرين ، لأنهم جعلوا الدين حرجاً ثقيلاً على النفوس فهدوا الطريق لمن يبيخون المحظورات باسم العلم « الباطن » والمعروفة الخفية التي ترفع التكليف عن الواصلين إلى الهدى من غير طريق الشريعة الظاهرة ولو لا العنت المرهق من أولئك المتشددين لما راجت سوق التصوف المكذوب . . . قال يلسان الشیخ السندي : « فبناء على هذا التصنيف صار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كل التهون ، وهم الفائلون إن العلم حجاب ، ويلمحه تقع الصلحـة ، وبنظرـة من المرشدـ الكامل يصيرـ الشـقـ ولـيـا ، وبنـفـحةـ فيـ وجـهـ المـرـيدـ ، أوـ نـفـلةـ فيـ فـهـ ، تـطـيـعـهـ الـأـفـعـيـ وـتـحـترـمـهـ الـعـرـبـ الـتـىـ لـدـغـتـ صـاحـبـ الغـارـ عـلـيـهـ الرـضـوـانـ ، وـتـدـخـلـ تـحـتـ أـمـرـهـ قـوـاتـنـ الطـبـيـعـةـ ، وـهـمـ المـقـرـرـوـنـ بـأـنـ الـوـلـاـيـةـ لـأـيـنـافـهـ اـرـتكـابـ الـكـبـائـرـ كـلـهـاـ إـلـاـ الـكـذـبـ ، وـأـنـ الـاعـتـقـادـ أـوـلـىـ مـنـ الـإـنـقـادـ ، وـأـنـ الـاعـتـرـاضـ يـوجـبـ الـحـرـمـانـ ، أـىـ أـنـ تـحـسـينـ الـفـنـ الـفـاسـقـ وـالـفـجـارـ أـوـلـىـ مـنـ الـأـمـرـ بـالـعـرـوـفـ وـالـنـهـىـ عـنـ الـمـنـكـرـ ، إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـأـقـوـالـ الـمـهـوـنـةـ لـلـدـينـ وـالـأـعـمـالـ الـتـىـ تـبـعـلـهـ نـوـعـاـ مـنـ الـلـهـوـ الـذـىـ تـسـتـأـنـسـ بـهـ نـفـوسـ الـجـاهـلـينـ . »

قال : « على أن الناس لو وجدوا الصوفية الحقيقيين . وأين هم ؟ .. لفروا منهم فرارهم من الأسد . إذ ليس عند هؤلاء إلا التوصل بالأسباب العادلة الشاقة

لتطهير النفوس من أمراض إفراط الشهوات وتصفية القلوب من شوائب الشره
في حب الدنيا وحمل الطيائع بوسائل الدهر والترى على الاستئناس بالله وبعبادته
عوضاً عن الملاهي المضرة ، طلباً للراحة الفكرية والعيشة المهنية في الحياة الدنيا ،
والسعادة الأبدية في الآخرة . وأين التهور السالف البيان لصوفية الزمان من هذه
المطالب التهذيبية ؟

* * *

على أن مصلحنا العامل قد نجى به إيمانه من تلك النظرة الضيقة التي تغلب على
كثير من المصلحين الواقعين الذين يقصرون نظراتهم إلى الإصلاح الديني
على الشعائر وظواهر العبادات كدليلاً لهم في الاهتمام بما تقع عليه المشاهدة ويحصره
الحسن والاكتفاء به عمما وراءه من طوابيا النفس وكوامن الضمير .

فلم يكن « الكواكب » مصلحاً دينياً على هذا النحو الضيق المحدود ، بل
كانت عنایته بالشعائر والظواهر الحسوسية سبيلاً إلى تصحيح جوهر الدين في أصوله
التي انطوت عليها الطيائع الإنسانية ، وكان إيمان الضمير عنده هو قوام الدين
كله ، وفضيلة الإسلام في اعتقاده أنه دين الإيمان على خلاف أديان المراسيم
والتقاليد التي أنسنتها الوثنية وبقياها فأوشكت أن تصبح كلها أشكالاً وصوراً
محردة من روح العقيدة وهداية الإلحاد .

فإذا انقسمت الديانات إلى ديانات إيمان وديانات مراسم وتقاليد فالإسلام
في طبيعة الديانات التي يغلب فيها الإيمان على المراسم الشكلية والتقاليد التقليدية
وتفتح الباب على مصراعيه لوساطة الكهان وسلطان المهاكل والمخارib .

وفي غير موضع من مساجلاتة يذكر هذا الإيمان الأصيل في البديهة الإنسانية
 فهو تارة « ناموس شريف واحد موعظ في فطرة الإنسان » ، وهو إذعانه الفطري
للقوة الغالبة ، أي معرفته الله بالإلحاد الفطري الذي هو إلحاد النفس رشدتها
وإلحادها فجورها وتقوتها . ولا ريب أن هذه الفطرة الدينية في الإنسان علاقة
عظمى بشئون حياته لأنها أقوى وأفضل وازع يعدل سائر نواميسه المضرة ويخفف
مرارة الحياة التي لا يسلم منها ابن أثى . . .

ويعود بعد قليل فيقول : « إن النوع الإنساني مفظور على الشعور بوجود
قوة غالبة عاقلة لا تتكيف تتصرف في الكائنات على نواميس منتظمة . . . وإن

هذا الشعور يختلف قوة وضيقها حسب ضيق النفس وقوتها ويختلف الناس في تصور ماهية هذه القوة حسب مراتب الإدراك فيهم أو حسبما يصادفهم من التلاقى عن غيرهم . وذلك هو الضلال والمداية . على أن الضلال غالب لأن موازين العقول البشرية مهما كانت واسعة قوية لا تسع ولا تحمل وزن جبال الأزلية والأبدية . .

ثم يقول بعد استطراد : « إن أصل الإيمان بوجود الصانع أمر فطري في البشر كما تقدم ، فلا يحتاجون فيه إلى الرسل وإنما حاجتهم إليهم في الاهتمام إلى كيفية الإيمان بالله كما يجب من التوحيد والتزيه » .

وقد ثبت عنده كما قال : « ما يقرره الأخلاقيون من أنه لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقاً . بل كل إنسان يدين بدين إما صحيح أو فاسد من أصل صحيح ، وإما باطل أو فاسد من أصل باطل »

ومن ثم يتلخص كل إصلاح ديني نهض به الكواكب في تصحيح الإيمان واعتبار الشعائر والفرائض آية على صحة الإيمان ، تدل على سلامته بمقدار سلامتها من تشويهات الوثنية وعوارض الشرك والزيغ عن الوحدانية ، ولا بقاء للظلم والفساد مع هذا الإيمان ، ولكنها قد يقىان ويطول بقاوها مع قيام الشعائر التي فارقتها روح الدين ولم يتخلص منها غير الرسوم والأشكال .

قال في كلامه عن الاستبداد والترق في طبائع الاستبداد : « ولا أظنكم تجهلون أن كلمة الشهادة والصوم والصلوة والحج و الزكاة كلها لا تغنى شيئاً مع فقد الإيمان ، إنما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياماً بعادات وتقليدات وهو سات ، تضيع بها الأموال والأوقات » .

* * *

هذا الإيمان هو قوة الإسلام ، وهو مبعث الغيرة التي تثير المؤمن على البغي والغشم لأنهما استعباد يأنف منه من يرفض العبادة لغير الله .

ولهذا يعقب الكواكب بعد تلك العبارة قائلاً : « إن الدين يكلفكم إن كنتم مسلمين ، والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقلين ، أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهداً ، ولا أقل في هذا الباب من ليطانكم البغضاء للظالمين والفاشين » .

* * *

وما يذكر من مخرجات الإصلاح الديني في عصر الكواكب بصفة خاصة أن أزمه لم تكن أزمة إصلاح ولا أزمة شعب يعاني مشكلاته الاجتماعية من هذه الناحية . ولكنها كانت أزمة الدين نفسه ، بل أزمة العقيدة الروحانية على اختلاف الأديان في بلاد الحضارة . لأنها كانت أزمة الاصطدام بين الدين والعلم من أواخر القرن الثامن عشر إلى الحقبة التي نشأ فيها الكواكب في القرن الذي تلاه ولاحقته آثاره ولم تزل تلاحقه إلى أخيريات أيامه في أوائل القرن العشرين .

وقد اصطدمت العقائد الدينية في الغرب بكشف العلم الحديث ومذاهب التفكير العصرية فاضطررت الأفكار وشاعت الشكوك وتوزع الكثيرون من الناشئين إلى التعطيل وإنكار الدين واقترب الإنكار باباحة المحرمات والترخيص في الشهوات والاسترسلام مع غواية الحياة المادية التي وافقت أهواء المنكرين ، فمخيل إلى الناس في أمم الحضارة الغربية أن الدين مسألة مفروغ منها قد لحقت بآثار القرون الغابرة ، وأن التحدث عن الإصلاح الديني مشغلة فراغ يضيع فيها الوقت على غير جدوى .

واقربت هذه الصدمة من الشرق مع اقتراب العلوم الحديثة والدعوات الاجتماعية المتطرفة فكان لها أثراً طبيعياً بين المسلمين وغيرهم من الشرقيين على حسب نصيبهم من العلم العصري والتربية الدينية وتقاليد المعيشة البدوية .

فن المتعلمين على النظم الأوروبية طائفة أخذت بالقصور من العلم الحديث وقل نصيبها من معرفة الدين واستهواها حب التشبيه بالأقواء الظافرین وخليبتها فتننة الحضارة وزخرف الحياة المادية فتحلت من أواصر دينها وهان عليها أمر العقيدة وأمر الوطن فلم يبق لها من الغيرة الدينية ولا من النخوة القومية غير المظهر والعنوان .

والكواكب ينقض يديه من هذه الطائفة ولا يترجى منها خيراً لإصلاح دينها ولا لإصلاح دنياها ، وفيما يقول من كلامه في الاجتماع الثامن من مؤتمر أم القرى : « وأما الناشئة المتفرنجة فلا تغير فيهم لأنفسهم فضلاً عن أن ينفعوا

أقوامهم وأوطانهم ، وذلك لأنهم لأخلاق لهم ، تتجلّى بهم الأهواء كيف شاعت ،
لابيّعون مسلكاً ولا يسيرون على ناموس مطرد ، لأنهم يحكّمون الحكمة
فيختارون بدينهما ولكن لا يعمّلون به تهاونا وكسلاً ، ويرون غيرهم من
الأمم يتبااهون بأقوامهم فيستحسنون عادتهم وميّزاتهم فيميلون لمناظرهم
ولا يقوون على ترك التفرنج كأنهم خلقوا أتباعاً ، ويجدون الناس يعشقون
أوطانهم فيندفعون للتشبه بهم في التشبيب والإحساس فقط دون التشبيث
بالأعمال التي يستوجبها الحب الصادق ، والحاصل أن شئون الناشئة المترنجة
لاتخرج عن تدبّب وتلوّن ونفاق يجمعها وصف لأخلاق . . . والواهنة
خبر منهم متمسكون بالدين ولو رباء ، وبالطاعة ولو عباء » .

والجامدون الذين ساهموا بالواهنة وقال عنهم لهم متمسكون بالدين ولو من قبيل الرياء ، يفترقون إلى فريقين بين جاهل لا يعرف شيئاً من العلم الحديث ولا من علوم دينه ، ومتعلم درس الدين على أساتذةٍ من المقلدين مزجوا الدين بالخرافة ولم يسلموا من علل الوهن والتفاق ، وكلا الفريقين يجهل علوم دينه كما يجهل علوم عصره وتصديمه هذه العلوم الحديثة صدمة الجديد المستغرب فينفر منها ويترم بها ويخلرها حذرها من الكفر البوح ، ولا يكلف نفسه مثونة البحث ، لأن مجرد البحث فيها مدرجة إلى الكفر وأحبوة من أحابيل الفضلال.

وهذه الطائفة هي «المصاب» الذي يراد الإصلاح الديني لتفعيمه وإخراجه من ظلماته ، فلا أمل في معونته على رسالة الإصلاح .

والطائفة المثلثي – ومنها الكواكبني – طائفة الرواد السابقين الذين أفلتوا من إرهاق الجمود وتمروا على أوهام الخراقة واطلعوا على حظ حسن من العلم الحديث ، فوضجع لهم أنه يرتهن به التقىد و تستمد منه القوة التي يصول بها الأوربيون على بلادهم ، وأنه هو العلم الذي يدعوهم إليه كتابهم ويحضهم عليه في كل آية من آيات الأمر بالتفكير والتدبر والنظر في ملوكوت السماء والأرض والعمل الصالح في سبيل الدين والدنيا .

وتنقسم هذه الطائفة أيضاً إلى فريقين: أحدهما يرى أن العلم الحديث مطلوب مياح يل فرضية واجبة توافق الدين ولا تناقضه في جملتها ولا في تفصيلاتها.

والفريق الآخر يذهب وراء هذا الاعتقاد في العلوم الحديثة خطوة أو خطوات ، فيحاول أن يبين مكانها من القرآن الكريم وأن يردها إلى آيات تحتويها وتقبل التفسير بمعانها ، وكذلك صنع الكواكب رحمة الله فيها كتبه بقلمه أو فيها أسنده إلى غيره ، وأفاض فيه بكلامه عن الاستبداد والدين في طبائع الاستبداد حيث يقول :

« .. لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا في آيات القرآن آيات من الإعجاز ، ورأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن لإعجازه بصدق قوله : « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

« برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان . ومثال ذلك أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبايع كثيرة تعزى لكاشفتها وخترعاها من علماء أوروبة وأمريكا ، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه .

« وذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الكون هي الأثير ، وقد وصف القرآن بهذه التكوين فقال : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان)

« وكشفوا أن السكاثنات في حركة دائمة ، والقرآن يقول : (وآية لم الأرض الميتة أحبتها) . إلى أن يقول : (وكل في فلك يسبحون) .

« وحققا أن الأرض منفتحة في النظام الشمسي ، والقرآن يقول : (أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقا هما) .

« وحققا أن القمر منشق من الأرض ، والقرآن يقول : (أفلابرون أنا نأتي الأرض نقصها من أطراها) . ويقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر)

« وحققا أن طبقات الأرض سبع ، والقرآن يقول : (خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن)

« وحققا أنه لو لا الجبال لاقتضى النقل النوعي أن تميد الأرض أى ترنج في دورتها ، والقرآن يقول : (وأنني في الأرض رواسى أن تميد بكم) .

« وَكَشَفُوا أَنَّ التَّغْيِيرَ فِي التَّرْكِيبِ الْكَيْمَوِيِّ بَلْ وَالْمَعْنُوِيِّ – نَاثِيٌّ عَنْ تَخَالُفِ نَسْبَةِ الْمَقَادِيرِ ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ : (وَكُلُّ شَيْءٍ عَنْهُ بِمَقْدَارٍ) .

« وَكَشَفُوا أَنَّ لِلْجَمَادَاتِ حَيَاةً قَائِمَةً بِعَاءِ التَّبْلُورِ ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا) .

« وَحَقَّقُوا أَنَّ الْعَالَمَ الْعَضْوَى – وَمِنْهُ الْإِنْسَانَ – تَرَقَّى مِنَ الْجَهَادِ ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا مِنْ سَلَالَةِ طِينٍ) .

« وَكَشَفُوا نَامُوسَ الْلَّقَاحِ الْعَامِ فِي النَّبَاتِ ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ : (خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا مَا تَبَتَّ أَرْضُنَا) . وَيَقُولُ : (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتِّيٍّ) ، وَيَقُولُ : (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) ، وَيَقُولُ : (وَمِنْ كُلِّ الْبَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ) .

« وَكَشَفُوا طَرِيقَةَ إِمسَاكِ الظَّلِّ أَيِّ التَّصْوِيرِ الشَّمْسِيِّ ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ : (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلِّ وَلَوْ شَاءَ بِجَعْلِهِ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) .

« وَكَشَفُوا تَسْيِيرَ السُّفُنِ وَالْمَرْكَبَاتِ بِالْبَخَارِ وَالْكَهْرِيَاءِ ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ بَعْدَ ذِكْرِ الدَّوَابِ وَالْجَوَارِيِّ بِالرَّيْحِ : (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكِبُونَ) .

« وَكَشَفُوا وُجُودَ الْبَيْكَرُوبِ وَتَأثِيرِهِ فِي الْجَدْرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَرْضِ ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ : (وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طِيرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيْهُمْ بِحَجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ) .. أَيُّ مِنْ طِينِ الْمُسْتَقْعَدَاتِ يَابَسَ .

« إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمُحْقَقَةِ لِبَعْضِ مَكَتَشَفَاتِ عِلْمِ الْهَيَّةِ وَالنَّوَامِيسِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَبِالْقِيَاسِ إِلَى مَا تَقْدِمُ ذَكْرُهُ يَقْتَضِي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ آيَاتِهِ سِينَكَشْفُ سَرَّهَا فِي الْمُسْتَقْبِلِ فِي وَقْتِهِ الْمَرْهُونِ .. »

* * *

هذه الفكرة الضافية عن التوفيق بين الإسلام والعلم الحديث هي إحدى الأفكار الأساسية في دعوة الكواكب إلى الإصلاح في جميع نواحيه ، إذ كان الإصلاح الديني عنده غير منفصل عن إصلاح المجتمع كله في شؤونه الدنيوية ،

وكانت فكرة ملزمة له منذ أخذني الاطلاع على مراجع العلوم العصرية ، فان اطلاعه على تلك الكشفوف التي أحصاها جميعاً لا يتم في وقت واحد ولا بد له من أوقات متتابعة يتخللها النظر والتأمل ويعود إليها بالمراجعة والمقارنة . فان لم تكن فكرته هذه مما استوحاه في مطالعاته الطويلة فعلله قد استوحاهما من دعوة التوفيق بين الدين والعلم الذين سبقوه إلى النظر في "مشكلات العقيدة والتفسير" منذ دعوه الحاجة إلى وحدة التشريع . كما حدث في الدولة العثمانية للتوفيق بين الأقضية المختلفة التي تطبق على رعاياها حسب اختلافهم في الجنس والملة ، وسواء خططت له فكرة الوفاق بين الإسلام والعلم الحديث ابتداء من أثر مطالعاته الخاصة أو كانت إحدى خواطر العصر الشائعة على ألسنة المستشرقين لقد تطورت في ذهنه وعاود النظر فيها حيناً بعد حين سنوات غير قليلة . فقد كانت في ذهنه قبل أن يكتب «أم القرى» وظلت في ذهنه إلى أن أودعها مقالاته عن طبائع الاستبداد وزاد عليها ما استفاده من مطالعاته في هذه الأثناء .

وما يلاحظ أن هذه الكشفوف العلمية التي أوجز الإشارة إليها يوشك أن تحيط باحصاء كشوف العلم الحديث في المسائل الكونية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كأنه ينقلها من سجل محفوظ ، وهي ملاحظة ينبغي أن تنبئه إليها لنعلم منها قوة اندفاع الأفكار الحديثة إلى البلاد الشرقية ومبني سريانها بين من يعرفون اللغات الأوربية ومن يجهلونها . فان الكواكب لم يكن على علم بلغة من اللغات الأوربية يساعدة على المطالعة فيها ، ولكنه قرأ أخبار الكشفوف الحديثة واستقصاها كما يستقصيها غير المختصين بها من الأوربيين أنفسهم في بلادهم ، وتلك علامة قوية من علامات الصدمة التي أحسها الشرق بعد هزيمته أمام الغرب في غارات الاستعمار ، ولنا أن نقول إنها كذلك علامة على اليقظة السريعة بعد تلك الصدمة الوجيعة ، لأن سريان الفتوح العلمية مع الفتوح السياسية تشهد للشرق شهادة حسنة بالقياس إلى زمانها ، وأقل ما في هذه الشهادة أنه تلقى الصدمة مفتح العينين ليرى – وهو متتبه من غفوته – جهد ما يقدر أن يراه .

وكان رد الفعل سريعاً كما نتبين الآن من موقف الكواكب وإخوانه رواد الدعوة إلى الإصلاح كان رد الفعل بين مصلحى الإسلام أسلم وأقوم وأدعى

إلى الثقة والرجاء من رده العنيف بين الأوروبيين: هناك كانت الأزمة أزمة الدين عند كثير من اليائسين ، وهنا لم تكن للدين أزمة عند عارفه ، ولكنها أزمة الجهلاء به وبالعلم الحديث بين أهله ، أو كانت أزمة الإقناع والاستهان بخاربة الجهل بالدين الخالد والعلم الحديث على السواء .

ويقتضينا تقدير الكواكبى فى هذا المقام أن نذكر الفارق بين نظرته إلى العلوم الديخيلة التى طرأت على الفكر الإسلامى حوالى القرن الثالث للهجرة ، وبين نظرته إلى العلوم الديخيلة التى تلقاها المسلمون والشرقيون بعد ذلك بعشرة قرون ، وهى من علوم النهضة الأوروبية الحديثة .

إن هذا الفارق بين نظرية الكواكبى إلى أثر الفلسفة اليونانية وأثر العلم العصرى هو آية من الآيات العديدة على استقامة النظرة العملية فى تفكير هذا المصلح الحكيم ، لأنه يتوجه إلى المدى المقصد بعد ثبنته والتيقن منه ، ولا يبد فكره وعزمه فيما يتشعب حوله من مطارات لظنون وأباطيل الأوهام على غير طائل ، وهدفه هنا هو الإصلاح الدينى فى تجربته العملية ، وخلاصة هذا الإصلاح الدينى أنه هو العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى ، وقوامها الأول إيمان الصميم .

فالكواكبى لا يخل - أمام هذا المدى - بفلسفة اليونان من الوجهة النظرية ، ولا يقومها فى ميزان دعوته بقيمتها فى الورق أو قيمتها فى رعوس طلابها المتنطعين لها ، وإنما يحكم على أثرها فى التفكير الإسلامى حين يحكم على مذاهب أتباعها من المسلمين ، وعلى أخلاق الوثنية التى اصطبغت بصبغتها واتخذت لها ألواناً من التصوف الكاذب ، ومن التعمق الأجوف الذى تأباه بساطة الإسلام .

فالفلسفة اليونانية فى ميزانه هي تلك الأخلال العقيمية التى قال عنها بلسان المحدث اليمنى وهو يصف العالم المحتهد ويشرط فيه : « أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل التعليميين ، والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيئاغورية ، وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء وزعزعات المعتزلة وإغرابات الصوفية وتشدیدات الخوارج وتغيريات الفقهاء المتأخرین وحشویات الموسوین ... »

وهي التي عناها حين قال بلسان البلية القديسي عن الدخلاء : « إنهم رجعوا الأخذ بما يلائم بقاباً تزعمون الوثنية فاتخذ العمال السياسيون — ولا سيما المتطررون منهم — هذا التناقض في الأحكام وسائل للانقسام والاستقلال السياسي فنشأ عن ذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباعدة مذهبياً ، متعددة سياسة ، متكافحة على الدوام . وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع بها أعداؤها .. »

وتلك الفلسفة التي جعل صلاح المسلمين مرهوناً بتطهير العقيدة الإسلامية من بقاباها ؛ هي منطق الجدل الذي قال إن الغربيين أهلوا وحققوا أنه لا ثمرة له « مع أنهم يعانون بالبحث عن وسائل تفاهم العجماء » .

ونحسب أن حسنات المنطق وفلسفاته التي تتشعب منه أخرى أن تقيع في عيني أنصاره وعشاقه إذا وزناها بين فوائده ومضاره كما لمسها الكواكب في عصره وفيما تقدمه من عصور الثقافة الإسلامية .. فإن أحسن ما في المنطق وفلسفاته الجدلية لا يعلو أن يكون تمرينات عقلية يتدرّب بها الذهن على فتح أبواب البحث في المسائل النظرية ومسائل الغيب — أو ما وراء الطبيعة — التي قلما تسفر عن نتيجة قاطعة في موضوع من موضوعاتها ، ومن خصائص هذه الموضوعات أنها ثقافة فردية يديرها المفكر في تأملاته بينه وبين نفسه ولا تتألف منها دراسة عامة تداولها الجماعات وتنتفع بها في مرافقها ومطالب تفكيرها ، وقد غابت هذه الفلسفات الجدلية عن ميادين الثقافة الأوزرية قبل النهضة العلمية فلم يكن غيابها ليعرّق ظهور العلوم التجريبية ولا ليعرّق ظهور الصناعات والمخترعات التي تفتقت عنها تلك العلوم ، بل يجوز أن يقال إن تلك العلوم قد ظهرت على الرغم من اعتراض المناطقة والمتفلسفين عليها وإنكارهم لوسائلها وأساليبها . إذ كان المناطقة المتفلسفون يصرّون على آرائهم التي تقوم على براهين الجدل والمناظرة ويرفضون ما عدا تلك الآراء من قواعد البحث والتجربة . فغياب الفلسفات الجدلية لم يعطّل في الغرب نهضة العلوم والصناعات ، بل قليلها الذي يقى بين أنصاره وعشاقه هو الذي عطلها وأوشك أن يغلق عليها منافذها .

وهذه هي الفلسفات المنطقية على أحسنها في أضيق حدودها فلا جرم تنزوى

عن أعين أنصارها وعشاقها – فضلاً عن منكريها إذا حكموا عليها بأضرارها ونظروا إلى جرائرها التي تختلف عنها كلما وصلت إلى عقول الجماعات وتلبيست بالمنادب والمعتقدات وانتشرت على الصورة التي تنشر بها الأفكار بين العامة وأشياه العامة ، وتنقل بها من لغة الرموز الخيالية والفروض المحتملة إلى لغة الواقع الجسم والشعائر المحسوسة والأشباح الظاهرة التي تعقلها الجماعات ولا تعقل فيما بينها فكرة مشتركة سواها .

إن أضرار الفلسفات الجدلية كانت حقيقة واقعة في كل أمة تسرىء إليها ، وكان أثراها في الأمة الإسلامية شبيهاً بأثراها بين اليهود وبين المسيحيين وبين أتباع « زرادشت » من المتقدمين والمتاخرين ، بلجاجة لا تنتهي وخصوصيات لا تنحسم ومحاكبات على الصياغات والسفاسف من القول لا طائل تنتها على حال الثبوت أو البطلان ، وبجملة ما يقال عن آثارها في عالم العقيدة أنها تقصد بساطتها وتشوب صفاءها ، وعن آثارها في عالم الثقافة أنها تثير المشكلات ولا تحلها وتشغل مكان العلم ولا تثول به إلى عمل مفيد .

والنظرية العملية في طبيعة الكواكب هي التي زهدته في ذلك المنطق وفلسفاته وأوحت إليه أن البحث في لغة الحيوان الأعجم أولى وأصلح من البحث فيها ، وقد تأصل في روعه هذا الرأي الثابت نتيجة لمطالعاته ونتيجة لمشاهداته الملموسة في وقت واحد .

فن مطالعاته عرف غواصي الفتن التي أشاعها في العالم الإسلامي جدل المتكلسين حول مسألة القدر ومسألة الصفات ومسألة القرآن وخلقه ومسألة الآيات وتأويلاها وأشياه ذلك في مسائل الإمامة الصريحة والمستورة أو الشريعة الظاهرة والعاطفة أو القياس والتقليد وما انتهت إليه هذه المسألة خاصة من اجراء المقلدين على رأي لم يجترئ عليه أعظم المجهدين ، وهو الرأي القائل بتحريم الاجتهاد على المسلمين جميعاً بعد عصر التابعين ، أو على الأكثر بعد تابعي التابعين .

ومن مشاهداته المحسوسة عرف وبالتصوف الكاذب والفلسفة الناقصة على ألف من معاصريه الذين تلقفوا البدع وتوارثوها من دعاء العلوم الدخيلة بين وثنية ويونانية . فقد كان من وبالتصوف الكاذب والفلسفة الناقصة أنه

هدم العلم والعمل، وأفسد الدين والخلق، وأشاع البطالة والإباحة بين من يسمون البطالة « انكالا على الله » ويسمون الإباحة وصولاً يسقط الحدود ويسمح بالرخصة في المحظورات .

رأى الكواكبى أثر العلوم التخيلة في النوبتين الأولى والثانية فاحتكم إلى الواقع وإلى النتيجة العملية في موقفه الحاسم بينهما — فاما العلوم التخيلة فيما مضى فقد كان اثراها مفسدة للعقيدة في بساطتها وملوحة إلى العجز والفتنة في الحياة العامة ، وأما العلوم التخيلة في عصره فقد كان اثراها الواضح قوة لأصحابها وغلبة لهم على الجاهلين بها ، وهداية إلى المصلحة والعمل والمعرفة بأسباب الحياة الواقعية ، ولم تكن هذه المعرفة عنده بحاجة إلى برهان يؤيدها غير نتائجها الماثلة في سياسة الأمم وصناعتها وأدوات نجاحها واقتدارها .

فليست مهمة المصلح الحكيم أن يحارب هذه العلوم التخيلة كما حارب أخوات لها من قبل ، ولكن مهمته على تقدير ذلك أن يرحب بها ويجهد في نقلها واقتباسها ويتخذها سبيلاً من سبل الإصلاح وينظر كيف يقنع باسم الدين من يعارضون الإصلاح باسم الدين ، لأنه جديد ولا محل للجديد عند الجامدين على القديم .

وقد كان موقفه حيال العلوم الحديثة أصح وأصدق من المعارضين لتلك العلوم من رجال الدين الجامدين في أمم العصر الحديث ، ولاسيما الأمة الإسلامية : هم يقولون عن كل جديد إنه باطل وإنه يناقض الكتب المقدسة والوصايا المأثورة ، وهو ومن وقف كموقفه يرد التهمة على أصحابها وينهى عليهم أنهم يعارضون العلم والقرآن معاً ، لأن العلم والكتاب يتفقان ، وما كشفه العلم حديثاً يجدد ما سبق به الكتاب ، أو وأشار إليه .

وكان الكواكبى موقفاً في توفيقاته ، لحسن فهمه كتاب دينه ، وحسن اطلاعه على كشوف العلم الحديث في عصره ، ولم يحدث بعد عصره ما يدعو إلى شيء من الاستدراك على موقفه إلا التفرقة في عصرنا هذا بين النظريات العلمية ومقررات العلم التي بلغت من الثبوت أن تخسب من القوانين الطبيعية أو قواميس الوجود المتفق عليها ، فإذا جاز أن نوفق بين حقائق الكتاب وحقائق العلم المقررة فمن الحسن أن نصطنع الأناة قبل التوفيق بين الكتاب وبين

النظريات التي يتناولها البحث ويتطرق إليها الخلاف بين وجهات النظر ومعارض الآراء ، ونذكر على سبيل المثال تفسير السموات السبع بالسيارات السبع أو تفسير طبقات الأرض في علم « الجيولوجية » بالسبعين الطباقي ؛ فان الكشوف الفلكية قد زادت عدد السيارات ولا تزال تزيدها مع إحكام الرصد وتعتمد النظر إلى طوارق المنظومة الشمسية من المذنبات والنجوم ، وهم يحسبون اليوم سيارات المنظومة الشمسية عانياً عدا الكرة الأرضية والنجوم ، ويحدث مثل ذلك في حساب طبقات الأرض على حسب تعريف الطبقة ومكانها من مدار الكورة الأرضية . فإذا كان من الثابت أن القرآن الكريم لم يستعمل على آية تمنعنا أن نقبل حقائق العلم فقد يقع الخلاف فيما يحسب من الحقائق العلمية وما يحسب من نظريات البحث والتجربة ، وقد يدعو الأمر حتى إلى التفرقة الدائمة بين الحقائق والنظريات ، وحسبنا من كتابنا المبين أنه يأمرنا بالبحث في العلم ولا يصدنا عن حقائقه ولأنظرياته ولا عن التوسل بمحاولات لتحقيق تلك الحقائق أو النظريات .

وبعد نيف وخمسين سنة من قيام الدعوة الكرواكية لازال أساسه القويم الذي اختاره للإصلاح الديني صالحًا للبناء عليه : عقيدة خالصة من شوائب الجهل والسفسطة ، تؤمن بدينها ودنياها على بصيرة .

الدّوله

الكلام على الدولة وعلى نظام الحكم شيء واحد في مصطلحات السياسة على إيجالها ، ولكنه لم يكن شيئاً واحداً في كلام الكواكب ومعاصريه . لأن كلمة الدولة كانت تعنى عندهم « الدولة العثمانية » إذا أرسلت على إطلاقها وكانت لها مسألة خاصة مستقلة بشأنها عن شئون النظم الحكومية ، يحددتها مركز الدولة العثمانية الذي كان في آخريات أيامها على الخصوص نمطاً عجيباً بين الأنماط الدولية يندر نظيره بين دول الشرق والغرب بما لها من تكوين فريد في رئاسة الدولة وأجناس الرعایا وقوام السلطة وموقع البلاد بين القارات الثلاث : أوروبا وآسيا وإفريقيا .

كانت الدولة العثمانية سلطنة أو « امبراطورية » متشعبه تجمع ألفافاً من الأمم التي تختلف بأجناسها وأديانها ولغاتها ومصالحها ، ويدل على مبلغ تشعبها وانقسامها أن الأمم التي خرجت منها واستقلت عن سيادتها بعد ثورات الاستقلال وتقرير المصير زادت على عشر أمم ذات عشر حكومات .

وكان اسم الدولة العثمانية يطلق عليها لأن حكامها من بنى عثمان قبيلة تركية تنعقد ولاية الأمر فيها لسلطانها وقائد جيشه من أبناء قومه ، إذ كان الرعایا الآخرون بمعزل عن جيش الدولة لا يشتراكون في هيئة عسكرية — غير الكتاب المحلية — إلا جنوداً متفرقين لا يتجمعون معًا في فرقه مستقلة .

وكان رئيس الدولة يضيف إلى ولاية السلطنة وقيادة الجيش صفة الخلقة الدينية ولقب « أمير المؤمنين » .

وهي على هذا المركز المخرج تواجه الدول الأوروبية مواجهة العد والقديم الذي تربص به الدوائر وتتألب عليه لتقسيم بلاده بينها أو لإدخالها في دوائر نفوذها

وحياتها ، وقد كاد اسم «الرجل المريض» يغلب على هذه الدولة ويصبح عالماً عليها يجهرون به في خطبهم وأقوال صحفهم ولا يتكلفون كتمانه في معاملاتهم وصفقات التبادل والمساومة بينهم ، وتحيت بلادها باسم «تركة الرجل المريض» تعجيلاً بقسمتها وتوزيع حصصها عليهم قبل أن يتنازعوها ، إذا وقع القضاء المحتوم بين ساعة وأخرى .

كان اسم «الدولة» يدور على الألسنة بين رحابها فتنصرف الأذهان إلى حاضرها ومصيرها في هذا المركز العجيب الذي يؤذن بالزوال — أو بالتبديل على الأقل — في كل آونة ، ولا يؤذن بالاستقرار أو بالطمأنينة إليه .

ومن ثم أصبحت للدولة مسألة خاصة مستقلة عن مسألة النظم الحكومية أو النظم السياسية في ولالياتها .

أصبحت مسالتها مسألة «السلطان» أو الإمبراطور أو أمير المؤمنين الذي يتولاها ، وأصبحت بنية الدولة التي تتكون منها تابعة للفترة التي يتصرف بها ولـي الأمر ، سلطاناً أو إمبراطوراً أو أميراً مؤمناً .

علام تعتمد الدولة في تكوينها ؟ أعلى الأشخاص من الأجناس المفترقة التي لا تجمعها جامعة واحدة ؟ أعلى الجامعة الطورانية إذا كان لابد لها من جامعة سياسية أو روحية تستند لها بين أجزائها ؟ أعلى الجامعة الإسلامية ؟ أعلى الوحدة الاتلافية ؟ أعلى التسلیم بالواقع وانتظار المجهول في مهاب الأقدار ؟

لابد من مبدأ أساسى من هذه المبادئ يرکن إليه صاحب الدعوة إلى المستقبل ويبنى دعوته عليه .

وقد كان برنامـج الكواكـبـي في هذه المسـألـة صـرىـحاـمـحـدوـداـ لاـتـخـنـقـ منهـخـافـيةـ علىـمـنـيـعـتـزـمـالـعـلـمـفـيـهـ ،ـوكـلـمـاـتـخـلـهـمـنـالـحـيـطـةـهـذـاـالأـمـرـالـجـلـلـأـنـهـأـعـلـنـ قـوـاعـدـهـ وـتـرـكـ نـتـائـجـهـ المـحـتـوـمـةـ تـنـكـشـفـ فـيـ حـيـنـهاـ ،ـوـهـيـغـيـرـمـجـهـولـةـ .

وهو يقيم برنامـجـهـ فـيـ مـسـأـلـةـ الدـوـلـةـ وـالـخـلـافـةـ عـلـىـ هـذـهـ القـوـاعـدـ الثـلـاثـ :

- (١) أن ينفصل الملك عن الخلافة .
- (٢) وأن تعود الخلافة إلى الأمة العربية .

(٣) وأن تقوم الخلافة على أساس الانتخاب والشورى والتعاون المتبادل على سنة المساواة بين الأقطار الإسلامية .

ويستند في كل قاعدة من هذه القواعد إلى مراجعه التاريخية كما يستند إلى مقتضيات الضرورة العملية في أحوال العالم الحديث .

فهو يقرر من تحصيله التاريخي أن خلافة بنى عثمان لم تتعقد بها بيعة من حكومات المسلمين ولا من رعاياها ، فلا يقبلها ملوك إيران والمغرب وأئمة الجزيرة العربية الذين لم يخضعوا لسيادة الدولة التركية ، ولا يذكرها المسلمون في صلاة الجمعة إلا حيث يديرون لتلك السيادة في أوضاعهم السياسية . ولم يحدث قبل السلطان محمود العثماني أن تلقب أحد من سلاطين القسطنطينية بلقب الخلافة وإمارة المؤمنين : «إذ صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحياناً تفتنا في الإجلال وغلوّاً في التعظيم ثم توسع استعمال هذه الألقاب في عهد ابنه وحفيديه إلى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعى أولئك الغشاشين الذين يدفعون ويقودون حضرة السلطان الحالي ، للتنازل عن حقوق راسخة سلطانية لأجل عنوان خلافة وهيبة مقيد في وضعها بشرط ثقيلة لا تلام أحوال الملك معرضة بطبعها للقلقة والانزعاج والخطر العظيم . . . »

ويرى من تحقيقه التاريخي أن ساسة الترك لا يقصدون «غير التلاعب السياسي وقيادة الناس إلى سياساتهم بسهولة ، وإرهاب أوربا باسم الخلافة واسم الرأي العام . . . » :

قال بعد أن بين أن مأرب الملك غابت في تاريخ الدولة العثمانية على واجبات الخلافة كما تملها مصالح الأمم الإسلامية على من يستطيع رعايتها : «إنني أذكر لك أنموذجاً من أعمال لهم أتواها رعاية للملك وإن كانت مصادمة للدين .. فهذا السلطان محمد الفاتح – وهو أفضل آل عثمان – قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فرديناند ملك الأراغون الأسباني ولثم مع زوجته ليزابيلا على تمكينهما من إزالة ملك بنى الأحرar آخر الدول العربية في الأندلس .. مقابلة ما قامت لديه روما من خذلان الإمبراطورية الشرقية عند مهاجمة مقدونيا ثم القسطنطينية . وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاه حتى إنه قتل الأمهات لأجل الأجيال . وبينما كان هو يقتل العرب في الشرق كان الأسبانيون يحرقون بقيتهم

فِي الْأَنْدَلُسِ، وَهَذَا السُّلْطَانُ سَلِيمَانُ ضَبَابِقِ إِرَانَ حَتَّى أَجْلَاهُمْ إِلَى إِعْلَانِ الرَّفْضِ ..
ثُمَّ لَمْ يَقْبِلِ الْعُثَمَانِيُّونَ تَكْلِيفَ نَادِرِ شَاهَ لِرْفَعِ التَّفْرِقةِ بِعِجْرَدِ تَصْدِيقِ مَذَهَبِ الْإِمامِ
جَعْفَرٍ، كَمَا لَمْ يَقْبِلُوا مِنْ (أَشْرَفَ) خَانَ الْأَفْغَانِ اقْتِسَامَ فَارِسَ كَيْ لَا يَجَاوِرُهُمْ
مَلِكُ سَنِيٍّ . وَقَدْ سَعَوا فِي انْقِراصِ خَسْ عَشْرَةِ دُولَةٍ وَحُكُومَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ ..
وَأَعْانُوا الرُّوسَ عَلَى التَّاتَارِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ لَانْدَةٌ عَلَى الْجَاهَةِ وَالْمَهْنَدِيَّينَ، وَتَعَاقَبُوا
عَلَى تَدوِيعِ الْبَيْنِ .. وَبَاغَتِ الْعَسْكَرُ الْعَمَانِيُّونَ الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً فِي صَنْعَاءِ وَالْزَّيْبِيدِ وَهُمْ
فِي صَلَةِ الْعِيدِ .. »

قَالَ : « أَلَيْسَ التَّرْكُ قَدْ تَرَكُوا الْأَنْدَلُسَ مِبَادِلَةً وَتَرَكُوا الْمَهْنَدَ مِسَاهَةً وَتَرَكُوا
الْمَالِكَ الْجَسِيمَةَ الْأَسْيَوِيَّةَ لِلْرُّوسِيِّينَ وَتَرَكُوا قَارَةَ إِفْرِيقِيَا إِسْلَامِيَّةَ لِلْطَّامِعِينَ
وَتَرَكُوا الْمَدَاخِلَةَ فِي الصَّبِينِ كَأُنْهِمُ الْأَبْعَدُونَ ». »

وَلَمْ يَشَأْ الْكَوَاكِبِيُّ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ ضَرُورَاتِ الْوَاقِعِ وَبَيْنَ دَوَاعِيِ الْاِخْتِيَارِ
فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ ، لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى النَّتْيُوجَةِ الَّتِي يَقْيِمُ عَلَيْهَا حَجْجَتَهُ وَهِيَ فَشْلُ التَّصْدِيِّ
لَوَاجِبَاتِ الْخَلَافَةِ مَعَ قِيُودِ الْمَالِكِ وَمَآزِقِ السِّيَاسَةِ وَصَعْوَدَةِ الْوَحْدَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ
دُولِ إِسْلَامِ .

* * *

وَإِذَا كَانَ اِنْفَصَالُ الْخَلَافَةِ عَنِ الدُّولَةِ ضَرُورَةً قَاسِرَةً وَمُصْبِحَةً مُخْتَارَةً فَلَيْسَ
أُولَئِكَ بِالْخَلَافَةِ مِنْ الْأَمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَقَدْ تَبَسَّطَ الْكَوَاكِبِيُّ فِي سَرْدِ الشَّرُوطِ وَالْأَسْبَابِ
الَّتِي قَبَضَتْ أَحْوَالَ الْحُكُومَاتِ إِسْلَامِيَّةٍ وَشَعُوبِهَا فِي عَصْرِهِ بِمُلْاحَظَتِهِ ، وَلَكِنْ
الْغَايَةُ الْجَوْهِرِيَّةُ الَّتِي لَا تَرْتَبِطُ بِتَلْكَ الأَحْوَالِ تَتَلَمَّخُ فِيهَا يَلِيُّ :

- (١) أَنْ يَكُونَ الْخَلِيلَةُ عَرَبِيًّا .
- (٢) وَأَنْ يَكُونَ اِخْتِيَارَهُ بِالْإِنْتِخَابِ .
- (٣) وَأَنْ تَكُونَ وَظِيفَتَهُ رُوحِيَّةً .
- (٤) وَأَنْ يَعَاوِنَهُ مَجْلِسُ شُورَى تَتَمَثَّلُ فِيهِ جَمِيعُ الشَّعُوبِ إِسْلَامِيَّةً .
- (٥) وَأَنْ تَنْفَذَ وَصَابِيَّاهُ طَوَاعِيَّةً فِي الْمَسَائِلِ الْدِينِيَّةِ ، وَلَا تَتَعَرَّضُ فِي تَنْفِيذِهَا
لِلْمُشَكَّلَاتِ السِّيَاسِيَّةِ .

ولا بد من التهديد لقيام الخلافة باعداد الأذهان في العالم الإسلامي لقبول هذا النظام وإشاره على نظم التقاليد التي فرضتها مأرب أصحاب السلطان ودسائس الدعاة المغرضين بعد عصر الخلفاء الراشدين ، وتصدى لهذه المهمة جماعة منظمة تعمل أساساً الشورى والاختيار وتتخذ مقرها في ميناء متوسط كبور سعيد أو الكويت ، ثم تعلن دعوتها وتبلغها إلى ولاة الأمور في الأقطار الإسلامية .

ويظهر من تفصيل الخطط التي رسمها الكواكب للتدرج في تحقيق وظيفة الخلافة على هذه الصورة أنه كان شديد الخدر من مقاومة الدول الكبرى التي تعنيها مسألة الخلافة الإسلامية ، وأنه أفرط في الخدر أحياناً فقدم حساب التقىة والمحاجلة على كل حساب يشغل في حينه ، ولم يخالف الحقيقة حين اهتم بتفسير فريضة الجهاد على النحو الذي يزيل مخاوف الدول ومخاوف الأمم من غير المسلمين على التعميم . فقد أصحاب حين قال :

«إنه ليس في علماء الإسلام مطلقاً من يحصر معنى الجهاد في سبيل الله في مجرد محاربة غير المسلمين ، بل كل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهاداً . وبذلك يعلمون أن قصر معنى الجهاد على المrob كأن مبنياً على إرادة الفتوحات . . . كما أعطى اسم الجهاد مقابلة لاسم المrob الصليبية . . .»

وكذلك أصحاب حيث قال : «إن أصل الإسلامية لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم بل يستلزم الألفة . . . وإن العرب أينما حلوا في البلاد جلبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم . . .»

ولتكن بالغ في دفع الخوف واتقاء القسوة حين استطرد قائلاً إن العرب لم ينفروا من الأمة التي حلت بلادهم وحكمتهم ، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الآراك ، بل يعتبرون دخولهم تحت ساطة غيرهم من حكم الله لأنهم يذعنون بكلمة ربهم تعالى شأنه . . (و تلك الأيام نداولها بين الناس) . . .»

ثم كشف عن أسباب تلك المبالغة في التقيية حين قال بعد ذلك : « فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يتحذرون من الخلافة العربية ، بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة السطوة مربوطة بالشوري على النسق الذي قرأته » .

فالكواكبى « الدبلوماسى » السياسي هنا أظهر من الكواكبى التأثر . « وأم القرى » هنا أسلوب من العمل غير أسلوب « طبائع الاستبداد » . فان الكواكبى التأثر لم يقبل من المسلم أن يدعن للغصب والسيطرة في حكومة مسلمة ، ولم يحمد منه أن يستكين لتداول الدول وحكم الأيام جهلاً بمعنى التسليم للقضاء ، وإنما هي مزائق الحيلة لا تؤمن مزاتها في طريق الثورة ولا سلامة من عثراتها قبل استواها على جادتها المثلث .

على أن الكواكبى التأثر كاد أن يكتشف لقارئه في « أم القرى » وفي صدد الكلام على الخلافة والدول الأجنبية ، حيث قال وهو يتكلّم عن القضية الخامسة والأربعين : « إذا صادفت الجمعية معارضه في بعض أعمالها من حكومة بعض البلاد - ولاسيما البلاد التي هي تحت استيلاء الأجانب - فالجمعية تتذرع (أولاً) بالوسائل الالزمة لمراجعة تلك الحكومة واقناعها بحسن نية الجمعية . فإذا توفرت لرفع العنت فيها ، وإلا فلتليجا الجمعية إلى الله القادر الذي لا يعجزه شيء » .

ومراد الكواكبى من عبارته هذه واضح عند من يفهم أن « اللجوء إلى الله القادر الذي لا يعجزه شيء » يعني كل شيء غير التسليم والتوكوص عن العمل الذي بدأ وتقدم وتمت له أسباب التدبير .

* * *

إلا أن القارئ يستطيع أن ينفذ إلى الغاية الجوهرية في أمر الدولة والخلافة من وراء الخطط أو المآذج العملية التي تصلح لبعض الأزمات ولا تصلح لغيرها ، والتي رسمتها المowardات للكواكبى ولم يرسمها لنفسه باختياره ، ولعله كان يعيده

فيها النظر لو تراخي به الأجل – فيمحو منها ويثبت ويزيد عليها وينقص منها ،
ولا يدعها – لخلفائه – بأية حال – على الصورة التي بقيت لنا بعد نصف قرن
من وفاته .

فإذا نفذ القارئ من وراء تلك الخطوط الموقوتة إلى الغاية الجوهرية فلا زاغ
في تلك الغاية ولا في الإيمان بأن الوصول إليها هو مبعث الدعوة التي اضطلم بها
وصمد عليها ، وخلاصتها في كلمات معدودات أن دعوى الخلافة في القدسية
لайнبعى أن تعوق الأمة العربية عن نهضة الإصلاح والحرية .

النظام السياسي

علوم السياسة أقرب العلوم إلى أن تكون « اختصاصاً » للكواكب بين دراسات عصره . نفهم ذلك من كلامه في مقدمة « طبائع الاستبداد » كأنفشه في مباحث الكتاب كله ، لأنها مباحث مشروحة على ليجازها لا يجوز فيها قلم كاتب لم يتسع في هذه الدراسات .

ولكننا قد علمنا من طبيعة تفكير الكواكب أنه يدرس ليعمل وينفذ ، أو ليدل على وسائل العمل والتنفيذ ، فكل ما كتبه في موضوعات العلم السياسي فهو من قبيل « المذكرات الإيضاحية » التي تبين حدود العمل المطلوب وتبين الطريقة التي تتبع في تنفيذه ، وما عدا ذلك من مباحث النظر والتأمل فقد بقيت في كتاباته المعروفة « رؤوس موضوعات » لم يتسع له الوقت لاستيفتها ولعله لم يجد من لوازمه عمله أن يستوقيها على النهج المدرسي كما يصنع الباحث الذي يدرس الموضوع ليؤلف فيه أو ليضطلع بتعليمه والإقناع به من الوجهة النظرية . وإنما أحالها بعنوانها الجملة لمن يريد أن يرجع إليها في مصادر التخصص والبيان ليصحح النظر أو ليتحقق وسائل العمل المتفق .

. ومن قبيل هذه المباحث التي تركها « رؤوس موضوعات » في الصفحات الأخيرة من « طبائع الاستبداد » قوله في مبحث الحقوق العمومية : « هل للحكومة صفة المالكية ؟ أم صفة الأمانة والنظارة على الأموال العمومية ؟ مثل الأراضي والمعادن والأثمار والسواحل والقلاع والمعابد والأساطيل والمعدات ، ومثل حقوق المعاهدات والاستئجار ، ومثل حقوق إقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترقى الاجتماعي وإيجاد التضامن الافرادي ، إلى غير ذلك مما يتحقق لكل فرد أن يتمتع به وأن يطمئن ؟ »

ومن هذه المباحث قوله عن توزيع السلطة : « هل يجمع بين سلطتين أو ثلاثة في واحد ؟ أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم من يقوم بها باتقان ولا يجوز الجمع معاً لاستفحال السلطة ؟ » .

وقد أثبتت من عناوين هذه المباحث خمسة وعشرين عنواناً قال عنها : « إن كلامها يحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل وتطبيق على الأحوال والمتضييات الخصوصية » .

ثم مضى قائلاً إنه ذكر : « هذه المباحث تذكرة لكتاب ذوى الألباب وتنشيطاً للنجباء على الموضوع فيها بترتيب ، اتباعاً لحكمة إتيان البيوت من أبوابها ، وإن اقتصر على بعض الكلام فيها يتعلق بالبحث الأخير منها فقط ، أعني ببحث السعي في رفع الاستبداد .

ولإنما خص هذا البحث الأخير لأنه يمس فيه الوسيلة العملية التي لا يمكنها مجرد التأمل وتقليل وجوه النظر في مختلف الآراء ، وذلك شأنه في كل ما يكتبه عند وجوب التفرقة بين ما يدرس وما يعمل ووجوب التفرقة أيضاً بين ما يشرع في عمله وبين ما يؤجل إلى حين ليعمل في أوانه .

ولا ننسى أن الكواكبى كان يكتب ما ينوى إعلانه في بلاد تابعة للسيادة العثمانية ، سواء منه ما كتبه في حلب قبل هجرته الأخيرة وما كتبه في مصر باسمه الصريح أو باسم مستعار ، فلم يكن في وسعه أن يعلن ما يمنعه القانون وينعنه العرف الشائع بين الناشرين ، ومنهم أصحاب الصحف والمطابع التي تدين بالولاء للدولة صاحبة السيادة ، ولكنه كان يتحرى التعبير عن رأيه بالأسلوب الذى يدل عليه دلالة لاشك فيها دون أن يخرج بالنص المكتوب عن حدوده القانونية ، وعلى صعوبة التعبير بين عن خطط الثورة لم يكن برنامجه في مسألة النظام السياسى بالبرنامج المجهول عند قرائه ولو لم يكن منهم من يلقاه ويسمع منه الرأى الصريح فيما يريد ويفتا به .

فلم يكن أصرح - في حدود القانون - من دعوته للعرب إلى الاستقلال بحكم أنفسهم حيث يقول في « أم القرى » إن التطابق في الجنس بين الراعي والرعية « يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها

بنفسها حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبدا كما قال الحكم المتنبي :
 وإنما الناس بالملوك ولا يفلح عرب ملوكها عجم
 وما لاختلاف فيه أن من أهم حكمة الحكومات أن تتخلى بأخلاق الرعية
 وتتحدى معها في عوائلها ومشاربها .

بل هو يصرح بما هو أقوى من ذلك وأدل على رأيه في حكومة عصره التركية . إذ يقول إن التطابق بين الراعي ورعيته من العرب هو الواقع الممكن الذي لا يحيد للحاكم عنه وليس قصارى الأمر فيه أنه سياسة حسنة أو نصيحة مستحبة ، ويستشهد بذلك بالحكومات - غير العربية - التي حكمت العرب قبل الترك العثمانيين إذ يذكر آل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والغوريين والأمراء الجراكسة وآل محمد على ، ثم يقول : « فانهم مالبثوا أن استعربوا وتخليقاً بأخلاق العرب وامتزجوا بهم وصاروا جزءاً منهم . وكذلك المغول التatars صاروا فرساً وهنوداً فلم يشد في هذا الباب غير المغول الأتراك أى العثمانيين . فانهم بالعكس يفتخرؤن بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم . فلم يسعوا باستراكتهم كما انهم لم يقبلوا أن يستعربوا . والمتاخرون منهم قبلوا أن يتفرسوا أو يتأنلوا ، ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم يستدل عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم » .

* * *

ولا حاجة بالкоاكبي بعد هذا البيان عن ضرورة التطابق بين الراعي والرعية إلى كلمة صريحة أو غامضة بلاء الوجهة التي ينبغي أن تنتهي إليها مساعي العرب في يقظتهم . فلا بد أن يفلحوا . . . ولن يفلحوا وهم عرب يملكون عجم . . . وملوكهم القائمون بالأمر لا يستعربون ولا يروقهم أن « يسترك » رعاياهم ، ومنهم من يؤثر أن يتفرس ويتأنل ويتجه نحو الغرب ولا يحول وجهته إلى قبلة شرقية .

فالغاية المثالثة أمام المجاهدين في سبيل اليقظة العربية هي « الاستقلال » وإقامة الدولة التي يقيمها العرب ويرعاها العرب ، والمطالبة في انتظار تحقيق هذه الغاية بغير ما يمكن من وجوه الإصلاح التي تزيل أسباب الخلل في إدارة

السلطنة العثمانية وأهمها - فيها يهم البلاد العربية - « التسلك بأصول الإدارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الإدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتبااعدة وخصوصاً سكانها » .

ويتحقق بهذا السبب سببان آخران يبدو للنظر لأول وهلة أنهما متناقضان لو أنها يرجعان إلى حالتين مختلفتين ، وما حالة الرعية الشرقية وحالة الرعية الأجنبية غير العربية من تشملهم قوانين الامتيازات أو القوانين المحلية المقصورة على بعض الأقاليم .

فالسبب الأول يرجع إلى « توحيد قوانين الإدارة والعقوبات مع مع اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي والأجناس والعادات » ... ولا يتحقق ضرر هذا التوحيد من الوجهة الاجتماعية والإدارية حيث تتبع « الإجراءات » الواحدة في المقاضاة وتدير الدواين بين أطراف دولة تمتد من وادي النهر إلى البحر الأبيض ومن البحر الأسود إلى خليج عدن ، ونسرى على أقوام بينهم من الاختلاف ما بين الأرمن والجركس والترك والعرب في الحاضرة والبادية .

والسبب الآخر يرجع كما قال الكواكبى إلى « تنوع القوانين المعموقية وتشوش القضاء في الأحوال المتباينة » .

ففي ظاهر الأمر يبدو أن صاحب « أم القرى » يشكو في وقت واحد من توحيد الإجراءات والقوانين ومن تنوعها واختلافها ، وهي شكوى متناقضة ولكنها تناقض في الظاهر دون الحقيقة كما أسلفنا . لأن هذه الشكوى في مؤتمر أم القرى خاصة - إنما يشير لها التنوع الذي يقوم على التمييز بين جنس و الجنس وطائفة دون طائفة إذعنًا للمعاهدات الأجنبية تارة أو مراعاة للمنازعات الطائفية واستبقاء لبواطن تلك المنازعات تارة أخرى ، وقد كان هذا التمييز عرفاً شائعاً في نظم الدولة يعم تشريعات الإدارة والأحوال الشخصية ويختلف بالإقليم الواحد بين فئة وفئة وبين عشيرة وعشيرة ، ولا يقتصر على الأجانب ولا على الأقاليم التي نشبت فيها الثورات وتدخلت فيها الدول لتقرير نظام الولاية أو الإدارة فيها .

فالكواكبى كان يشكو في الحالتين من شيء واحد ، وهو مخالفة الشريعة

للمصلحة إما بالتسوية حيث تفرق الأحوال أو بالتفرق حيث تلزم العدالة والمساواة.
وربما أضاف الكواكبى شکواه الفنية إلى هذه الشکوى الاجتماعية من
تلفيق القوانين والإجراءات . فإنه – وهو الخبر بفقه التشريع – كان ينكر
من دعوة التجديد من فقهاء الترك أنهم على تقديره لم يحسنوا الحافظة ولم يحسنوا
الابداع ، وأن الدولة ترخصت في تبديل قواعد التشريع لغير ضرورة وتشددت
في بعضها الآخر كذلك لغير ضرورة « وجاءها أكثر هذا الخلل في السنتين سنة
الأخيرة . أى بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها فعطلت أصولها القديمة ولم تحسن
التقليد ولا الإبداع ففشلت حاما ولا سيما في العشرين سنة الأخيرة التي ضاع
فيها ثلثا المملكة وخرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع ، لفقد الرجال وصرف
حضره السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وسيط الإصرار
على سياسة الانفراد » .

وقد صرح الكواكبى بالخل الملازم لهذه المشكلات السياسية والقانونية
لبلاد العرب ، ولبلاد الدولة عامة ، في طوار الانتقال ، فقال في هامش الصفحة
التي سرد فيها أسباب الخلل من أم القرى إن « من أهم الضروريات أن يحصل
كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي إداري يناسب عاداتهم وطبيعتهم
بلادهم كما هي الحال في إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشمالية ، وكما يفعله
الإنكليز في مستعمراتهم والروس في أملاكهم » .

وفحوى هذا الخل أن يؤخذ الذي عرف بعد ذلك باسم «اللامركزية» ، وشعر
ساسة الترك أنفسهم بضرورته بعد تفكير الكواكبى فيه بسنوات ، فهو – ولا
ريب – رائد الدعوة اللامركزية التي جهر بها « حزب الائتلاف والحرية » وضم
إليها أناساً من زعماء الترك والعرب وبعض الأقوام المشتركة في تركيبة السلطنة
العثمانية ، وكانوا ينادون بالائتلاف لتكوين السلطنة من الشعوب المتالة مع
استقلالها بحكوماتها الذاتية ، وينادون بالحرية لتغليب حقوق الشعوب في سياسة
أمورها على حقوق السلطنة المتفردة بالحكومة المركزية ، ويقابلون بذلك دعوة
المركزيين المعروفين باسم حزب الاتحاد والترقي برييدون بذلك أن تكون الوحدة
المركزية في الدولة غالبة على الائتلاف ، وأن تكون حجة « الترق » بقيادة
الرئاسة الحاكمة غالبة على حجة المطالبة بالحرية لشكل ولاية على انفراد .

ولا يلجهتنا مؤلف «طبائع الاستبداد» إلى مراجعة واستنباط العلم بصفة الحكومة التي يختارها ويسعى إليها . فلابد أن تكون — بالبداية — حكومة غير مستبدة أو «حكومة مسئولة» .

أما العنوان الذي يطلق عليها في مصطلحات العلم السياسي فينبغي أن يتواافق لها بين الشروط الكثيرة شرطان على الأقل من شروط الحكومات المسئولة ، وهما أن تكون «ديمقراطية اشتراكية» .

وقد عرف الاستبداد تعريفين مختلفان بعض الاختلاف لفظاً ويتقان كل الاتفاق في المعنى والنتيجة .

فالاستبداد كما قال في مقدمة طبائع الاستبداد هو : « التصرف في الشئون المشتركة بمقتضى الموى » .

أو هو كما قال بعد ذلك « تصرف فرد أو جموع في حقوق قوم بلا خوف تبعة » ويقتنع الاستبداد — نظراً وفعلاً — بقيام الحكومة المسئولة ، وأفضل هذه الحكومات التي تجتمع لها مبادئ الديمقراطية والاشراكية ، وتتراءى هنا طبيعة التفكير العملي التي تمتاز بآراء الكواكب في كل مسألة يتسع فيها مجال البحث والمناقشة وتساوي فيها وجوه النظر عند تحقيق نتائجها العملية وضمان المصلحة المنشودة بضمها تلك النتيجة .

فليست العبرة عند الرجل العليم بمنافذ الاستبداد أن يتوافر للحكومة شكل من أشكال الدستور وصورة من صور الحقوق الكثيرة التي ترشح أفراد الرعية للنيابة أو الانتخاب ، وإنما المهم في جميع الأشكال على تعدد المصطلحات والدساتير أن يكون ولـي الأمر مسؤولاً عن عمله محاسبًا عليه ، وأن يقتنع عليه الاستبداد وهو التصرف بالموى والأمان من التبعة « بلا خشية حساب ولا عقاب محققين » .

فلا يقتنع الاستبداد بامتناع حكومة الفرد ولا يتحقق الحكم الصالح باشتراك الكثرة فيه أو بتأييد الكثرة للحاكمين المتعددين ، أو كما قال في المقدمة : « إن صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو بالوراثة — تشمل أيضًا الحاكم الفرد المقيد الوارث أو الم منتخب » .

كان غير مخاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخبًا . لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وإنما قد يعدله نوعاً ، وقد يكون أحكم وأضر من استبداد الفرد ، ويشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ . لأن ذلك أيضاً لا يرفع الاستبداد ولا يتحقق ما لم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الأمة التي تعرف أن تراقب وتؤدي الحساب » .

ولا يمتنع الاستبداد في شكل من أشكال الحكومة مع غفلة الأمة وقدرة الحاكمين على تضليلها والتوييه عليها . قال : « إنه ما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة أو إغفالها لها إلا وتسارع إلى التلبيس بصفة الاستبداد ، وبعد أن تتمكن فيه لاترکه وفي خدمتها شيء من القوتين المايتين المهوتين : جهالة الأمة والجنود المنظمة » .

ومن علامات الحكومة الصالحة التي يتعدى عليها الاستبداد في رأى الكواكبى أن يشترك فيها من عناهم القرآن الكريم بأهل الذكر وأصحاب الفقهاء على تسميتهم بأهل « الخل والعقد » من قادة الأمة وheadsها . قال بلسان الإمام الصيلى فى أم القرى : « وهو لاء الدين نسمتهم عندنا بالحكماء هم الذين يطلق عليهم فى الشريعة الإسلامية اسم أهل الخل والعقد الذين لا تتعقد الإمامة شرعاً إلا ببيعتهم ، وهم خواص الطبقة العليا فى الأمة الذين أمر الله عز شأنه نبيه بمشاورتهم فى الأمور ... لأنهم رؤساء الأمة ووكلاه العامة والقائمون فى الحكومة الإسلامية مقام مجالس النواب والأشراف فى الحكومات المقيدة . » .

ولذا أشار الكواكبى إلى الطبقة العليا فى « أم القرى » أو « طبائع الاستبداد » لم يدع أحداً من قرائه يفهم أنها الطبقة العليا بالألقاب أو الطبقة العليا باليراث ، لأنه يسمى أصحاب الألقاب من خدام الاستبداد « بالمتمجدين » أو أدعياء المجد ويقول إن هذا المجد « خاص بالإدارات الاستبدادية لأن الحكومة الحرة التى تمثل عواطف الأمة تأتى كل الإباء إخلال التساوى بين الأفراد إلا لوجب حقيقى . فلا ترقع قدر أحد منها إلا أثناء قيامه فى خدمتها ، أى الخدمة العمومية ، كما أنها لا تميزه بوسام أو تشرفه بلقب إلا إعلاناً للخدمة مهمة » .

وإنما يكون التجدد كما قال : « أن يقتلد الرجل سيفاً من قبل الجبار يبرهن

به على أنه جلاد في دولة الاستبداد ، أو يعلق على صدره وساماً مشمراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تتنىء بأنه صغار أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة أوضح وأختصر هو أن يصير الإنسان مستبداً صغيراً في كتف المستبد الأعظم » .

وطبقة الميراث ، ما لم يميزها العلم والخلق الرفيع - هي جرثومة البلاء كما قال ، وأبناؤها « هم الأكثر عدداً والأهم موقعًا وهم مطعم نظر المستبد في الاستعانة وموضع ثقته » .

قال من كلامه عن الاستبداد والجحود إن هؤلاء الأوصياء « هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل ، لأن بني آدم داموا إخواناً متساوين إلى أن ميزت الصدقة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية وتنشأ من تنازعها تميز أفراد على أفراد ، وحفظ هذه الميزة أوجد الأوصياء .. فالوصياء في عشيرة أو أمة إذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس وأسسوا حكومة أشراف ، ومتى وجد بيت من الأوصياء يتميز كثيراً على باقي البيوت يستبد وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة إذا كان لباقي البيوت بقية بأس ، أو المطلقة فإذا لم يبق أمامه من يتعيه »

ثم قال : « إذا لم يوجد في أمة أوصياء بالكلية ، أو وجد ولكن كان لسود الناس صوت غالب ، أقامت تلك الأمة فعلاً أو حكماً لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء ، ولكن لا يتواتي بعض متولين إلا ويصير أناساً موصياء يتذمرون ، كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمة استعداداً للمغالبة وإعادة التاريخ الأول ..

* * *

فالطبقة العليا - في تعبير الكواكب - لا تعنى طبقة من طبقات المظاهر المصنوعة ولا المظاهر الموروثة : لا تعنى حملة الألقاب والرتب التي يخلعها الحاكم المطلق على خدامه وعيده سلطاته ، ولا تعنى أصحاب الوجاهة المنقوله من الأسلاف إلى الأعاقاب دون أن ينتقل معها سبب من أسباب الوجاهة النافعة . وإنما الطبقة العليا في تعبير صاحب « طبائع الاستبداد » ، « وأم القرى » ،

هي الطبقة التي استعدت بكتفاتها ودرایتها لقيادة الأمة والاضطلاع « بالخدمة العمومية » والسبق إلى تكاليف العمل والمعرفة ، تتولاها وكالة عن جميرة الأمة ، ولا بد في ولائها من صوت غالب لسود الأمة ، على أية حال ، كما يؤخذ من إحصائه لأسباب فساد الحكومة فيها جمعة من هذه الأسباب السياسية والدينية والأخلاقية في فصل خاص لحقه بفصل أم القرى .

وأيا كان مفاد « الطبقة » في تعبير الكواكب خاصة قوام النظام الصالح كله أمران : أن تتساوى الطبقات في الحقوق القانونية ، وأن تقارب في الثروة ودرجات المعيشة .

فلا مناص من إعداد الشعوب لنيل « الأخوة العمومية بالتجارب بين الأفراد والقناعة بالمساواة الحقيقة بين الطبقات » .

ولما مناص من توزيع الثروة توزيعاً يمتنع به التفاوت ، فإن الاستبداد كما قال في طبائع الاستبداد هو الذي جعل « رجال السياسة والأديان ومن يلتحق بهم ، وعددهم لا يتجاوز الخمسة(1) في المائة يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة » .

قال : « وإن أهل الصنائع النفيضة والكمالية والتجار الشرهين والمحتكرين وأمثال هذه الطبقة — ويقدرون كذلك خمسة في المائة — يعيش أحدهم بمثيل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الآلاف من الصناع والزارع ، وهذه القسمة المتفاوتة بين بني آدم وحواء إلى هذه النسبة المتباينة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي » كما قال وكرر المقال مما نعود إلى بيان رأيه المفصل فيه هند الكلام على برنامجه الختار لإصلاح الحياة الاقتصادية .

ويقتضي التساوى بذلك الطبقات على هذا المبدأ ألا تستأثر طائفة من الأمة بإنجاب أهل العلم والدرية ، بل يكون حكام الأمة كما قال بسان الحكم الصيني — « من أى طبقة كانت من الأمة . إذ قضت سنة الله في خلقه ألا تخلو أمة من الحكام » .

ولا فرق بين طائفة وطائفة في التخلق بأخلاق الاستبداد متى قام الأمر على

(1) في الطبعات الأولى واحد في المائة .

الحكم المطلق وامتنعت المساواة في الحقوق بين الناس : « فان الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع ، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً . لأن الأسفل لا يهمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته ، شرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركونه ويشاركونه . هذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد ونحافته ، فكلاً كان المستبد حريراً على العسف احتاج إلى زيادة جيش التمجدين العاملين له ، والمحافظين عليه واحتاج إلى الدقة في اتخاذهم من أسفل السالفين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجдан ، واحتاج إلى حفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكose وهي أن يكون أسفلهم طباعاً أعلام وظيفة وقرباً . . . » .

* * *

والكواكب يذكر السلف الصالح للاقتداء به في أخلاق الرعاة والرعايا ، ولكنـه يحذر قارئه ويعيد التحذير مرة بعد مرة من الخلط بين الاقتداء بأخلاق الحاكـمـين الأولـين وبين الدعـوة إلى تقديس أولـئـكـ الحاكـمـين أو إـحـاطـتهمـ بهـالةـ من عـصـمةـ الـرـبـوبـيـةـ أوـ الرـسـالـةـ . فـانـهـ معـ تـقـرـيرـهـ أنـ الـخـلـافـةـ الـإـسـلـامـيـةـ لمـ تـثـبـتـ منـ قـبـلـ لـغـيرـ الـخـلـفـاءـ الـرـاشـدـينـ وـآـحـادـ مـعـدـوـدـينـ مـنـ أـمـشـالـ عـمـرـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيزـ بـرـىـ أنـ الفـصـلـ بـيـنـ الـمـلـكـ وـالـخـلـافـةـ ضـرـورـةـ لـمـ يـحـيـصـ عـنـهـ كـىـ يـتـسـنىـ لـلـرـعـيـةـ أـنـ يـحـاسـبـوـ وـلـيـ الـأـمـرـ وـيـقـيـمـوـ وـلـاـيـةـ الـأـمـرـ عـلـىـ أـسـاسـ الـحـكـومـةـ الـمـسـؤـلـةـ ، وـقـدـ يـحـالـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ ذـلـكـ بـاـتـحـالـ صـفـةـ الـقـدـاسـةـ الـقـىـ يـعـتـصـمـ بـهـاـ الـخـلـيفـةـ مـنـ مـحـاسـبـةـ رـعـيـاـهـ وـمـرـاجـعـةـ الـأـمـةـ فـيـ مـجـمـوعـهـاـ لـسـيـاسـةـ الـدـوـلـةـ .

ولـاـ اـكـثـرـ لـلـصـورـ وـالـأـشـكـالـ فـيـ كـلـ مـاـ تـقـدـمـ مـنـ قـوـاعـدـ الـحـكـمـ وـأـنـظـمـتـهـ وـسـائـرـ شـرـوـطـهـ . فـكـلـ صـورـ الـحـكـمـ حـسـنـةـ نـافـعـةـ إـذـاـ تـحـقـقـتـ فـيـهاـ الـخـاصـيـةـ وـلـحـقـتـ فـيـهاـ تـبـعـاتـ الـحـكـمـ فـعـلـاـ بـنـ يـتـواـهـ ، وـكـلـ أـمـةـ قـادـرـةـ عـلـىـ مـحـاسـبـةـ حـكـامـهـاـ إـذـاـ عـمـتـ فـيـهاـ الـمـسـاـواـةـ الـحـقـوقـيـةـ وـامـتـنـعـ فـيـهاـ التـفاـوتـ الـبعـيدـ فـيـ الـأـرـزـاقـ وـالـأـقـدارـ ، وـانـجـابـتـ عـنـهـاـ غـشاـوةـ الـغـفـلـةـ بـيـنـ عـامـةـ أـهـلـهـاـ وـارـتـفـعـ إـلـىـ مـكـانـ الـقـيـادـةـ مـنـ اـسـتـعـدـ بـكـفـائـةـ وـدـرـايـتـهـ لـقـيـادـتـهـ ، كـائـنـاـ مـاـ كـانـ مـنـشـئـهـ مـنـ عـامـةـ طـبـقـاتـهـ .

النِّطَامُ الْاقْتِصَادِيُّ

قدمنا في الكلام على النظام السياسي أن الكواكبى يعتبر التفاوت في الثروة دعامة من أقوى دعائم الاستبداد، لأنه يسمح لأصحاب النفوذ الدينى أو الدىنوى - وهم لا يزيدون على خمسة في المائة من جملة السكان - بأن يستأثروا لأنفسهم بنحو نصف الثروة العامة .

وهو ينكر مثل هذا الإنكار أن يحصل مثل هذا التفاوت بأية ذريعة من التراث ولو كانت ذريعة العمل والصناعة ، فليس من الجائز أن يعيش إنسان واحد يمثل ما يعيش به الملايين أو الآلاف لأنه يتغىق على غيره بعمل بارع أو صناعة تقىس ، ولا لأنه يحسن الوساطة والمداورة في سوق البيع والشراء أو في سوق الفكر والضمير . « فهناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلاً . إنما يعيشون بالحليلة كالسيارة والمشعوذين باسم الأدب والدين . . . » .

والمال على العموم « لا يجتمع في أيدي الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والتخداع » . . وليس من شأن التفاوت في القدرة والهمة أن يمنع إنساناً واحداً ما يقوم بنفقات الآلاف من الناس ، وليس هذا التفاوت مما يحتاج إليه العامل المقتدر لإتقان عمله أو يحتاج إليه المجهود الطموح لاستئضاض همه وإشباع طموحه ، بل ربما كان فيه مدرجة للغواية و البطالة ومدعاه إلى الإسراف والإسفاف .

وليس المطلوب أن يبطل التفاوت بين الناس في المعرفة والذكاء ولا أن يبطل التفاوت بينهم في المساعي والجهود ، فلا يقتضي الأمر كما قال « أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصناعة المقيدة بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط ، ولا ذلك التاجر المجهود المخاطر بالكسول الخامل ، ولكن

العدالة تقتضى غير ذلك التفاوت ، بل تقتضى الإنسانية أن يأخذ الرافق بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته » .

وأيا كان جهد المجتهد وعلم العالم فلا يجوز أن يزيد الرزق على الحاجة تلك الزيادة المفرطة التي تسمح لطائفة من الأمة بتسخير جميع طوائفها : « لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان . وهذا معنى الآية : إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى فضرر الثروات الإفرادية في جمهور الأمم أكبر من نفعها . لأنها تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين : عبيداً وأسياداً ، وتقوى الاستبداد الخارجي فتسهل للأمم التي تغنى بغناء أفرادها التعدي على حرية واستقلال الأمم الضعيفة ... » .

* * *

وتشير لنا سعة اطلاع الكواكبى فى مسائل الإصلاح من إسحاقته بأوائل الأربعين والآراء التى كانت تمحبب فى أواخر القرن الماضى طليعة سابقة ، بل طليعة متჩمة . فى مجال الإصلاح الاقتصادى والمذاهب الاشتراكية ، فذكر تحديد الملكية الزراعية وذكر تأمين المرافق العامة وممضت بعده خمسون سنة قبل أن يتيسر تنفيذ هذه الآراء فى بلادنا الشرقية .

قال : « هذه إنجلندا مثلا قد حماها ألف مستبد مالى من الإنكليز ليتمتعوا بثلث أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة إنجلندا . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مالا . وكم من البشر فى أوروبا المتقدمة — وخصوصاً فى لندن وباريس — لا يجد أحدهم أرضاً ينام عليها متمدداً ، بل ينامون فى الطبقات السفلية من البيوت حيث لا ينام البقر ، وهم قاعدون صحفوحاً يعتمدون بصلورهم على حبال من مسد منصوبة أفقية ، يتلوون عليها يمنة ويسرة » .

قال : « وحكومة الصين المختلة النظام فى نظر المتقدمين تحرم قوانينها أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلو مترآ مربعاً أى نحو خمسة أفدنة مصرية أو ثلاثة عشر دونما عثمانيا ، وروسيا المستبدة القاسية فى عرف أكثر الأوروبيين وضعفت أخيراً لولياتها البولونية والغربيّة قانوناً أشبه بقانون

الصين ، وزادت عليه أنها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ، ولا تأذن لفلاح أن يستدين أكثر من نحو خمسائة فرنك ، وحكومات الشرق إذا لم تستدرك الأمر فتضيع قانوناً من قبيل قانون روسيا تصبح الأراضي الزراعية بعد خمسين عاماً ، أو قرن على الأكثر ، كاير لنده الإنجليزية المسكونة » ..

وقال بعد أن قرر أن الشرط الأول لإحراز المال أن يأتى من بدل الطبيعة أو بالمقايضة أو في مقابل عمل أو مقابل ضمان :

« والشرط الثاني ألا يكون للتمويل تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال والصناعات والتغلب على المباحثات مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها بمراحل كافة عشوقاته . . . » .

* * *

وعلى هذا السبق إلى الإحاطة بالآراء المستحدثة يتبع من ثانياً أقواله العامة في الاقتصاد أنه كان يتقصى معارفه الاقتصادية من أصولها التي تقدم بها الزمن أحقاباً طوالاً قبل عصر الميلاد . فلا شك في اطلاعه على قواعد الاقتصاد السياسي فيما كتبه أرسطو أو فيما نقل عنه . فإنه يحصر أسباب الرزق في مواردتها الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرف هذه الموارد كما عرفها أرسطو حيث يقول عن الزراعة إنها استخراج ثمرات الطبيعة ، وعن الصناعة إنها تهيئة تلك المواد للانتفاع بها ، وعن التجارة إنها توزيعها على الناس ، « وكل وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأولية فهي وسائل ظالمه لا خير فيها . . . » .

وعند الكواكب أن الإنسان النافع لقومه لابد أن يؤدي عملاً من هذه الأعمال في أصولها وفروعها التي لا زالت إلى اليوم مورد الرزق المشروع في عرف خبراء الاقتصاد والسياسة ، وعلى كل فرد من أفراد الأمة « متى اشتدى سعاده أو ملك قوت يومه ، أو النصاب على الأكثر ، أن يسعى لرزقه بنفسه أو يموت جوعاً » .

ثم يعطف فيقول : « وقد لا يتأتى أن يموت الفرد جوعاً إذا لم تكن حكومته مستبدلة تضرب على يده وسعيه ونشاطه . . . » .

فإذا حدث العجز عن كسب الرزق لسبب قاهر غير الكسل والتقصير فالآمة مسؤولة عن إزالة هذا العجز أو معونة المبتلين به على المعيشة التي لا يقدرون على تحصيلها ! « فالعدالة المطلقة تقضي أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل » .

وهذه سياسة تتحرّاها أمم الغرب الحديثة لإشاراً للسلامة بعد أن وضع لها وبالعاقبة من جراء الظلم في توزيع الثروة . ولكنها فريضة يقررها الإسلام ديناً ويعين عليها اتباع أحکامه . لأنّه يقرر صرف العشور والزكوة في المصادر العامة ومنها سداد الديون : « ولا ينفع على المدقق أن جزءاً من أربعين من رؤوس الأموال يقارب نصف الأرباح العتيدة باعتبار أنها خمسة بالمائة سنوياً » .

ويقول الكواكبي – ولعله يجتمع في ذلك إلى الأخذ بالذهب الظاهري – إن الأرض الزراعية ملك عام للأمة يستتبّها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط ، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال » .

فالمعيشة الاشتراكية – في حكم الدين والسياسة الرشيدة – هي « أبدع ما يتصوره العقل . . . لو لا أن البشر لم يبلغوا بعد من الترقى ما يمكن توسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية إلى إدارة الأمم الكبيرة . . . »

وعلى هذا يتلخص برنامج الكواكبي الذي اختاره لتدير الثروة العامة في الاشتراكية التي تقوم على المبادئ التالية :

- (١) تعميم العمل الشمر بين أفراد الأمة وتحريم الكسب بغير عمل مشروع .
- (٢) اجتناب التمييز بين أفراد الأمة بغير مزية لازمة للخدمة العامة .
- (٣) اجتناب التفاوت المفرط في توزيع الثروة بين الأفراد أيّاً كان حظهم من التفاوت في الكفايات والأعمال .
- (٤) قيام المجتمع على التعاون والتضامن بين العاملين فيه ، وإزالة أسباب العجز عن الكسب أو معونة العاجزين عنه لضرورة من ضرورات المرض والحرمان .
- (٥) تأمين المرافق العامة ومنع الاحتكار .

وبهذه المبادئ على عمومها يدخل الكواكب في زمرة الاشتراكيين لا مراء، ويلتقى بأهم المذاهب الاشتراكية في أصل من أصولها الكبرى ، ويكاد أن يجري مع القائلين بالتفسير الاقتصادي للتاريخ في مجال واحد لو لا فارق عظيم في تعريف المال ترتبط به فوارق كثيرة .

فالمال عند أصحاب التفسير الاقتصادي مقصور على العملة وما تشير إليه .

والمال عند الكواكب هو « كل ما ينفع به في الحياة » ... « فالقوة مال ، والوقت مال ، والعقل مال ، والعلم مال ، والدين مال ، والثبات مال ، والجمال مال ، والترتيب مال ، والشهرة مال ... »

نعم . وكل ما يجري فيه المتع والبذل كما يقول صاحب القانون ، أو تستعاض به القوة كما يقول صاحب السياسة ، أو تحفظ به الحياة الشريفة كما يقول صاحب الأخلاق ، فهو مال .

و « المقصود من المال هو أحد اثنين لثالث لها وها تحصيل للدة أو دفع ألم ... والحكم العدل في طيب المال وخبيثه هو الوجدان الذي خلقه الله صيغة للنفس وعبر عنه في القرآن بالطامها فجورها ونقواما .

والوجدان هو مرجع الاختيار أولاً وآخرأ ، بين المال الحلال والمال الحرام » .

التربية القومية

تفيد كلمة التربية في كتاب الكواكبى مقصدين: أحدهما التربية العامة وتشمل كبار الأمة وصغارها ، وهى التى تسكلل بهذيب الصفات القومية وتوفير عدة الأمة من الأخلاق والعادات جيلاً بعد جيل .

والآخر تربية الناشئين في المدارس ومعاهد التعليم وتزويدهم بما ينفعهم وينفع أمتهم في أعمالهم الخالصة وأعمالهم المشتركة .

وعنده أن الحكومات المنتظمة كما قال في طبائع الاستبداد « تتولى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء . وذلك بأن تسن قوانين النكاح ثم تعنى بوجود القابلات واللقحين والأطباء ثم تفتح بيوت الأيتام اللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الججرى إلى أعلى المراتب . ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسع وتحمى المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين للمحافظة على الآداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية وإنماء الإحساسات الملبية وتقوى الآمال وتبسر الأعمال وتومن العاجزين عن الكسب من الموت جوعاً ، إلى أن تقوم باحتفالات جنائز ذوى الفضل على الأمة . . . »

وقد ألف الكواكبى « أم القرى » قبل تأليفه « طبائع الاستبداد » فأحصى بلسان المسلم الإنجليزى بعض مقومات التربية العامة التى يعني بها الغربيون وهي بعبارته :

« تخصيصهم يوماً في الأسبوع للبطالة والتفرغ من الأشغال الخالصة لتحصل بين الناس الاجتماعات وتنعقد الندوات فيباحثون ويتناجرون . . . »

« وتخسيصهم أيامًا يتفرغون فيها لتداكر مهام الأعمال لأعظم رجالهم الماضين تشويقاً .

« وإعدادهم في مدنهم ساحات ومنتديات تسهيلًا للجتماع والمذاكرات وإلقاء الخطب وإياده التظاهرات .

« وإنجادهم المتنزهات الزاهية العمومية وإجراء الاحتفالات الرميمية والمهرجانات بقصد السوق لل الاجتماعات .

« وإنجادهم محلات التشخيص المعروض بالكوميديا والتياترو بقصد إرادة العبر واسترعاء السمع للحكم والواقع ولو ضمن أنواع من الخلاعة التي اتخذت شباكاً مقاصد الجمع والأسماع ويعتبرون أن نفعها أكبر من الخلاعة .

« ومنها اعتناقهم غاية الإعتماد بتعميم معرفة تواريختهم الملية الفضيلة المدبجة بالعلل والأسباب لحب الجنسية .

« ومنها حرصهم على حفظ العادات المنبهة وادخار الآثار القديمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالفالخر .

« ومنها إقامتهم النصب المفكرة بما نصبت له من مهام الواقع القديمة .

« ومنها نشرهم في الجرائد اليومية كل الواقع والمطالعات الفكرية .

« ومنها بهم في الأغاني والنشائد الحكم والمحاسات ، إلى غير ذلك من الوسائل التي تنشيء في القوم نشأة حياة اجتماعية » ..

ولاتم في الأمة تربية قومية بغير تعليم المرأة كما قال في أم القرى : « إن ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان » .

وهذا فضلاً عن سوء تأثيره في الرجال من الأزواج ، لأن الرجل كما قال : « يغره أنه أمامها – أي أمّام زوجته – وهي تتبعه فيظن أنه قائد لها والحقيقة التي يراها كل الناس من حولها دونه أنها إنما تمشي وراءه بصفة سائق لا تابع » .

ويفسر الكواكب حجاب المرأة الشرعي بأنه « محدود بعدم إيداع الزينة للرجال الأجانب وعدم الاجتماع بهم في خلوة أو لغير لزوم » لأن الحجاب بهذا

المقدار يكفي من سوء تأثير النساء ويفرغ أوقاتهن لتدبير البيوت «توزيعاً لوظائف الحياة».

ويرى الكواكب أن «جهالة النساء المفسدة للنّسّاء الأولى وقت الطفولة والصّبوة» هي علة من أكبر العلل التي أصابت الحياة القومية في الشرق بداء «الغرارة» كما سماه وفسره بالقصور عن طلب «الإتقان» في أعمال العاملين وإن كان لهم علم بما يعملون ويشرفون عليه.

فالذين يفهمون صناعاتهم من الشرقيين غير قليلين، ولكنهم، يقنعون بالفهم ولا يحببون العمل ولا يذهبون فيه إلى غايتها التي تخليه من النقص وتجتمع له مزايا الإتقان والوفاء، لأن الفهم شيء يقدر عليه المرء قبل التطبيق، وإنما يظهر الإتقان أو النقص عند تطبيق الأعمال التي يتناولها الناس، فلا يقع الإتقان حيث يشتعل أمره على الناس في معاملاتهم وحيث يتهاونون فيه ولا يطلبونه أو يبذلون فيه حقه، وهنا يظهر أثر «التربية القومية» في المعاملات، أو يظهر الفارق البعيد بين فهم العمل والعناية باتفاقاته واجتناب النقص والتقصير فيه.

ومن الأمثلة التي أوردها الكواكب على الغرارة في كبار الأعمال وصغرها أننا نتوم «أن شؤون الحياة سهلة بسيطة فنظن أن العلم بالشيء إجحافاً ونظرياً بدون ثمرة عليه يمكن للعمل به، فيقدم أحدهنا مثلاً على الإمارة بمجرد نظره في نفسه أنه عاقل مدبر، قبل أن يعرف ما هي الإدارة على ويتمرن عليها عملاً يكتسب فيها شهرة تعينه على القيام بها... ويقدم الآخر منا على الاحتراف - مثلاً - ببيع الماء للشرب بمجرد ظنه أن هذه الحرفة عبارة على حمله قرية وقدحاً وتعرضه للناس في مجتمعاتهم ولا يرى لزوماً لتلقي وسائل إتقان ذلك عمن يرشده مثلاً إلى ضرورة النظافة له في قريته وقدحه وظواهر هيئته ولباسه وكيف يحفظ برودة مائه وكيف يستبرقه ويوجه ليشتوى به، ومنى يغلب العطش ليقصد المجتمعات ويتحرى منها الخالية له عن المزاحمين، وكيف يتزلف الناس ويوجه بلسان حاله أنه مخترف بالإسقاء كفا للسؤال، إلى نحو هذا من دقائق إتقان الصنعة المتوقف عليها نجاحه، وإن كانت صنعته بسيطة حقيرة».

والشخص من رأى الكواكب علاج نافع لشفاء الأمم الشرقية من هذه الغرارة لأن «القياس لا تتحقق في الإنسان إلا في فن واحد فقط... وما جعل

الله لرجل من قلبين في جوفه . فالعالق من يتخصص بعمل واحد ». ولا غنى – مع التخصص – من الترتيب على أنواعه ، ومنها ترتيب أوقات المساء حسب أشغاله وإهمال مالا يتسع الوقت له أو تفویضه إلى غيره ، ومنها ترتيب النفقة على قدر الكسب المضمون ، ومنها ترتيب أمر المستقبل « لإراحة نفسه من الكد في دور العجز من حياته ، فيربى أولاده ذكورا وإناثا ، ليستغنى كل منهم بنفسه متى بلغ أشدده .

ومن الترتيب المطلوب أن يرتب المساء أموره الأدبية على نسبة حالته المادية ، وأن يرتب ميله الطبيعي للمجد والتعالى على حسب استعداده فلا يتطاول إلى مقامات لا يبلغها .

* * *

ويكثر الكواكب من الخض على التشبه بالغربيين في بعض صفاتهم القومية وأشرفها في تقديره صفات الولع بالمعرفة واليقظة الاجتماعية والاستعداد بالقوة والمنعة ، ولكنها يشفق من الإفراط في الإعجاب بأمم الغرب أن يشول إلى استكانة الشرقيين أمامها وقد اندهشوا من الثقة بأنفسهم في معاملتها ويعيب على غالب أهل الطبقة العليا من الأمة كما قال بلسان السيد القراءى أو بلسانه هو في أم القرى : « إنهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ويتقاصرون عن كل عمل ويحجمون عن كل إقدام ويتوقعون الخيبة في كل أمل ، ومن أقبح آثار هذا التحور نظرهم الكمال في الأنجذاب واتباعهم فيما يظنونه رقة وطراوة وتمدننا ، وينخدعون لهم فيما يغشونهم به كاستحسان ترك التصلب في الدين والافتخار به .. »

وهو على إعجابه بالمستحسن من أخلاق الأوربيين القومية لا يرى أنهم سلموا من العيوب في جملة أخلاقهم القومية ويأخذ عليهم كما قال في باب الاستبداد والأخلاق من « طبائع الاستبداد » أنهم ماديون وإن الغربي حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق . فالجرمانى مثلًا جاف الطبيع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال . فهو يحب العلم ولكن لأجل المال ويهب الحجد ولكن لأجل المال ، واللاتينى مطبوع على العجب والطيش يرى العقل في

الأخلاق والحياة في خلع الحباء والشرف في الزينة واللباس والعز في التغلب على الناس » .

وهذه هي المسأله التي يقابلها عند الشرقيين كما قال بعد ذلك « لهم أدبيون يغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والإصغاء للوجدان والرحمة ولو في غير موقعها واللطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة والتهاون في المستقبل . ولهذا ليس في شأن الشرق أن يجوز ما يستبيحه الغرب وإن جوزه لا يحسن استئثاره ولا يقوى على حفظه . . ويهم في شأن ظالمه المستبد فإذا زال لا يفكر فيمن بخلقه » .

بل هو يرى للشرق رسالة باقية في هداية الإنسانية وإنقاذهما من طغيان الحضارة المادية التي يتمادى فيها الغرب ويوشك أن يتردى في هاوية من عوائقها لا نجاة له منها بغير مدد روحياني من الشرق كالمدد الذى تلقاه العالم من أدبياته الأولى ، ويناشد الغرب في ختام كتاب طبائع الاستبداد فيقول : « يا غرب ! لا تحفظ لك الدين غير الشرق إن دامت حياته بحربيته ؛ وإن فقد الدين يهدده بالخراب القريب » ويسترسل سائلًا وكأنه ينظر بلحظ الغيب إلى طغيان مذاهب الهدم الجحود : ماذا أعددت للفوضيين إذا صاروا جيشاً جراراً ؟ هل تعدد لم المواد المفرقة وقد جاوزت أنواعها الألف ؟ أم تعدد لم الغازات انتلحة وقد سهل استحضارها على الصبيان ؟ *

فمساك التربية القومية فيما أوصى به الكواكب أنها نهضة مفتوحة العينين تمضي على بصيرة وثقة ولا تستسلم للإعجاب الذليل ولا للمحاكاة العميماء ، وأنها ملكرة « تحصل بالتعليم والقرآن والقدوة والاقتباس ، أهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين » .

وما من أمة تأخذ بأسباب هذه التربية يعييها أن تدرك الغاية من نفعها ، وأول هذه الأسباب صدق الرجاء في إدراك تلك الغاية كما قال في مقدمات أم القرى : « فلا يهولنا ما ينبعط في جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كي لا نيئس من روح الله ، ولا نتوم الإصابة في قول من قال إننا أمة ميّة فلا ترجي حياتنا . كما لا إصابة في قول من قال إذا نزل الضعف في دولة

أو أمة فلا يرتفع . فهذه الرومان واليونان والأمريكان والطليان واليابان وغيرها — كلها أمم أمثالنا استرجعت شأنها بعد تمام الضعف وقد كل اللوازم الأدبية للحياة السياسية » .

ولأنها هي حضانة علم وحضانة أخلاق ، وعشرون سنة تقوم بحضانة العلم ، وأربعون سنة تقوم بحضانة الأخلاق . إذا كانت عشرون سنة كافية لتخرير فئات من المتعلمين يتتدرون الدراسة من مكاتب التعليم الأولى وينتهون بها إلى معاهد التخصص والإحاطة بأدوات العمل والصناعة ، وإذا كانت تربية الأخلاق إنما تم بتدريب الجيل كله على سنتها وعادتها ، وحدها الأوسط أربعون سنة تنتقل بالأمة من جيل إلى جيل .

* * *

وتتبع التربية القومية ، بل تسبقها في دور النهضة ، تربية « المربين » أو الزعماء الذين يقودون الأمة ويرسمون لها طريقها ويصبرون على تدريبيها وتصحيح أخطائها .

وقد رأينا يقول إن النهضة أصولاً أنها وجود المربين ، وسرى أنه — كأدبه في وصيائمه الجامحة — لم ينس أن يوصي باللحظة التي تهيء لولاء المربين أن يروضوا أنفسهم ويعدوا عقولهم وضمائرهم للصبر على متابعيهم وتذليل عقباتهم ونسيان « ذواتهم » في سبيل رسالتهم ، وهي رياضة صارمة قوية تجمع بين الشدة العسكرية والزهداد الصوفية ، وخلاصتها كما جاء في ختام طبائع الاستبداد :

(١) أن يتمهد المريد في ترقية معارفه لا سيما العلوم النافعة الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد ، والفلسفة العقلية وتاريخ قومه من جوانبه الجغرافية والطبيعة والسياسية ، مع النظر في الإدارة الداخلية والإدارة الحربية .

(٢) أن يتقن أحد العلوم التي تكسبه الاحترام بين قومه .

(٣) أن يحافظ على الآداب والعادات .

(٤) أن يقلل الاختلاط بالناس حفاظاً للوقار واجتناباً للارتباط القوى بأحد ، كيلا يسقط بسقوطه .

(٥) أن يتتجنب مصاحبه المقوت عند الناس لاسيما الحكام .

(٦) أن يجتهد ما أمكنه في كتم مزيته العلمية عن دونه ليأمن من غوايـل حسدهم ، وإنما عليه أن يظهر مزيته لبعض من هم فوقه بدرجات كثيرة .

(٧) أن يتخيـر من ينتـي إليه من الطبقة العليا ولا يكـر التـردـعـ عليه ولا يـظـهـرـ له الحاجـةـ .

(٨) أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه لكيلا تؤخذ عليه تبعاتها .

(٩) أن يحرص على أن يعرف بحسن الأخلاق ولاسيما الصدق والأمانة والثبات .

(١٠) أن يظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والعلاقة بالوطن .

(١١) أن يتبعـدـ من مقاربةـ المستـبدـ وأعوانـهـ إـلاـ بـقـدرـ ماـ يـأـمـنـ شـرـهمـ إـنـ كـانـ مـعـرضـاـ لـذـلـكـ .

قال بعد سرد هذه الصفات : « فـنـ يـلـغـ سـنـ الثـلـاثـينـ - فـاـ فـوـقـ - حـائـزاـ علىـ الصـفـاتـ المـذـكـورـةـ يـكـونـ قـدـ أـعـدـ نـفـسـهـ عـلـىـ أـكـلـ وـجـهـ لـإـحـراـزـ ثـقـةـ قـومـهـ ... وـبـهـذـهـ الثـقـةـ يـفـعـلـ مـاـ لـقـوـيـ عـلـيـهـ الـجـيـوشـ وـالـكـنـوزـ » .

وربما بالغ الكواكبـ فيـ التـوـصـيـةـ باـجـتـنـابـ المـظـهـرـ الـذـيـ يـثـيرـ الـحـسـدـ وـيـغـرـىـ بـالـقـاـوـمـةـ فـيـ دـوـرـ الـدـعـوـةـ وـالـإـقـنـاعـ وـتـأـلـيفـ الـأـنـصـارـ وـالـأـعـوـانـ ،ـ بـلـ قـدـ بـلـغـ مـنـ الـحـرـصـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـ أـثـبـتـهـ فـيـ خـاتـمـةـ أـمـ القرـىـ فـجـمـلـ «ـ مـظـهـرـ الـجـمـعـيـةـ الـعـجـزـ وـالـمـسـكـنـةـ وـأـوـصـاـهـاـ فـيـ الـقـضـيـةـ السـابـعـةـ وـالـأـرـبـعـينـ بـأـلـاـ تـقاـوـمـ وـلـاـ تـقـابـلـ إـلـاـ بـأـسـالـيـبـ الـنـصـيـحةـ وـالـمـوعـذـةـ الـحـسـنـةـ وـتـلـاطـفـ وـتـجـامـلـ جـهـدـهـاـ مـنـ يـعـادـيـ مـقـاصـدـهـاـ ..ـ إـلـاـ فـيـ الـضـرـورـاتـ » .

إـلـاـ أـنـهـ لـاـ يـنـكـرـ عـلـىـ الـمـصـلـحـ الـذـيـ اـنـقـادـتـ لـهـ زـعـامـةـ الـأـمـةـ أـنـ يـدـفـعـهـاـ دـفـعاـ إـلـىـ التـقـدـمـ وـالـخـيـرـ .ـ لـأـنـهـ يـقـرـرـ غـيرـ مـرـةـ أـنـ بـلـاءـ الشـرـقـ «ـ فـقـدـ السـرـةـ وـالـمـدـاـةـ .ـ فـلـاـ أـمـيرـ عـامـ حـازـمـ مـطـالـعـ يـسـوـقـ الـأـمـةـ طـوـعاـ أـوـ كـرـهاـ إـلـىـ الرـشـادـ ،ـ وـلـاـ حـكـيمـ مـعـرـفـ لـهـ بـالـمـزـيـةـ وـالـإـخـلـاـصـ تـنـقـادـ لـهـ الـأـمـرـاءـ وـالـنـاسـ ،ـ وـلـاـ تـرـيـةـ قـوـيـةـ يـنـتـجـ مـنـهـاـ رـأـيـ عـامـ لـاـ يـطـرـقـهـ تـحـاذـلـ وـانـقـاسـ » .

التربية المدرسية

تنظيم التربية المدرسية عمل يستقل به خبراؤه المختصون بالإشراف على إدارة المدارس وتحضير مناهج التدريس، وفي وسعهم أن يحصروا المعلمين وال المتعلمين ويقسموا لمعاهد التربية مراحلها التي تكفي لأوقات الاستعداد وأوقات النكملة والاتماء ، على حسب الحاجة المتتجدة إلى كل صنف من أصناف الدراسات .

وربما بدأت أعمال مؤلاء الخبراء عند نهاية العمل السابق الذي يتصلدي له الإمام المصلح لحت الأمة على افتتاح المدارس وتعليم الأبناء . فليس «تصنيف» المواد المدرسية من عمل الإمام المصلح في دور التربية والاستئضاض والحضور على طلب العلم كله ، كائناً ما كان .

ولكن الإمام الكواكبى قد نشأ في عصر ثقافي مريج ملتبس المظاهر بالحقائق كثير البقاء من الماضي والطلاق من المستقبل ، فاضطر إلى مهمة من مهام «التخلص» بين البقاء والطلاق ووجبت عليه المشاركة في «تصنيف العلوم» المدرسية لمييز على الأقل صفة العالم الجدير بمكانة الإرشاد والمداية وصفة العلم الذي يفضل في رسالته الأولى وهي كفاح الاستبداد والدعوة إلى الحرية .

وكذلك كان العلم عنده علمن : علم يطمئن إليه الاستبداد ولا يخاف عقباه وعلم يعرف به الإنسان «أن الحرية أفضل من الحياة» ويدرك به «النفس وعزها والشرف وعظمتها ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع ، والإنسانية وما هي وظائفها ، والرحمة وما هي لذاتها» .

* * *

ومن الظروف الثقافية التي أجلأته في عصره إلى المشاركة العامة في مناهج

التربية المدرسية أن العلم كان في بعض المراسم « منحة » حكومية تخلع على طائفة من أصحاب الخظوة من المهد بغير حاجة إلى مدرسة ولا إلى دروس .

فالطفل من طائفة « زادكان » أى الأصلاء ينعت في المنشور الرسمي عند ولادته (بأنه أعلم العلامة الحفظين) ... ثم يكون فطيمًا فيخاطب بأنه (أفضل الفضلاء المدققين) ... ثم يصير مراهقاً فيعطي المولوية ويشهد له بأنه (أقضى قضياء المسلمين معدن الفضل واليقين زانع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين) ... ثم يكبر فيوصي (بأعلم العلامة المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين يتبع الفضل واليقين) إلى آخر ما في تلك المنشائر من الكذب المبين .

يقول الكواكبى بلسان المولى الرومى بعد ما تقدم : « ولا ريب أن التسعين في المائة من هؤلاء العلامة المتبحرين لا يحسنون قراءة نعوتهم المزورة ، كما أن الخمسة والتسعين في المائة من أولئك المتورعين رافعى أعلام الشريعة والدين يحاربون الله جهاراً ويستحقون ما يستحقون من الله وملائكته والمؤمنين » .

ثم يقول : « ويکفى حجة عليهم ... تمیزهم جمیعاً بلباس عروس محل بكثير الفضة والذهب مما هو حرام بالإجماع ولا يحتمل التأویل ... اقتبسوا هذا اللباس من كهنة الروم الذين يلبسون القباء والقلنسوات المذهبة عند إقامة شعائرهم وفي احتفالاتهم الرسمية ... »

* * *

وأمر هؤلاء « العلما » بغير علم وبغير تعليم مفروغ منه ، لا يحتاج من الدولة إلى أكثر من المنشورات الرسمية لإعداده وتمكينه من مناصبه ، ولا يحتاج من الإمام المصلح في دور النهضة إلى أكثر من التنبيه إليه لاستقطاب شأنه والإعراض عنه .
لكن الشأن الذى لا يغنى فيه مثل هذا التنبيه إنما كان شأن « العلما » بنوع من العلم المطلوب في معاهده ولكته لا يلتقي بالإصلاح في طريقه أو تلتقي به في بعض الطريق ويتولى عنه في سائرها .

من هؤلاء طائفة العلما الجامدين على التقليد ، ولا يعنهم من العلم غير الإمام بأشكال الفرائض والشعائر على سنة التقليد الأعمى بغير نظر في حكمتها ومعناها ، ومن هؤلاء من كان يحرم تعليم الآباء دروس الجغرافية الحديثة لأنها تعلمهم

أن الأرض مستديرة وأنها تدور حول الشمس وتدور حول نفسها ، خلافاً لما توهمه من معنى انبساط الأرض واستقرارها أن تميد بمن عليها ، ومن هؤلاء من كان يسترب بالتلفون لأن انتقال الصوت على مدى الفراسخ والأميال من فعل الشيطان ولن يؤذن له أن يفعله بعد سليمان !

وأحسن من هؤلاء حالاً من كانوا يبيحون المعرفة بالعلوم الحديثة ولكنهم يحرمون أسماءها ولا يجيزون تدريس الظواهر الطبيعية إلا أن تسمى « بعلم الخصائص التي أودعها الله سبحانه وتعالى طبائع الأشياء ... » .

وأحسن من هؤلاء حالاً من كانوا يسمحون بتعليم جميع العلوم ويقتصرن النفع منها على تخريج الموظفين وصناع المعامل التي تديرها الحكومة لخدمة أغراضها وما زرها . وقد كان في بلاد الدولة العثمانية ولاية يفتحون المدارس ويعثرون العوثر إلى بلاد القارة الأوروبية لتحصيل الصناعات والعلوم العملية والنظرية التي تعينهم على تنظيم الدواوين وإدارة مصالح الرى والزراعة وتعزيز الخزانة العامة لمنفعتهم أو منفعة السلطة الحكومية .

ونشأ مع هذه « التصنيفات المدرسية » صنف من العلوم قد تعم الحاجة إليه في توسيع نطاق الثقافة وتنويع أبواب المعرفة ، وهو العلوم الفكرية الكلامية من فلسفة وبلاحة وتحليل لأصول التشريع والتاريخ وما إليها ، ولكنها مما يحتمل الإرجاء إلى ما بعد الوثبة الأولى من وثبات الإصلاح في رأى بعض القادة الذين يرتبون أدوار الثقافة بترتيب الضرورات الفردية ، ولا يحسبون حساباً كبيراً للفارق بين ضرورات الأمم وضرورات الأفراد .

* * *

في مثل هذا العهد من عهود التنازع على اختيار العلوم المقدمة يلتتجيء الإمام المصلح إلى المشاركة في عمل المخبر المدرسي المتفرغ لتصنيف علوم الدراسة وإعداد مناهج التربية في مراحلها المتتابعة .

وقد اضطر الكواكب إلى المشاركة في هذا العمل ، ونظر إليه — كعادته — من زاويته التي هي أولى عنده بالتقديم من كل زاوية ، وهي ناحية النظر إلى الاستبداد وما يخشأ المستبد من العلوم وما لا يخشاه ، وما هو أحق — من ثم — بالابتدار به والتعويل عليه في كل نهضة تتبعت لطلب الحرية ومكافحة الاستبداد .

قال في طبائع الاستبداد : « المستبد لا يخشى علوم اللغة — تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان وأكثراها هزل وهذيان يضيع به الزمان ... نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو سحر بيان يحمل عقد الجيوش ، لأنه يعرف أن الزمان ضئيل بأن تلد الأمهات كثيراً من أمثال الكميّت وحسان ، أو أمثال منتسكيو وشيلار ، وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ، المختصة بما بين الإنسان وربه ، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزال غشاوة ، وإنما يتلهي بها المتهوسون للعلم حتى إذا ضاع فيه عمرهم ، وامتلأت بها أدمنتهم ، وأخذ منهم الغرور ما أخذ فصاروا لا يرون علمآ غير علمهم ، فحيثئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خمر . على أنه إذا نبغ منهم البعض ونالوا مزية بين العوام لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنه يضحك عليهم بشيء من النعيم ويسد أفواههم بلقيمات من فقات مائدة الاستبداد .

* * *

ويقول السكواكبى بلسان الرياضى الكردى فى أم القرى : « إن السبب العام هو أن علماءنا كانوا اقتصرت على العلوم الدينية وبعض الرياضيات وأهملوا باقى العلوم الرياضية والطبيعية التى كانت إذ ذاك ليست بذات بال ولا تفيد سوى الجمال والكمال . فقد أهلها من بين المسلمين واندرست كتبها وانقطعت علاقتها فصارت منفورة منها .. والمرء عدو ماجهل ، بل صار المتطلع إليها منهم يُفسق ويرى بالزيغ والزندقة ، على حين أخذت هذه الغلوم تنموا فى الغرب ، وعلى كر القرون ترقى وظهرت لها ثمرات عظيمة فى كافة الشؤون المادية والأدبية . . . »

علوم الرياضة والطبيعة التى كانت قبل بضعة قرون مجموعة من المعادلات النظرية والحواطر الفكرية هى التى تطورت بها نهضة الثقافة فى الغرب فأصبحت فى طبيعة علوم القوة والعمل ، وقام عليها تقسيم المتخصصين للكشف والاختراع واستطلاع حقائق المادة واستنباط القوانين التى تحكمها وتفسرها .
ولازمتها علوم نظرية ولكنها لازمة لتوسيع الثقافة العامة ولا سيما ثقافة

القادة المتعلعين إلى كفالة النهضة في أوائلها ، وهذا يوصى الشاب الذى يتطلع إلى هذه القيادة أن « يوسع معارفه مطلقاً » ولا سيما في العلوم الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة المقلية والتاريخ والجغرافية والإدارة الداخلية والإدارة الحربية . . وسائر ما نسميه في هذا العصر بالمعلومات العامة .

ولذا أراد هذا الشاب أن يكسب في قومه « موقعاً محترماً » فلا غنى له مع سعة معلوماته العامة من الاختصاص بأحد العلوم التي يشعر الناس بقدرها كعلم الدين أو الطب أو الإنشاء أو الحقوق .

* * *

على أن التربية المدرسية – تربية أبناء الأمة – تبدأ قبل المدرسة ولا تنتهي بانتهائهما كما قال في طبائع الاستبداد : « إن التربية تربية الجسم وحده إلى ستين وهي وظيفة الأم وحدها ، وتربية النفس إلى السابعة وهي وظيفة الآبوبين والعائلة معاً ، ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ وهي وظيفة المعلمين والمدارس . ثم تأتي تربية القدوة بالأقربيين والخلطاء إلى الزوج وهي وظيفة الصداقات ثم تأتي تربية المقارنة وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق » .

* * *

فال التربية الفردية ، على هذا ، قصة محبوبة الطرفين بين حجر الأمومة في الطفولة الباكرة وبين كتف الزوجية بعد استواء السن وتقديمها . . لا جرم يكثر الحضن في كلام الكواكب على تصحيح وظيفة المرأة في الحياة والتحذير من جهلها وسوء تربيتها والانحراف بها عن سواتها ، فان النساء كما جاء في طبائع الاستبداد اقتسمن مع الرجال أعمال الحياة قسمة ضئيل .. « وجعلن الشجاعة والكرم سيدتين فيهن محدثتين في الرجال ، وجعلن نوعهن فيهن ولا يهان ويظلم أو يظلم فيعان ، وعلى هذا القانون يرببن البنات والبنين ويتألعن بعقول الرجال كما يشأن . . ومن المشاهد أن ضرر النساء بالرجال يترافق مع الخضاررة

والمدنية على نسبة الترق المضاعف . فالبدوية تشارك الرجل مناصفة في الأعمال والثروات فتعيش كما يعيش ، والحضارية تسلب الرجل لأجل معيشتها وزيتها اثنين من ثلاثة وتعينه في أعمال البيت ، والمدنية تسلب ثلاثة من أربعة وتود ألا تخرج من الفراش ، وهكذا ترق بنيات العواصم في أسر الرجال . وما أصدق بالمدنية الحاضرة في أوربة أن تسى المدنية النسائية لأن الرجال فيها صاروا أنعاماً للنساء » .

الأخلاق

يكتب الكواكبي في جميع مباحثه بقلم الباحث المخلل الذي يزن آراءه بميزان المنطق العملي والتجربة العلمية ، وينحو هذا النحو في كتابته عن الأخلاق وفي كتابته عن السياسة الحاضرة أو التاريخ الغابر ، ولكنها يصل إلى بعض الصفات في سياق كلامه على الأخلاق فيخيل إليك أنه يود لويذع القلم جانيا ليأخذ بيده ريشة النغم ويترنم وهو يتكلم ، وأول هذه الصفات صفة الإرادة وصفة الحرية ، وسائر الصفات التي تلغى الاستبداد أو يلغيها الاستبداد .

يقول في باب الأخلاق من طبائع الاستبداد : « ما هي الإرادة ؟ هي ألم الأخلاق . هي ما قيل فيه تعظيمها لشأنها : لوجازت عبادة غير الله لاحتقار العقلاء عبادة الإرادة . هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن الثبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . فالأسير إذن دون الحيوان لأنه يتحرك بارادة غيره لا بارادة نفسه ».

ثم يقول في وصف الأسير مسلوب الإرادة : « لانظام في حياته فلا نظام في أخلاقه . قد يصبح غنياً فيضمحي شجاعاً كريماً وقد يمسى فقيراً فيبيت جباناً خسيساً ، وكذا كل شئونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها ، فهو يتبعها بلا وجهة . أليس الأسير قد يبغى فيزجر أو لا يزجر ، ويبغى عليهفينصر أو لا ينصر ، ويحسن فيكافأ أو يرهاق ويسيء كثيراً فيبغى وقليلاً فيشنق ، ويبقى يوماً فيضموي ويختصب يوماً فيتختب ، ويريد أشياء قيمتها وبأبي شيئاً فيرغم . . . »

وما قاله عن الحرية في ألم القرى : « إن البلية فقدنا الحرية . وما أدرانا ما الحرية ؟ هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه ».

ثم قال : « إن الحرية أعز شيء على الإنسان بعد حياته . . . بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين » .

وقد عرفنا من كل ما كتبه هذا المفكر العامل أنه « منطق مع نفسه في مذاهبه تفكيره .. ولكن ما كتبه عن الإرادة والحرية بصفة خاصة أدل على هذه السليقة فيه ، أو أعمق دلالة عليها ، من مسائل كثيرة طرقها ولا يستغرب فيها أن تتناسق وتطرد على وثيره واحدة لظهور العلاقة بينها . وإنما اختصاص الإرادة والحرية بالمجيد والتقييس آية من الآيات الصادقة على أصلية التفكير والشعور فيما يكتب عن هذه الأمور ، أو هو آية على نفس مطبوعة بتفكيرها وإحساسها على إدراك مساوى الاستبداد والقطنة مواطن ضرره ومواطن طيه وعلاجه ، فلا الشجاعة ولا الكرم ولا العفة ولا المروءة تصور الخلق المطلوب في مناضلة الاستبداد كما تصوره الإرادة والحرية ، ولا شيء ينفع في ذلك النضال مع فقدان الإرادة والحرية ، ولا بد أن تقرنا معًا تمام الأبهة في ثورة الأمة على المستبد ، لأن الإرادة بغير حرية تبع لصاحب السيادة ، ولأن الحرية بغير إرادة تفقد ال باعث على الحركة فلا تدرى لها وجهة تذهب إليها . ولعل العبد يعتزم ويريد ويصمد على عزمه وإرادته في خدمة سيده فلا جدوى لغير هذا السيد في ملكة الإرادة التي يتصرف بها عبيده ومطيعه .

والاستبداد — كما لا يخفى — يتلخص في تغليب إرادة واحدة لا تسمح بارادة أخرى تعمل إلى جانبها على خلاف هواها . فليس من الطبيعي أن يبقى من خضعوا له طويلاً عمل يريدونه لأنفسهم ويتذرون فيه بذاتهم ، فلا تعنيهم إرادة غير إرادة الحاكم المسلط عليهم ولا يشغلهم شاغل في حياتهم غير الخوف من غضبه والسعى إلى رضاه ، وشر من عملهم له رائجين خوفاً منه ، أن يعملوا له راضين جهلاً بحقيقة وانقياده وخداعه وأنداده ومؤيديه .

* * *

والواقع أن مؤلف طبائع الاستبداد قد حصر مشكلة الأخلاق جھيماً في وضع واحد : خلاصته أنها « حرب إرادات بين الحاكم المطلق والرعايا المحكومين .

فاستطاع — من ثم — أن يحسم المشكلة حينما سريعاً بقسمة الأخلاق إلى قسمين متعارضين : قسم لمصلحة الحاكم المستبد وقسم لمصلحة الرعایا المحكومين .

فن مصلحة المستبد شروع أخلاق الملقب والنفاق والريبة والأثرة التي تشغل المحكوم بمنفعته القربي دون كل منفعة عامة ينتفع بها هو أو ينتفع بها غيره بعد حين : « وأقل ما يؤثره الاستبداد في أخلاق الناس أنه يرغم — حتى الأخيار منهم — على لغة الرياء والنفاق . . . وأنه يعين الأشرار منهم على إجراء ما في لفوسهم آمنين من كل تبعة ولو أدبية . فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح . لأن أكثر أعمال الأشرار تبقى مستوراً يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذي شر وعقبى ذكر الفاجر بما فيه . وهذا شاعت بين الأسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم : إذا كان الكلام من فضة فالسكتوت من ذهب ، وقولهم : البلاء موكول بالمنطق ، وقد تغلى وعاظهم في سد أفواههم حتى يجعلوا لهم أمثال هذه الأقوال من الحكم النبوية . . . » .

ومن آثار أخلاق الذلة والخضوع أنها تؤذى الأجسام فضلاً عن العقول ، وتشيع المرض في بقية الحى كما تشيع المرض في ضميره ، وإن في ذلك شاهداً يبيناً « يقاسم عليه نقص عقول الأسراء البوسae بالنسبة إلى الأحرار السعداء ، كما ظهر الحال أيضاً . . . من الفرق بين في قوة الأجسام وغزاره الدم واستحكام الصيحة وجمال الهيئات » .

ومن سوء أثر الاستبداد أنه « يضعف الثقة بالنفس » ويفقد الناس ثقة بعضهم ببعض « فينبع من ذلك أن الأسرى محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة ، يعيشون مساكين يائسين متواكلين متخاذلين متقاusين متناشئين . والعاقل الحكيم لا يلومهم بل يشفق عليهم ويتمس لهم غرجاً ويتبع أثر أحكم الحكام القائل : رب ارحم قومي فإنهم لا يعلمون . . . » .

ولا بقاء للاستبداد إذا تعود الناس الاشتراك في الرأى والتعاون على العمل . فعلى هذا الاشتراك يقوم نظام الرعایا الأحرار في الأمم التي سقط فيها حكم الاستبداد وخلفته حكومة الأمة : « فيه سر الاستمرار على الأعمال التي لا تني بها أعمار الأفراد . نعم . الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الأمم

المشمنة ، به أكلوا ناموس حياتهم القومية . به ضيّعوا نظام حكم ماتهم . به قاموا بعظام الأمور . به نالوا كل ما يبغضهم عليه أسرى الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتذوقون إليه ، ولكن كل منهم يبطل الغبن لشركائه باتكاله عليهم عملا واستبداده عليهم رأيا ، حتى صار من أمثالهم قولهم : ما من متقيين إلا وأخذهم مغلوب

ويرى الكواكبى أن حكم الاستبداد قد استفحى بين المسلمين بعد إهمالهم حياة الجماعة والمشاورة بين الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، وأن سبب الفتور الذى أصابهم - كما جاء بلسان خطيب من « خطباء » أم القرى « هو فقد الاجتماعات والمفاضلات ... إذ نسوا حكمة تشريع الجماعة والجامعة وبجمعية الحج وترك خطبائهم ووعاظهم - خوفاً من أهل السياسة - التعرض لشنون العامة ، كما أن علماءهم صاروا يسترون جنبهم يجعلهم التحدث في الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشغال بما لا يعني ، وأن إثبات ذلك في الجوامع من اللغو الذى لا يجوز . وربما اعتبروه من الغيبة والتتجسس أو السعي بالفساد فسرى ذلك إلى أفراد الأمة وصار كل فرد لا يهم إلا بخريصة نفسه وحفظ حياته في يومه ، كأنه خلق أمة وحده

* * *

ولما فرغ من قسمة الأخلاق بمقاييسه الدائم إلى قطبين متقابلين : أخلاق الاستبداد وأخلاق الحرية ، أو أخلاق لمصلحة الحاكم المطلق وأخلاق لمصلحة الرعايا نظر في تقسيمها درجات على حسب المصلحة التي تعنى بها ، وأنواعا على حسب نصيتها من الشرف والرقة .

فالمصالح التي تتحققها الأخلاق هي مصلحة الإنسان نحو نفسه ، ومصلحته نحو عائلته ، ومصلحته نحو قومه ، ومصلحته نحو الإنسانية ، وهذه هي الأخلاق العليا التي تسمى عند الناس بالناموس .

ثم هي أنواع « الخصال الحسنة الطبيعية كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة والخصال الكلالية التي جاءت بها الشرائع الإلهية كتحسين الإيثار والعفو وتقبیح الزنا والطمع ويوجد في هذا النوع مالا تدرك كل العقول

حكمة تعليميه فيممثله المتسبون للدين أحتراماً ونحوها . . . والنوع الثالث الخصال الاعتبادية وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو التربية أو الألفة . . . والتدقيق يفيد أن الأقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويؤثر بعضها في بعض فيصير جموعها تحت تأثير الألفة المديدة . . . ترسخ أو تزيل حسبياً يصادفها من استمرار الألفة أو انقطاعها . فالقاتل - مثلاً - لا يستذكر شنيعته في المرة الثانية كما استقبحها من نفسه في الأولى، وهكذا يخف الجرم في ومه حتى يصل إلى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعي له ، كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين الذين لا ترتج في قلوبهم عاطفة رحمة عند قتلهم أفراداً أو أئمـا لغايـاتـهم السياسية إهراقاً بالسيف أو إزهاقاً بالقلم » .

وهنا يتول الأمر إلى مساوىء الاستبداد في إفساد الأخلاق . لأن ألفة الأحوال العامة تتبعه وتنطبع انطباع العادة في ظله : « ويكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتبارية تلبسه بالرياء اضطراراً حتى يألفه ويصيـرـ مـلـكةـ فـيـهـ فـيـفـقـدـ بـسـبـبـهـ ثـقـةـ نـفـسـهـ بـنـفـسـهـ » .

* * *

ولا يغوصنا - ونخـنـ نـخـتـمـ القـوـلـ فـيـ آراءـ الكـواـكـبـيـ - أـنـاـ أـمـامـ «ـ بـرـنـامـجـ »ـ عمـلـ »ـ يـصـدـقـ عـلـيـهـ وـصـفـ «ـ الـبـرـنـامـجـ »ـ قـيـلـ أـنـ يـصـدـقـ عـلـيـهـ وـصـفـ الـفـلـسـفـةـ أوـ المـدـهـبـ أوـ النـظـرـيـةـ .ـ فـلـ يـكـنـ يـعـنـيـهـ أـنـ يـدـرـسـ الـأـخـلـاقـ مـنـ وـجـهـ الـأـصـوـلـ الـعـامـةـ وـالـمـبـادـيـءـ النـظـرـيـةـ كـمـاـ عـنـاهـ أـنـ يـلـرـسـهـ مـنـ زـاوـيـةـ النـظـرـ إـلـىـ الـاسـتـبـدـادـ وـأـثـرـ الـحـكـوـمـةـ الـمـسـتـبـدـةـ الـتـيـ يـبـدـأـ مـبـنـاهـ وـيـعـودـ إـلـيـهـ فـيـ كـلـ شـرـحـ مـنـ شـرـوحـهـ وـكـلـ سـنـدـ مـنـ أـسـنـادـهـ ،ـ وـهـذـاـ اـخـتـرـنـاـ أـسـمـ «ـ الـبـرـنـامـجـ »ـ لـفـلـسـفـتـهـ الـعـمـلـيـةـ .ـ وـاـخـتـرـنـاهـ إـنـصـافـاـ لـنـهـجـهـ فـيـ التـفـكـيرـ وـتـبـرـئـةـ لـهـ مـنـ ضـيـقـ الـحـصـرـ الـذـيـ يـلـازـمـ الـفـكـرـ الـمـحـدـودـ فـلـ يـخـرـجـ مـنـهـ لـأـنـهـ لـاـ يـقـدـرـ عـلـىـ تـجاـوزـهـ لـأـنـهـ مـشـغـولـ فـيـ بـحـوثـهـ بـالـأـمـرـ الـذـيـ يـعـنـيـهـ .ـ

وسيلة التغيير

عرضنا فيها تقدم برنامج الإصلاح في دعوة الكواكب من أهم جوانبها السياسية والاجتماعية .

وبيدو من النظرة العاجلة — كما يبدو في إطالة النظر في هذه البرامج — أنها خطة ثورية لقلب نظام الحكم المطلق في بلاد العرب وإقامة الحكم القومي على أساس الشورى في تلك البلاد .

فما هي وسيلة الكواكب إلى تحقيق تلك الخطة الثورية ؟
إنه لم يكتنها وإن أخفى غايتها التي لا تخفاء بها مع العلم بعقمها .

وسرى أنه كان «واقعاً عملياً» في وسليته كما كان «واقعاً عملياً» في دعوته .
فإن وسليته التي اطأأن إليها كافية لتحقيق الغاية القصوى كما يريدها ، وعلينا أن نتذكر تلك الغاية القصوى ونحصرها في نطاقها لكي نعلم كفاية الوسيلة لتحقيق الغاية منها .

علينا أن نذكر أنه كان يريد قلب نظام الحكم المطلق في بلاد العرب ، ولم يكن ذلك موقوفاً على قلب هذا النظام في الدولة العثمانية أو قلب نظام الحكم في القسطنطينية عاصمة السلطان العثماني ومركز الحكومة التركية . فان قلب الحكومة المستبدة في الدولة التركية قد يحتاج إلى وسيلة غير وسليته المختارة لتحرير بلاد العرب واستقلالها بشئونها ، سواء تم هذا الاستقلال دفعة واحدة أو جاء على درجات ترقى من الحكم الذاتي إلى تمام الاستقلال .
كان «الكواكب» عربياً بتفكيره وشعوره في ثقته الكبرى «بقوة الكلمة»

أو قوة الدعوة المنتظمة . وتراءى هذه الثقة القوية بفعل الكلمة في إيقاظ الشعوب من عنوان كتاب « طبائع الاستبداد » الذى أرده على الغلاف بسطره يقول فيه إنه « كلامات حق وصيحة فى واد . إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد » .

ومن ثقته بفعل الدعوة المنتظمة قوله فى مقدمة أم القرى : « أيقنوا أنها الإنوان أن الأمر ميسور وأن ظواهر الأسباب ودلائل الأقدار مبشرة أن الزمان قد استدار ونشأ فى الإسلام أقطاب أحرار وحكماء أبرار ، يعد واحدهم بآلف وجمعهم بآلف ألف . فقوة جمعية منتظمة من هؤلاء النبلاء كافية لأن تفرق طبل حزب الشيطان وتسترعى معن الأمة مهما كانت فى رقاد عميق وتقودها إلى النشاط وإن كانت فى فنور مستحكم عتيق .. لأن الجمعيات المنتظمة يتسمى لها الثبات على مشروعها عمرآ طويلاً ي匪 بما لا ي匪 به عمر الواحد الفرد وتتأقى بأعمالها كلها بعزم صادقة لا يفسدتها التردد . وهذا هو سر ما ورد فى الأثر من أن يد الله مع الجماعة ، وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظام وتتأقى بالعجبائب ، وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية ، وهذا هو سر النجاح فى كل الأعمال المهمة ، لأن سنته الله فى خلقه أن كل أمر - كلياً كان أو جزئياً - لا يحصل إلا بقوة وزمان متناسبين مع أهميته ، وأن كل أمر يحصل بقوة قليلة فى زمان طويل يكون حكم وأرسخ وأطول عمرآ مما إذا حصل بمزيد قوة فى زمان قصير . وكلنا يعلم أن مسألتنا أعظم من أن ي匪 بها عمر إنسان لا ينقطع أو مسلك سلطان لا يطرد أو قوة عصبية حضارية حمقاء تفور سريعاً وتغور سريعاً .. »

قال : « ولا ينبغى الاسترسال مع الوهم إلى أن الجمعيات معرضة فى شرقنا لتيار السياسة فلا تعيش طويلاً - ولا سيراً إذا كانت فقيرة - ولم تكن كغالب الأكاديميات ، أى المجامع العلمية ، تحت حماية رسمية، بل الألائق بالحكمة والخزم الإقدام والثبات وتوقع الخير إلى أن يتم المطلوب » .

بهذه الوسيلة - وسيلة الكلمة الحية والدعوة المنتظمة - كافية صالحة لتحقيق غايتها ، مفضلة على الوسائل الأخرى التى قد يستعملها الدعاة لقلب الدول وإقامة النظم وقيادة الشعوب من حال إلى حال .

فإذا انتشرت الفكرة بين قادة الرأى فى البلاد العربية فقد تحققت نتيجة

لا شك فيها ولا حاجة إلى نتيجة أكبر منها ، وهي تصعيب كل حكم للعرب يخالف الدعوة وإخراج الدولة الحاكمة في بلادهم سواء عولت في حكمها على التعاون معهم أو اعتمدت على السطوة وحدها لإخضاعهم وتطويتهم ، وكلاهما مطلب عسير لا يطول عليه صبر الحاكم الأجنبي ولا تطول فيه المحكومين .

أكان الكواكب يزهد في الثورة الدموية أو يحجم عنها خوفاً من أنخطارها ؟ كلا ... فقد فكر طويلاً في هذه الثورة وبحث كثيراً في أحوالها كما يظهر من استقصائه لجميع هذه الأحوال في خاتمة كتاب طبائع الاستبداد . فوقر في خلده أن تدبير هذه الثورة قيل بإعداد العدة لما بعدها خطط في الرأى ومضيغة للجهود ومجازفة بالنتيجة المرجوة ، ووقر في خلده - مع هذا - أن العامة لا يثرون في الأغلب الأعم إلا لأسباب مخصوصة قلما تجتمع في وقت واحد .

« فلا يثور غضبهم على المستبد إلا عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه ، أو عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً .. أو عقب تظاهر المستبد باهانة الدين .. أو عقب تصفيق شديد عام مقاضاة مثال كثير لا يتيسر لاعطاوه .. أو في حالة مجاعة أو مصيبة عامة لا يرى فيها الناس مواساة ظاهرة من المستبد .. أو عقب تعرض المستبد لناموس العرض أو حرمة الجنائز أو تحقيير الشرف الموروث .. أو عقب تصفيق يوجب تظاهر عدد كبير من النساء .. أو عقب الظهور بموالة شديدة لمن تعتبره الأمة عدواً لشرفها .. والمستبد - كما قال - لا تخفي عليه هذه المزايا مهما كان غبياً لا يغفل عن إتقانها » .

وقد كاد الكواكب يستقصى كل سبب يثير العامة ويبيح سخطهم على الحاكم ل ساعتهم على غير Heidi منهم لغاياتهم أو لعمل ينفعهم ، ويدلل استقصاء الكواكب بهذه الأسباب على طول تفكيره في تدبير الثورة العامة حيث ترجى الفائدة من لشوتها ، وهي - في الواقع - لا ترجى لها فائدة قبل اتضاح الخطة التي تعقبها وتستقر عليها وقبل تعميم الدعوة إلى تلك الخطة بين القادرين على تحقيقها : « فان معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل ، كما أن معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جهل الطريق المؤصل إليها . والمعرفة الإجمالية في هذا

الباب - لا تكفي مطلقاً ، بل لابد من تعين المطلب والخطة تعيناً واضحاً موافقاً لرأى الكل أو لرأى الأكثريه ... »

ولم يكن هذا التأثر المتمكن من قواعد الثورة ليجهل فعل القوة العسكرية في تبديل النظم وتفويض الحكومات ، فقد كان يقول لصحابه ومن يخاطبهم بدعوته : « لو ملكت جيشاً لقلبت حكومة عبد الحميد في أربع وعشرين ساعة ». وكان قصاراً من البيان في هذا الصدد أن يفضي به إلى ثقاته حيث لا يتائق إعلانه في الصحافة المشورة ولا جدوى من إعلانه ونشره . ومن صرخ لهم بهذا الرأي « ابراهيم سليم النجار » الذي قال عنه في مجلة الحديث إنه لو لم يكن شيئاً دينياً لكان قائد جيش فاتح .. »

نعم . هكذا كان ينبغي أن يفكر في تدبير الوسيلة لقلب حكومة عبد الحميد في القدسية ، لأن دعوه إلى النهضة العربية لا تغنى شيئاً في محاربته السلطان القائم بالأمر في العاصمة التركية ما لم تسعده قوة السلاح . ولكنه في دعوه التي تجرد لها لا يلقي بين يديه وسيلة أفعى من وسائله ولا يصل إلى نتيجة مرموقة أفضل من النتيجة التي يصل إليها بالكلمة الحية والجماعة المنتظمة . وحسبه أن يبلغ بها حد الإقناع في قوله لسقوط كل حكومة تسوسهم في عقر دارهم على غير اعتقادهم واختيارهم . وإنما المسألة هنا مسألة وقت مقدور لا شك بعد انقضائه في الغاية التي يتوال إليها .

* * *

وأيا كان القول الفصل في كفاية الدعوة وحدها لاستقلال العرب بالحكم الذاتي أو بالانفصال من الدولة العثمانية فالحقيقة التي لا خلاف عليها أن الدعوة ألزم وسيلة من وسائل العمل النافع حين يكون المقصود إقناع أصحاب الحق بمحقهم وتعزيز الثقة بأنفسهم وبإمكان الظفر بأهدافهم ، قبل التغلب بوسيلة من الوسائل على خاصب الحق أو المعارض فيه . فان زوال القوة العاقبة قبل اتفاق أصحاب الحق عليه وعلى الغاية من إدراكه قد يفتح أبواب الفتنة على مصاريعها ويهدى الطريق لخاصب طارئ بعد خاصب معزول .

ويقل الخلاف في مسألة الخلافة وكفاية الدعوة لإقامةها على الصورة التي

تداولتها آراء الكواكبى بالسنة المتكلمين فى أم القرى ؛ وبخاصة حين يكون الخليفة إماماً روحياً محدود السلطان فى شئون الدولة . فليس السلطان العثماني فى هذه الحالة وجه من الوجه لإبطال بيعة الخلافة بالقوة العسكرية لواستطاعها مع جميع الأمم الإسلامية ، المستقلة وغير المستقلة ، وهو لا يستطيعها ولو تهيات له الذريعة الشرعية لاستخدام قوته العسكرية .

على أن الراجح في تقديرنا أن الكواكبى إنما أراد شيع الفكرة بين المسلمين ببطلان دعوى الخلافة العثمانية ، لأن بقاء هذه الفكرة على شيوخها في العالم يومئذ قد يشل حركته ويضعف حجته ويمثله للناس كأنه محارب للخلافة الإسلامية مؤيد للغارة عليها من جانب الدول الاستعمارية . فإذا ارتفعت هذه الشبهة فهوquin أن يكسب الرأى العار إلى صفحه وأن يتقدّم دسائس الدول التي لا يعييها أن تبليها بين الأمم التابعة لها إحباطاً لمسعاها ، بل لعل هذه الدول ترحب بالخلافة المنعزلة عن الدولة وتفضلها على الخلافة التي تعترضها في ميادين السياسة الدولية .

* * *

ويحق لمن يترجم الكواكبى أن يتبعه إلى رأيه عن الدعوة في مقام حرج من مقامات الترجمة له وتقديره على حسب أعماله ومساعيه .

ونقول انه مقام حرج لأنه مقام النظر في النبات الخفية التي يتوقف عليها الشيء الكثير في موازين التقدير والحكم على الأعمال والأخلاق ، وهي على لزوم استيفاء بحث المترجم وتصحيح نقه عرضة للمنازعة والمغالطة خفية المسلط على من يحسن النية وعلى من يسيئها في تقدير العظيم .

لم أكن قد لقيت الكواكبى ولا رأيته في زيارة من زياراته للقاهرة ، لأن زيارتي الأولى كانت بعد وفاته بشهور .

ولكنى لقيت من عرفوه وصاحبوه في بعض مجالس العالم الإسلامي « محمود سالم بك » فيما ذكر ، وهو من أقاموا زماناً في باريس لنشر الدعوة الإسلامية والرد على أقوال الصحف والساسة في المسألة الشرقية . ومن هؤلاء

الذين لقوه حيث سكنت زمناً بحي العباسية - شيخ متقدّم الفطنة متتبع للأحوال الّزعماء الدينين خاصةً فيما يدور حول العلاقة بين القاهرة والقسطنطينية وبين المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حملة الأقلام وأقطاب الدين من المصريين وكان حي العباسية وماجاوره في ذلك العصر ملتقى الكثيرين من زوار قصر الدمرداش وقصور الرؤساء المعززين وأصحاب الوظائف الكبيرة في القصور الخديوية ، ومنها قصر القبة مسكن الخديوي « عباس الثاني » يومذاك ، وقلما يقيم في سواه .

قال لي ذلك الشيخ الفطن : إن أنساً من أصحاب الكواكب كانوا إذا سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديوي ويحيى الجعو في بلاد العرب لمبايعته بالخلافة تسموا وقالوا : والله ما يعمل الرجل إلا لحساب نفسه . ألا ترون حريصاً على الخلافة العربية حريراً على النسبة إلى قريش في بيت من بيوت الإمارة ؟

ولم أعرف يوماً موقعاً الصواب في هذه المظنة ولكنني قرأت كتب الكواكب بعد ذلك عن الدعوة فرأيت أن الرجل يدعوا إلى غاية طولية الأمد يعلم أنها لا تتم في حياة فرد واحد ويوطن العزائم على ذلك بين قرائه وصحابه وهو أخرى أن يطمعهم في سرعة الإنجاز وسرعة الجزاء لو كان له مأرب يتعلق به ويعلق به آمال العاملين معه غير مضطر إلى التصریع بعراوه .

وكل ما يفهم من حرص الكواكب على الخلافة العربية القرشية أنه لم يكن يعمل لمبايعة الخديوي عباس الثاني بالخلافة الإسلامية ، وأنه ربما استعان به لإضعاف خلافة عبد الحميد والانتفاع بنفوذه في البلاد المصرية ، ولكنه لا يستطيع أن يوفق بين خلافة عباس الثاني ودعوة إلى الخلافة العربية القرشية « الروحية » . ولابد من إشاراته إلى احتلال الأمن حول الأماكن المقدسة أنه كان يرشح أحداً من بيت معلوم ، بل ليس بين الإمارات العربية في أواسط القرن التاسع عشر من تنفعه دعوة الكواكب بشروطها المقررة في « أم القرى » سواء كانت دعوة إلى الخلافة أو إلى الدولة . ولكن

دعوته — تلك — بشروطها من ناحية الدين وناحية السياسة تنتهي إلى غايتها
إذا تفاهم الناس على شروطها وانخلعت بيعة العثمانيين في بلاد العرب ، ثم
قامت الجامعة الإسلامية بعد ذلك على أساس غير أساسها المرسوم في خطط
عبد الحميد . . .

يكتفى أن يقال إن الأمة العربية تبحث عن إمام عربي تباعيده بالخلافة الروحية
لبيان الكتاب أجله ، وتصبح المسألة بعد ذلك مسألة أسماء ، وأيام .

خاتمة المطاف

وتحية الأخبار والواقع ، وربطة التعليقات والمعلومات ، أننا أمام حياة عظيمة مقدرة لعمل مسمى ، يوشك كل جزء من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إلى ذلك العمل ويترقب الوجهة التي اتجه إليها .

فليس في ترجمة الكواكب صفة لا تنظم في كتاب السيرة كما ينتظم الفصل المنتظم في السفر الجموع .

نشأته في حلب ملتقى المفارق بين الشرق والمغرب والشمال والجنوب ، أو مجس النبض بين أعصاب العالم المعمور .

ومعيشته في منتصف القرن التاسع عشر ، عصر النضجات القومية والمطامع الدولية ، وفرصة التحفز والصراع في ميادين العلم والخلق والثروة . بين الغرب المستعد بأهليه والشرق الذي لا أهله له غير الخوف والرجاء .

وأسرته التي نبت منها في منبت الجاه والرئاسة ، ووظائفه التي تشير فيه كوانن الغضب وتدفعه كل يوم إلى مصطدم الكرامة بين إنسان وإنسان ، وبين قوم وقوم ، وبين فكرة وفكرة ، وبين مصير ومصير .

كل جانب يأوي إليه كأنه هاتف ينادي : كن عربيا للعرب ولا يهونك بعد ذلك ما يكون ، فلن يكون إلا الخير ، ولن يكون إلا خيرا مما أنت فيه .

وتمت حياة الرجل ولم تم رسالته في خدمة قومه ، ولكنها كانت كذلك رسالة مسماة ، لو أطلع على عواقبها بعد سنوات معدودات لرضى عنها واطمأن

إلى عواقبها، وعلم أنه قد أراد ما يريده الزمن، أو أنه قد سبق الزمن إلى ما أراد.

وبحسب المصلح صاحب الدعوة عرفانا بعظمته وإنصافا لمقصده أن يسبق الزمن وأن يحسن السبق إلى مجراه ، وأن يأتي بالغد المجهول من ظلمات الغيب فيمشي فيه على هدى قبل أن تهتدى إليه شمس النهار .

وهكذا نظر الكواكبى إلى الغيب فيها اختاره من وجهة العمل للغد المجهول، كأنه اليوم المعلوم .

وضع قضية الإصلاح في موضعها، وأصحاب من حيث أخطأ الدعاة في زمانه، بين خلصين منهم ومدعين !

لم تكن قضية الجامعة العربية عند الكواكبى دعوة تناهض الدعاة إلى الجامعة الإسلامية .

كلا .. ولا كانت « الخلافة الإسلامية » أمامه هدفا يرميه ويعاديه .

وكل ما في الأمر أنه نظر إلى لقب الخلافة في بنى عثمان فلم يعلق عليه مستقبل المسلمين ولا مستقبل العرب ولا مستقبل الترك أنفسهم ، وهم شركاء بنى عثمان في الدولة والسلالة .

ولم يمضى على وفاته ربع قرن حتى كان نواب الأمة التركية في أول مجلس لهم يمثلها حق تمثيلها قد عرّفوا هذه الحقيقة كما عرفها الكواكبى وسجلها في أول صفحة من صفحاته ، فأعلنوا عزل الخليفة قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، ثم اجتمعت وفود العالم الإسلامي من نحو خمس عشرة أمة في القاهرة بعد ذلك بستة ، وانصرفوا وهم لا يحسون أن العالم الإسلامي رهين بذلك اللقب حيثما كان .

وهذه هي المعجزة ...

هذه هي آية العبرية التي تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفرا ويحسب في الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ، ومصلحة من مصالح الواقع والعيان .

كان الكواكب في عرف قوم من الجاهلين أو المتجاهلين عدو الجامعة الإسلامية ، عدوا للحقيقة الإسلامية ، عدوا لنفسه ولقومه ، عدوا لإخوانه في الدين من الترك العثمانيين .

ثم ارتفع حجاب الغيب فلم يبق أحد يخالف ذلك العدو المبين في دعوا دعاها أو في نية خفية انتواها ، لأنه صنع المعجزة بعقريته الملعنة ، وإنما العبرية الملعنة من آيات الله .

ولم يزل سبق الزمن كرامة العبرية التي من أجيها استحقت الذكرى بعد زمانها واستحقت الإعجاب من كل ذي طبع قوم وكل ذي سلالة إنسانية تحسن أنها ذات نصيب من عظمة الإنسان . ولكن الإعجاب الصادق البصير يضيف إلى تحية العظيم مزيداً من العلم بمعدنه ومعدن العبرية فيه ، وما كان مبلغ القدرة في العبرية الكواكبية أنها مجهر كبير يريه مدى السنين حيث يقصر النظر حوله عن مدى الأيام ؛ ولا كانت قدرته كالملفتاح الذي يدير لوالب الزمن إلى الأمام عشرين درجة أوأربعين سنة أوخمسين ... هذه قدرة لو صحت على هذه الصفة لكانت إلى قدرة الصناعة أقرب منها إلى قدرة الفكر وال بصير . وإنما كانت عبرية الكواكب ملكة نادرة تتلاقى فيها فضيلة العقل الثاقب وفضيلة الصمير الأمين .

كان مقتلاها بعقله على التمييز بين الأشكال والعنوانين وبين الحقائق والأعمال ، وكان خبيرا بالتفرقة بين عوامل البقاء والنهضة في الأمم وبين مراسم السمت والزينة في الدول والحكومات ، وكان يدرك موقع الخطأ وموضع السلامة فلا يهوله ذهاب لقب ولا يئس من مصير أمة تأخذ بأسباب الحياة .

وكان هذه فضيلة العقل الثاقب في هذه العبرية الملعنة .

أما فضيلة الصمير الأمين فيها فهي التي أبت عليه أن يكتم ما يعلم وأوحت إليه أن يعمل بما اهتدى إليه ولا ينكص على عقيبه .

والدنيا لا تضن باعجابها على عقريّة تنفرد بالفَكِير السَّادِيد ولا عقريّة تنفرد
بأنْحَلَق الحميد .

ولكن الجدير بالإعجاب والتشريف معاً عقريّة يلتقي فيها سداد الفكر
وشجاعة الضمير .

فهرس

الصفحة

٧ سيرة مهدية

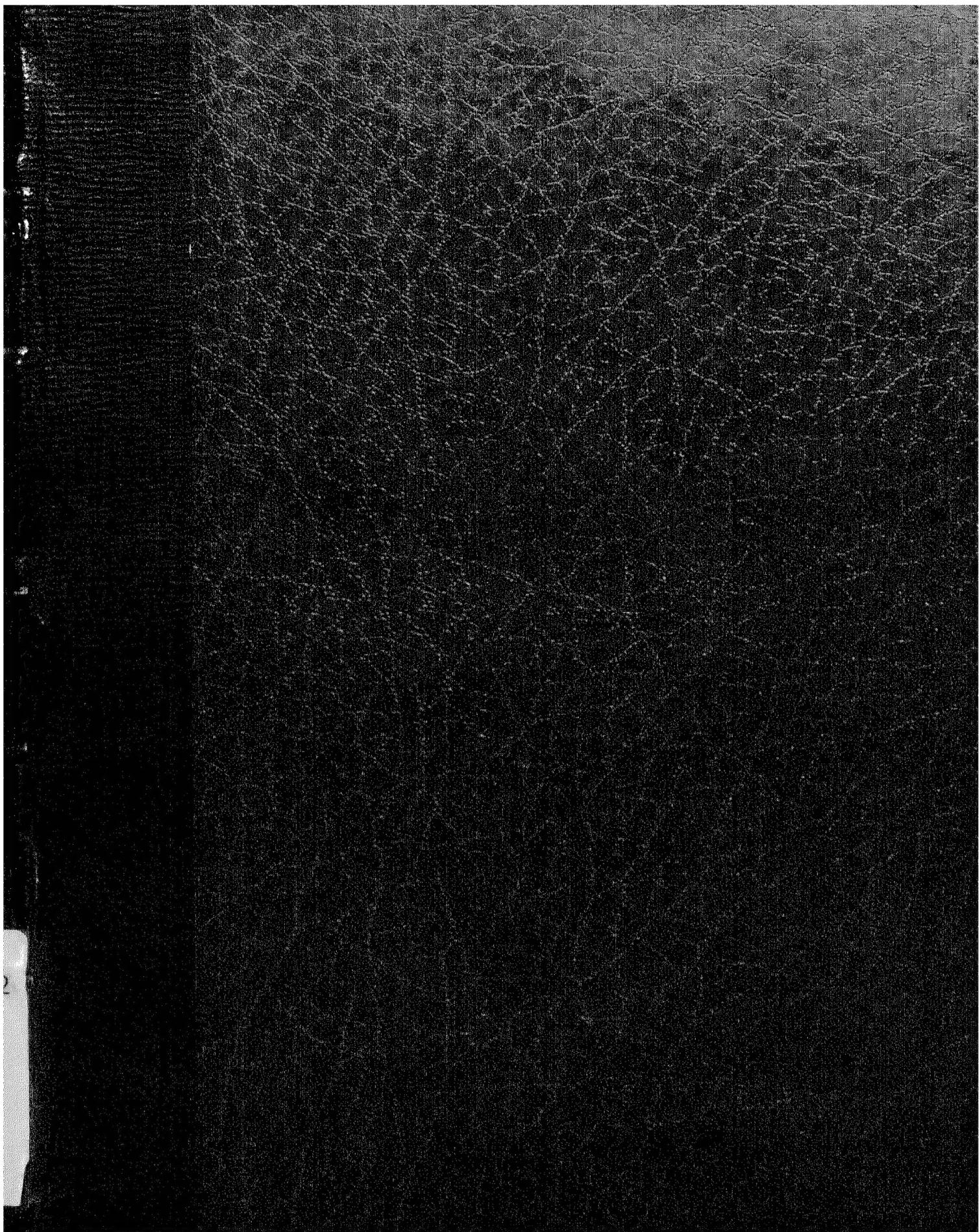
الكتاب الأول

١٣	مدينة
٢٢	ال المصر
٣٠	أسرة الكواكبى
٤٠	النشأة
٤٦	ثقاقة الكواكبى
٥١	أسلوب الكواكبى
٦١	المؤلف
٦٤	الجامعة الإسلامية والخلافة اليمانية
٧٥	أم القرى
٨٣	طيائع الاستبداد
٩٧	شخصية مكونة
١٠١	في مصر

الكتاب الثاني

١١١	برنامج إصلاح
١١٦	الدين
١٣٢	الدولة
١٤٠	النظام السياسي
١٥٠	النظام الاقتصادي
١٥٥	التربية القومية
١٦٢	التربية المدرسية
١٦٨	الأخلاق
١٧٣	وسيلة التنفيذ
١٨٠	خاتمة المطاف

طبع بطلب
دار النشر للجامعات المصرية
ملاوي الدين التيسير وشركاه (شركة ترجمة الأدب)
داشان بيروه . بالقاهرة



To: www.al-mostafa.com